

297
A9912A
1946
C.1

الرسالة الحنفية

بحث في رسالته الحنفية المقالة
على مدى الزمان ، واقتباً من حداها
في الاجتماع والسياسة وال الحرب والسلم
والعلاقات الدولية ، لإزالة أسباب
الاضطراب العالمي ، وإبداء الحضارة بـ
رؤحه وإقامة نظام عالمي جديد .

قلم

عبد الرحمن عزام

الأمين العام لجامعة الدول العربية

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

القاهرة

مطبعة الجنة للتأليف والطبع والنشر

١٣٦٥ - ١٩٤٦ م



مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

www.lisanarb.com

[الطبعة الأولى]

[جميع الحقوق محفوظة للمؤلف]

فهرس الكتاب

ط

تقديم

١ - في أصول الدعوة

نفيه

١ - شهادة الزمان والتبرير ٢ - حق من الشاهء أو من الأرض ٣

٤

الرعائناه

٥

الربماه بالله الواهه

أصل الأصول ٦ - الدين فطري ٦ - البحث عن الله ٦ - قصة إله بدرى ٧ - التوحيد أعلم
آمن الدعوة الحمدية ٨ - الناتج هو السبيل إلى الوحدة العالمية ٩ - دين واحد وأمة واحدة ١٠

١١

آثار التوهيد

التوحيد روح الدين ١١ - هو أساس الانتساب والاعتبار الشخصي ١١ - الفرك سبب لإهدار
كرامة المفرك وشخصيته ١٢ - أخوة عامة في الله ١٣ - الفرك ماري على الفعلة ١٣ - وكر
الحرافات والأباطيل ١٣ - باعث الفلم والاستبداد ١٤ - آثار التوحيد في تركيبة النفس ١٤ - التوحيد
سر حكمة الوجود ١٥ - التلازم بين التوحيد وصلاح الفكر والحياة ١٦ - آخر التوحيد في تحرير العقل
وبيو المضاراة ١٧ - لا احتجاج بالواقع السياسي ١٨

١٩

الرسانه

ردف الإيمان ١٩ - تنظم دقيق لقواعد الحياة وأساليبها ١٩ - آخر سرير لتطبيق قلم الإحسان ٢٠ -
الرحة والإيمان أساس الإحسان ٢١ - أساس العمران ٢١ - دفع لا بد منه عن رحمة الآثار ٢٢ -
آثار شمية تهمد لهم ٢٣ - آخر في زوال عهد الإقطاع من أرض المدافن واليولونيين ٢٣ - موقف عظيم
لشيخ الإسلام في عهد السلطان سليم ٢٤ - رحمة الحيوان ٢٤ - حكایات عن الرحمة ٢٥

٢٦

الزهاد

آية هي دستور الإيمان البشري ٢٦ - تصور محيب لموقع البر لدى الله ٢٦ - تهديد شديد لذوي
الفسدة والبخل ٢٧ - قدماء العرب وفهم الإيمان والرواوة ٢٧ - إيمان شامل بين المسلمين وأهل الكتاب
٢٩ - الإيمان معجزة الإسلام ٢٩ - غایا الإيمان في العالم الإسلامي ٢٩ - ذكرى إيمان في أبابا ٣٠ -
إيمان ليس له نظير ٣١

٢ - في الإصلاح الاجتماعي

٣٤

النطريبر الخلفي للفرد

نودج الإنسان الكامل ٣٤ — أثر القدوة العملية ٣٥ — المتيبة وأثرها في التوجيه الخير ٣٦ — سليمان ابن عبد الملك وأبو حازم ٣٦ — الناجر النابع الزائد ٢٧ — نظرة عصرية لحقيقة الصلاح ٢٨

٣٩

النطافل

آلة واحدة ٣٩ — جماعة المسلمين تقوم على الشكامل ٣٩ — مسئولية الفرد والجماعة ٣٩ — إنشاء
شبكة الفرد وشبكة الجماعة ٤٠ — حراسة الرأي العام ٤١ — عزائم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٢ —
العلاج بالتفصيع ٤٣ — صندوق الإصلاح عامه إلى الإحسان ٤٤ — تكافل المهاجرين والأنصار ٤٥ — مثل من
الشكاوى في قبائل الطوارق ٤٥

٤٧

البر

كلمة جامعة ٤٧ — نظرة الإسلام إلى مشكلة الفقر ٤٨ — الفقر آلة والفتور لفقد الوسيلة ٤٨ — العدل
هو الأصل ٤٨ — معارضة الترف والبيوس ٤٨ — القانون والضمير ٤٩ — اشتراكية أبي ذر ٤٩ — محاربة
الترف والأكتناز والربا ٤٩ — سلطات واسعة لولي الأمر ٥١ — المساواة عقبة وخان وخطام ٥١ —
الأشكال والظواهر ليست غاية في الحكيم ٥٣ — حق التغير حق الله ٥٤ — فلتنظم البر على أسس الإسلام ٥٥

٥٦

العنزة والطربة

صور جاهلية ٥٦ — العالم بين الفرس والرومانيين ٥٦ — تحطم التبود وإزالة الفوارق ٥٨ — مبادئ
في السياسة ومقاييس الدين ٥٨ — خلية بيع في الأسواق ٥٨ — خلية يليس المزعزع ٥٩ — بغير العدالة
الدولية ٦٠ — ميزان الخلية ٦٠ — ميزان العبرية ٦٠ — كفالة المزروعات ٦١ — الدفاع عن المزروعات ٦٢

٣ - في العلاقات الدولية

٦٤

الدولة والسيولة والهيمنة والقوى والثروة

من تاريخ علاقات المسلمين بالناهرين للإسلام ٦٤ — أول معايدة دولية بين المسلمين واليهود والفرس ٦٥
— دستور الدولة الهمذانية ٦٩ — نودج فرم لمعبدة الأمم ٦٩ — الإذن بالحرب الدفاعية ٧٠ — حرب
للاغراض السامية ٧٠ — تنظيم علاقات الشرخ ٧١

٧٢

الحرب المشروعة

تحديد أسباب الحرب وأغراضها ٧٢ — الحرب الدفاعية هي المباحة ٧٣ — وصايا وتحذيبات إذا وقعت الحرب
٧٣ — الإسلام دين حمل ٧٤ — فرضية الجهاد على المسلم والسلمة ٧٥ — الحرب المبومية لا يبيحها الإسلام
٧٦ — الحرب لأغراض مادية غير مشروعية ٧٦ — ضرورة تقدر بقدرها ٧٧ — الضفت والنيل علم النفس ٧٨

٧٩

الحرب لنصرة المظلوم

مبدأ شريف في الجاهلية والإسلام ٧٩ — قصة حلف القضول ٧٩ — حلف من قوب فيه دائمًا ٨٠ —
للحالف في الإمام والعدوان ٨١ — حرب أخرى مشروعة ٨١ — حلف جاهلي آخر يهدى بروح إسلامية ٨٢

السيحة والغرب ٨٣ — اختلاف المبيجين ٨٤ — الحرب العادلة عند بعض المبيجين ٨٤ — طموح المبيجين
إلى شبهة بالنظريّة الإسلاميّة ٨٥ — نصرة الفظوم ضرب من الكافل ٨٦

٨٧

أدب الحرب

الحرب والرق والتضليل عليهما تدرّجياً ٨٨ — أدب عام وأدب خاص ٨٨ — الإنذار ٨٨ — حماية حقوق المستأمين
للمتناسب ٨٩ — من سماحة للفقهاء ٨٩ — طبقة بين وسائل بن عطاء والخوارج ٨٩ — مسألة غير المغاربة
٩٠ — الفارات المعاشرة على الآمنين ٩٢ — فرار إلى أخلاقي الرحلة في الأديان ٩٢ — التغريب المائي ٩٢ —
حوادث ونصوم ٩٣ — نظرات في أحكام الأسر والاسترافق ٩٤ — لا قتل لامة الشرك أو الكفر وسدها ٩٤ —
أدلة العقل ٩٥ — أدلة التاريخ ٩٥ — احترام النفس البشرية بدون تخصيص ٩٦ — آداب أخرى للحرب ٩٦

٩٧

السلم والرأمة

السلم دائمة والغرب مازلة ٩٧ — دفع تهم وأوهام ٩٧ — أسباب اضطراب السلام ٩٨ — نصوص في
تمهيم حياة السلام ٩٨ — روح سلمية واحدة في مكة والمدينة ١٠٠ — شهادة الأجانب ١٠١ — شهادة التاريخ ١٠١

١٠٣

المرور والمواكب

السلم والمعاهد ومن لا يهدى له ١٠٣ — رأى في مسألة التغیر بين الإسلام أو الجزية أو البيت ١٠٤ —
السلم بين المؤمنين ١٠٥ — الإسلام وطن المسلم ١٠٥ — لا إلهية في الإسلام ١٠٥ — عالمية شاملة ١٠٦ —
يسي بذمتهم أدبنا ١٠٦ — آخرة القيمة والمهد ١٠٦ — حقوق الفقير ووجاته ١٠٧ — غنة أكثر من
غرفة آلة وشهادته على المهد ١٠٩ — الذي في كفالة الإسلام أيها كان في بلد إسلامي ١٠٩ — عهود الأمان
وتبادل النافع ١٠٩ — من وسايا الراشدين ١٠٩ — إلى الأخوة والوفاء ١١٠ — حق واحد للغالب
١١٠ — موجهات الصلح ١١١ — من حرب ١٨٧٠ إلى حرب ١٩٣٩ ، ١٩٤١ ، ١١١ — حرمة المهد فوق صفة
الدين ١١٢ — عبد يهاد وخليله يقر عهده ١١٣ — امرأة تغیر والرسول يقر بجوارها ١١٣ — كرامة
الفرد ١١٣ — مثل رائج لاحترام كلمة لم تكتب ١١٣ — مقى يجوز لنفس المهد ١١٥

٤ - في أسباب الاضطراب العالمي

١١٨

الرسنخوار

إثارة الرغبة في بحث شامل ١١٨ — مفاثلون ومحابدون ١١٨ — الأسباب الأساسية للاضطراب ١١٩ —
الاستهمار أو الغرب ١٢٠ — فرالله هي فرسانه ١٢٠ — الاستهمار سراب ١٢٠ — سبب الحروب في الغربين
الأخرين ١٢٠ — شر على الغالب ١٢١ — شر على المغلوب ١٢١ — آخرة في الغرب ١٢١ — وفي الشرق
١٢١ — محاولات لاتخاذ المخرج ١٢٢ — التضييع بالاستهمار لتجاهز المضاربة ١٢٢ — الدعوة الهمدية تتكره
١٢٢ — لاحمة على الإسلام إلا من نصوصه وسننته ١٢٣

١٢٤

مزاعم الطبقات

التفاوت قديماً وحديثاً ١٢٤ — أمثلة من التاريخ العالمي ١٢ — التعميد المصري في المذاهب والآدوات
١٢٥ — من آخر البخار والكتورباء ١٢٦ — الرأسمالية والمالية ١٢٦ — في الدول الشيوعية والنازية والعاشرة
والديمقراطية ١٢٧ — اليساطة الإسلامية في معالجة مشكلات المال ١٢٧ — المبدأ ثابت والتنفيذ من ١٢٨ —
الصراع مع المصلحة ١٢٨ — مثلان رائعان من حرية تصرف الدولة حسب الظروف ١٢٩ — أكبر هام

الدولة ١٣٠ — لا خصومة ولا نزع من خاصت اليات ١٣٠ — الإعان هو المارس الأول على المصلحة ١٣١ —
لزام السلطان بمنع نزع الطبقات والتأمين الاجتماعي ١٣٢ — النصر الروحي التهذبي ١٣٢ — محاربة الفرق
والبغض ١٣٤ — الرسول الزاهد ١٣٤ — المذاق الروحي أنيق ١٣٥ — جمع بين المصحف والسبف ١٣٦

التراث العنصري والوطنية

١٣٧

العنصرية قديماً وحديثاً ١٣٧ — الوطنية والقومية الحادة عصبية حداثة ١٣٨ — أثر التشدد في المحدود
المغرافية والجنسية ١٣٩ — انتقال المصبات الحادة إلى الفرق ١٣٩ — ظريفات اختلاف الفم ١٤٠ —
أضرار المفبرة الإجبارية ١٤٠ — بارود المزروع الحديثة ١٤٠ — الإسلام لا يعرف وثنية النصر والوعن
١٤١ — وضع العلاقات البصرية على أساس معنوي ١٤٢ — خلاف أخف من خلاف ١٤٢ — الفوة ليست
وسيلة الإسلام لتحقيق أهدافه ١٤٣ — لاسيادة ولا عبدية ١٤٣

الهزيمة الفوقي المعنوية

١٤٤

السيطرة على اللادة وأثرها في طياب المادوية ١٤٤ — سرعة التطور المادي وبطء التطور الروحي ١٤٥ —
تباعد الفروق بين الناس تباعداً ملحوظاً من الملم المادي ١٤٥ — بللة وشتات وتأكر ١٤٦ — ضرورة التوفيق
السريع بين الروح والماداة ١٤٦ — نعم استجواب إلى رقم ١٤٧ — جرائم ترتكب باسم الحريات ١٤٧ — لا بد
من ضوابط أدية قبل السكانية الكبيرة ١٤٨ — توفيق الإسلام بين المليانين ١٤٨ — مدحنا تنظم من بين
في دفع قرن ١٤٨ — أنسنة للتغريب ١٤٩ — فلتترجم إلى مatum الهدى والرجحة في الأديان ١٤٩ —
تصور المغرب تسرع منه المقول ١٤٩ — أجيالات في مكان السكانات ١٥٠ — أفلح من زاكها ١٥٠

ثالوث الفساد

١٥١

آثار الثالوث في حياة الأفراد ١٥١ — فلسفة سياسية خطيرة ١٥١ — آية فرآية يغير بها المسلحون ١٥١ —
تشيبة بليغ ١٥٢ — نصوص وحوادث ١٥٢ — الفدر غير الخدعة في الحرب ١٥٤ — قبوق الفدر حق بين الأشخاص
١٥٤ — الله لا يهدى كيد الخائن ١٥٤ — السكتب والنفاق في السياسة ١٥٥ — الميكانيكا يتذكرها
الإسلام ١٥٥ — سياسة الوضوح ١٥٥ — صفات أدنى من الكفر ١٥٦ — أسماء على غير مسباتها ١٥٦

٥ - في البحث عن سند روحي للحضارة

١٦٠

الوصابة على الحضارة المؤفري أم المؤقني؟

الشعلة الثالثة بين الأجناس ١٦٠ — صور (علم الإنسان) ١٦١ — أدوار الحضارة ومن متلوها ١٦١ — من
(علم الإنسان) ١٦٢ — الفروق البدنية لانكباب الحضارة ١٦٢ — للدنيا ليست اختصاصاً لقوم وحدم ١٦٢ —
هي أثر الحالات النفسية ١٦٣ — قانون قرآن ١٦٤ — مساواة ثانية بين الأرواح البشرية ١٦٤ — وحدة
النكتيف الدين ومتراها ١٦٤ — دعوى هي أصل الاستبداد والفاوت ١٦٥ — ميراث النفس الطيبة ١٦٥

قباسم المدنية ودوافعها

١٦٦

مداوية الأيام بين الناس ١٦٦ — التفسير المادي للتاريخ ١٦٦ — التفسير العنصري للتاريخ ١٦٧ — معاشرة
التفسيرين ١٦٧ — التفسير الروسي ١٦٨ — من القرآن ١٦٨ — بارود الفتنية ١٦٩ — ساعة الفصل بين النظم
والتأخر ١٦٩ — نظرية تأثير إلى المدينة الحاضرة ١٦٩ — بين المدينة والحق ١٦٩ — الانبعاث التجاهي ١٧٠ —
عوامل قيام المدنيات ١٧٠ — التزف ١٧٠ — الصحف عن حل أمميات الحضارة ١٧١ — هل جاء وعد الله ١٧٢

نظام مجرد للمعلم

١٧٣

صوت مع أسماء الدعاة ١٧٣ — فلتصر من النظريات البدعة ١٧٤ — المدينة في رأي (كيلنج) ١٧٤ — وطاة العيش في عصور الانتقال ١٧٥ — هل تستطيع عن وضيّع نظام المستقبل؟ ١٧٥ — ماذان أب جاكل وابن علم؟ ١٧٥ — بين جاكل معاصر وجده الفرعوني ١٧٦ — تختبر عقوبة الغرور ١٧٦ — إلى نظام سليم مؤقت؟ ١٧٦ — لا أمل في شوخ السامة والمامنة . الأمل فيقدرة العلما وفي صرامة الطبيعة الإنسانية ١٧٧ — فتؤجل النظم لثالية المفروضة ١٧٧ — من تاريخ الاصطدام بين الليل الملايا والواقع السى ١٧٨

الواهب قبل الموصى

١٨٠

فشل المفكرين في العالم ١٨٠ — جماعة إنجيلية تضع دستوراً حقوق الإنسان ١٨٠ — استفتاء عقليين من مفكري الشرق ١٨١ — رأى غاندي ١٨١ — غضب ويز على غاندي ١٨١ — رأى ثورو ١٨١ — مع غاندي ١٨٢ — فلتتجرب طريقة غاندي ١٨٢ — طريقة مجردة في الإصلاح ١٨٣ — تحويل التصور البعمى ١٨٣ — إعلاء الفرازى وتحويتها ١٨٤ — تربية بطرد بها روح الأديان ١٨٤

على النظام الحالى

١٨٦

إجماع على فاد الرأسمالية ١٨٦ — خطير رأسمالية الآلة ١٨٦ — الآلات برకات كثيرة العذاب ١٨٧ — مادية لا سند لها من الروح ١٨٧ — مشكلة التعطل في الأمم الرأسمالية ١٨٧ — رجال الكتبية الإنجيلية يتحولون إلى البصار ١٨٧ — إلى التوازن الإسلامي ١٨٨ — الاستعمار الحديث ١٨٨ — ويلات عالمية ١٨٩ — شاهد حق ١٨٩ — شاهد من العالم الجديد ١٩٠ .

مقدمة

١٩١

البدء يتغير تواعد بسيطة ١٩١ — تطور الرأسمالية والاستعمار واجب ١٩١ — عام واحد لا تجزأ السلم فيه ١٩١ — هيئة عليا عالمية لإدارة مشتركة ١٩٢ — التدرج إلى حكومة عالمية ١٩٢ — البدء في قلوب الفانلة ١٩٢ — من التربية القومية إلى التربية العالمية ١٩٢ — التدريب على النسب للصلة العالمية ١٩٣ — فلتنهض النواة الصالحة في هيئة الأمم المتحدة ١٩٤ .

٦ - في انتشار الدعوة

١٩٦

انتشار الرهوة في المؤمنين

شهرة باطلة ١٩٦ — خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة ١٩٦ — فتح مكة بجيش المظودين ١٩٦ — الدعوة السرية والظاهرة ١٩٧ — مفتروعية الدفع عن النفس ١٩٧ — الموقف في المدينة يشهد ١٩٨ — تاريخ الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة ١٩٨ الموقف في خارج المجزرة ١٩٩ — رواية السكولوليل ييك ١٩٩ — فتنة واعتداء ١٩٩ — تجمع وتهديد ٢٠٠ — مع الروم في شرق الأردن (مؤنة) ٢٠٠ — دليل فذ من أدلة النسخة الإسلامية ٢٠١ — فتح مكة ٢٠١ — لم يكن مفر من تحكيم السيف في فتحها ٢٠١ — الفرض من فتحها ٢٠٢ — صورة من النسخة الحمدى ٢٠٢ — دليل على انتهاي النظام الجاملي ٢٠٣ — الفتح السلى قبل الفتح المجرى ٢٠٣ — دليل من إسلام أبي سفيان زعيم المشركين ٢٠٣ — الوفود تتولى من المجزرة بالختيارها على الرسول ٢٠٤ — الخدمة الوحيدة التي أداها السيف للإسلام ٤ — أبي العدين بدرام مددودات ٤ — مفارقات ٢٠٥ — ما بعث الله بهمَا جائياً ٢٠٥ — قصة نكفت من روح عصرها ٢٠٥

انصار الرغوة في الأرعم المسيحية

٢٠٧

ماذا بين الوجة العربية ومجات المون والفتنه والتشار ٢٠٧ — موجة تحمل رسالة الهندى والمدالة ٢٠٨ —
 موجة فذه فى التاريخ ٢٠٨ — فى ساحة المسيحية ٢٠٨ — شهادة السير توماس أرنولد ٢٠٩ — انتشار المسيحية
 فى ظلال الإسلام ٢٠٩ — حاكم المسيحيين إلى عدالة المسلمين ٢٠٩ — فرض صرف دين ٢٠٩ — الوزراء والولاية
 للمسيحيون فى دولة الإسلام ٢٠٩ — مسامم المسيحية فى قصر الخلافة الإسلامية ٢١٠ — الكتالى شاد فى رعاية
 الإسلام ٢١٠ — العرب المسيحيون يختارون مع إخوانهم المسلمين ٢١٠ — بطولة عرب نصراوى فى واقعة البويب
 ٢١١ — لم يكن السيد من أسباب دخول المسيحيين فى الإسلام ٢١١ — وقائع انتهاك دين استثناء بيت
 القاعدة ٢١٢ — السياسة والمسد الاجتماعى، لا الدين ٢١٢ — برهان قاطع على تسامح المسلمين ٢١٢ — قيام
 ودى دائم فى بلاد الإسلام بينه وبين المسيحية ٢١٣ — التحصى الديني بضاعة غربية ٢١٣

٢١٤

إسلام الصليبيين

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين ٢١٤ — ناج العرب والترك من بعدم ٢١٤ — إسلام عوائل من
 الصليبيين ٢١٥ — في الحرب الصليبية الأولى ٢١٥ — في الحرب الثانية ٢١٥ — رواية راهب عن إسلام
 ثلاثة آلاف صليبي ٢١٥ — النسوة الفادحة بالإشارة ٢١٦ — الرحمة المقنة للأعداء ٢١٦ — رحمة أشد قسوة
 من الجحابة ٢١٦ — احتكار أهاد الصليبيين ٢١٧ — تبادل الأسوأ أحسن ٢١٧ — تأثير الإيمان بصلاح الدين
 ٢١٧ — أمراء كثيرون يسلون ٢١٧ — صليبيون يقاتلون في صدوق المسلمين ٢١٨ — فرج نصاري
 الشرق بزوال حكم الصليبيين ٢١٨ — شواعد آخر من الشرق البعيد في المهد الأموى ٢١٨ — سلوك كرم
 في كل مكان وزمان ٢١٩ — أساس قرآنى لم يختلف باختلاف العصور ٢١٩ — هل من همة الحق والحرية
 يقوم بها المسلمون والمسيحيون في الشرق؟ ٢٢٠

٢٢١

إسلام الأوروبيين

تاريخ مشرف لنا وتاريخ غير مشرف لغيرنا ٢٢١ — مزاج فاس وصدر ضيق ٢٢١ — مفارقات بين البدو
 المسلمين والأخضر المسيحيين ٢٢٢ — المسيح البرىء من روح التنصيب الغربي ٢٢٢ — التزعم البشري الفاسدة
 بين إطلاق المسيحية وتنقيذ الإسلام ٢٢٢ — أمر تركيز الدين في النظام الكهنوتى ٢٢٣ — الطريقة في فهم القرآن
 لدى المسلمين والقىود في فهم الإنجيل لدى المسيحيين ٢٢٣ — الحال والمرام بين في الإسلام لدى الخاصة والم العامة
 ٢٢٣ — أدب القرآن مع الحالين ٢٢٣ — يساطة الدخول في الإسلام ت usurp الدماء والأموال ٢٢٣ — من
 تاريخ تحصي المسيحيين في إسبانيا ٢٢٤ — انتهاك اليهود في إسبانيا ٢٢٤ — فرار المضطهدين إلى الإسلام
 يغزوون القرآن ٢٢٥ — دخول في الإسلام حق في وقت سقوط دولته ٢٢٥ — هزيمة العرب في إسبانيا سبب
 تأخر وصول الحضارة إلى أوروبا غالباً قرون ٢٢٥ — بين وطأة المسيحيين في العرب ورحمة المسلمين في الفرن
 ٢٢٥ — سلطات وامتيازات المسيحيين في دولة الأتراك ٢٢٦ — العنى عن الأسوأ أحسن ٢٢٦ — هو
 الزجاج الغربي المعوى دافعاً ٢٢٧ — أهل في رحمة الله ٢٢٨

خطأً مطبعي وتصويفي

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٤	٢	فلن لأجد ولن لا يجد	فلن نجد
٣٩	١٩	ولن لا كره الإسلام ذلة في العبادة	ولن لا كره الإسلام ولن لا يكره الإسلام
٤٨	١١	وفي أموالهم حق معلوم	والذين في أموالهم حق معلوم
٢١	هامش	خير تنظيم علاقات الشر خير	تنظيم علاقات الشر خير
٧٣	١٠	صواب الآية «يسألونك عن الشهر الحرام قتال	صواب الآية «يسألونك عن الشهر الحرام قتال
		فيه قتل قتال فيه كبير . وصدق عن سبيل الله	فيه قتل قتال فيه كبير . وصدق عن سبيل الله
		وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه	وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه
		أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون	أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون
		يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا»	يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا»
١٣٥	٣	أسيد	أسيد
١٥٠	٥	أم كتم	أم كتم
١٥٣	١	واقعة بعد	واقعة بعد
١٥٥	١٠	ندعى	ندعى
١٩٨	٦	القليب	القليب
١٩٩	١١	عمان	عمان
١٩٩	٢١	شر حبيل	شر حبيل
٢١٤	٨	أم	أم
٢١٧	هامش	اصلاح الدين	اصلاح الدين
٢١٧	٣	كثيرون أسراء	أسراء كثيرون
٢٢٥	٢	Mazarabe	Mazarabe

طريق العودة

الرحلة	الوقت	المسافة	الملاحظات
٢٩	٧	٣٥ كم	
٣٠	١١	٦٨٥ كم	٦٨٥ كم من المدن التي تم زيارتها في اليوم السابق
٣١	١٢	٤٣٦ كم	٤٣٦ كم من المدن التي تم زيارتها في اليوم السابق
٣٢	١٣	٤٣٦ كم	٤٣٦ كم من المدن التي تم زيارتها في اليوم السابق
٣٣	١٤	٤٣٦ كم	٤٣٦ كم من المدن التي تم زيارتها في اليوم السابق
٣٤	٧	١٢٤	١٢٤
٣٥	٩	٦٢٣	٦٢٣
٣٦	٩	٦٢٣	٦٢٣ كم
٣٧	٩	٦٢٣	٦٢٣
٣٨	٧	٦٢٣	٦٢٣
٣٩	١١	٦٢٣	٦٢٣
٤٠	١٢	٦٢٣	٦٢٣
٤١	١٣	٦٢٣	٦٢٣
٤٢	٨	٦٢٣	٦٢٣
٤٣	٩	٦٢٣	٦٢٣
٤٤	٧	٦٢٣	٦٢٣
٤٥	٩	٦٢٣	٦٢٣
٤٦	٩	٦٢٣	٦٢٣
٤٧	١١	٦٢٣	٦٢٣
٤٨	١٢	٦٢٣	٦٢٣
٤٩	٨	٦٢٣	٦٢٣
٥٠	٩	٦٢٣	٦٢٣
٥١	٧	٦٢٣	٦٢٣

نَقْدِيم

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

الْمَدْعُوْرُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عَبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَاهُمْ حَلَّ
رِسَالَتَهُ وَأَدَاءَ أَمَانَتَهُ .

إن هذا الكتاب وليد المصادفة ، فلم يكن تأليفه مقصوداً ، وإنما دعا إلى
تناول موضوعه حالة الشذوذ والاضطراب التي سادت العالم أثناء الحرب
الأخيرة ، والرغبة في الكشف عن أسباب هذا الاضطراب العالمي ، ومحاولة
إيجاد علاج له بعد أن تبين أن هذا العلاج غير ميسور في هدى الدعاوى
والمبادئ السارية في هذا القرن ، والتي أوحت بها المدنية المادية الحديثة .

فكلا قلبنا الرأى في هذه الدعاوى ، وسايرنا تنفيذها الواقعى في أوروبا
وأمريكا ، ازداد الشك في نقوستنا ، وظهر عجز هذه الدعاوى عن حل المشكلة
وعن وقائهما بمحاجة الناس . وتوالي الحروب المدمرة ، وتتدبر الأقوام بين هذه
الدعاوى أكبر شاهد على ذلك . فلا بد إذا من النظر بجد لاتصال المهدى في
غيرها . فهل هو في الرسالة الخالدة التي تعاقبَ رسُلَ اللّٰهِ عَلَى الدُّعَوَةِ إِلَيْهَا وَجَاءَ
بِهَا إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ ؟ ذلك ما يريد هذا الكتاب الكشف عنه .

وإذا نظرنا في الأديان السماوية جميعها نجد أنها تعبّر عن حقيقة واحدة مهما
تبينت الأشكال والأوضاع ، أساسها الإيمان والإحسان . وهذا المعنى واضح
في القرآن الكريم في الآيات التالية وأمثالها :

« قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ »

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ
لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ » .

« مِلَّةُ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمُ هُوَ سَقَامُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » .

فَالآيَاتُ الْأُولَى وَالثَّانِيَةُ اتَّبَاعُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْخَالِدَةِ مُسْلِمِينَ ، سَوَاء
أَجَاءُوا بَعْدَ مُحَمَّدٍ أَمْ قَبْلَهُ ، وَالآيَةُ الثَّالِثَةُ جَمِيعُ النَّاسِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَى أَسَامِ
الإِعْانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ . فِرْسَالَةُ اللَّهِ إِذَا فِي نَظَرِ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَتَابُعُ عَلَى حِلْمَهَا
الرَّسُّلُ وَالْأَقْوَامُ .

وَالشَّرِيعَةُ الْحَمْدِيَّةُ كَنْظَامٌ عَالِيٌّ هِيَ آخِرُ تَطَوُّرٍ لَهَذِهِ الرِّسَالَةِ ، وَهَذَا الْكِتَابُ
هُوَ مُحاوَلَةٌ مُتَوَاضِعَةٌ لِإِيجَادِ حلٍّ لِمُشَكَّلَاتِ هَذَا الْعَالَمِ عَلَى ضَوْئِهَا ، وَهُوَ أَيْضًا
عَمَالَةٌ لِبَيَانِ أَسْسِ الدِّعَوَةِ الْحَمْدِيَّةِ فِي السِّيَاسَةِ وَالاجْتِمَاعِ وَالْحَرْبِ وَالسُّلْطَانِ
وَالعَلَاقَاتِ بَيْنَ الدُّولَ وَالشَّعُوبِ وَالْعَبَقَاتِ وَالْأَفْرَادِ ، وَبَيَانِ حَاجَةِ الْحُضَارَةِ إِلَى
سَنَدٍ مِنَ الْقُوَّى الرُّوحِيَّةِ وَالْمُنْتَوِيَّةِ يَعْسِكُهَا وَيَوجِهُهَا لِلْخَيْرِ الْعَامِ وَيَمْحُدُّ مِنْ
حَوَافِزِ السِّيَطَرَةِ وَالْأَثْرَةِ وَالظَّهُورِ .

وَالْعَرْضُ الْوَاصِحُ فِي بَعْضِ النَّوَاحِي لِوَجْهَةِ النَّظرِ الإِسْلَامِيَّةِ إِنَّا قَصَدْنَا بِهِ
إِلَى التَّعَاوُنِ وَالْقُرْبَى لَا التَّنَابُذِ وَالتَّفَرْقَةِ ، وَأَنْ يَمْحُدَ النَّشَءُ الْجَدِيدُ التَّمَطَشُ إِلَى
الْمَعْرِفَةِ وَالْطَّالِبُ لِلْهَدِى ، مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ ، مَادَّةً لِلتَّفْكِيرِ وَسَبِيلًا
إِلَى رَأْيِ عَالَمِيٍّ مُسْتَقِيمٍ بَعْدَ هَذِهِ الْحَرُوبِ الْمَدْمُرَةِ الَّتِي أَثَارَتْ اضْطَرَابًا لَا نَظِيرٍ
لَهُ ، التَّبَسُّ فِيهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ . « شَرَعْ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي
أَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا
تَفْرِقُوا فِيهِ » .

- ك -

وقد شرف الله العرب بأن جعل منهم آخر رسالته ، واستكمل فيهم رسالته
الخالدة ، فحملهم الأمانة ، وعليهم أن يكونوا المثل والقدوة في سعة الصدر والتصفية
والعدل والإباء وحب السلم .

وإنى لأرجو أن يكون الجيل الناشئ من العرب أهلاً لحمل هذه الرسالة ،
يعدون الحضارة والعلم بالسند الروحي الذي لا بد منه لعالمٍ جديدٍ متضامنٍ
متعاونٍ على تعمير خيرات الأرض ، مستظل بلواء الحق والعدل ، نافرٍ من
استخدام القوة ، متوجهٍ نحو دولة عالمية واحدة تباركها يد الله وبرعاها رحمة .

عبد الرحمن عزرايم

القاهرة في يوم الخميس ١٣٦٥ من شوال سنة ١٩٤٦ من سبتمبر سنة

في أصْول الدُّعَوة

فَلَمَّا دَعَهُ رَسُولُهُ أَتَاهُ مَنْهَا وَأَنْذَلَهُ إِلَيْهَا فَلَمَّا
أَتَاهُ مَنْهَا أَتَاهُ مَنْهَا فَلَمَّا أَتَاهُ مَنْهَا أَتَاهُ مَنْهَا

وَأَتَاهُ مَنْهَا أَتَاهُ مَنْهَا فَلَمَّا أَتَاهُ مَنْهَا أَتَاهُ مَنْهَا
وَأَتَاهُ مَنْهَا أَتَاهُ مَنْهَا فَلَمَّا أَتَاهُ مَنْهَا أَتَاهُ مَنْهَا
وَأَتَاهُ مَنْهَا أَتَاهُ مَنْهَا فَلَمَّا أَتَاهُ مَنْهَا أَتَاهُ مَنْهَا

(الآن تكفي)

١

في أصول الدعوة

مختال ایهان

تحميد

منذ أكثَرَ مِنْ عَشْرِ سَنِينَ دُعِتِي مُخْطَةً لِلإِذَاعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَصْرِيَّةِ تَارِيخَ بَصَلِ
لِلتَّحْدِيثِ عَلَى مَوْجَاتِهَا ، وَتَرَكْتُ لِي اخْتِيَارَ الْمَوْضِوعِ ، فَاخْتَرْتُ الْحَدِيثَ عَنْ
أَبْطَالِ الْعَرَبِ

وَلَا نَظَرْتُ فِي أَمْرِ الْعَرَبِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، وَجَدْتُ أَنْ بَطْلَ أَبْطَالِهِمْ ،
بَلْ بَطْلَ الْعَالَمِ أَجْمَعِهِ (مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَابْتَدَأَتِ الْحَدِيثُ
بِهِ ، بِخَاءِ الْفَيْضِ بِالسِّيرَةِ الْمَاطِرَةِ عَنْ أَبْرَزِ صَفَاتِ شَخْصِيهِ الْمُظْمَنِ ، وَمَا أَسْتَطَعَ
الْعَدُولُ عَنْهُ إِلَى مَنْ سَبَقَ أَوْ مَنْ حَلَّقَ ، فَاسْتَمَرَ الْحَدِيثُ فِيهَا يَتَابِعُ حَتَّى خَرَجَتُ
مِنْ مَصْرِ رَسُولَ مَلِكِهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنْ أَقْطَارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَانْقَطَعَ مَا بَيْنِ وَبَيْنِ
الْإِذَاعَةِ ، وَلَمْ أَكُنْ قَدْ تَنَوَّلْتُ إِلَّا بَعْضُ نَوَاحِ بَطْلِ الْأَبْطَالِ .

وَقَدْ وَجَدْتُ بَعْضَ الْعَالَمَاءِ أَنَّ مَا تَحْدِثُتْ بِهِ مِنَ الْمِذِيَاعِ فِي صَفَاتِ الرَّسُولِ
الْكَرِيمِ جَدِيرٌ بِالْجَمْعِ وَالنَّشْرِ ، فَجَمَعْتُهُ وَطَبَعْتُهُ فِي كِتَابٍ سُمِّيَ (بَطْلُ الْأَبْطَالِ
أَوْ أَبْرَزُ صَفَاتِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٌ) .

ثُمَّ مَضَتْ أَعْوَامٌ عُدْتُ بِعِدَّهَا إِلَى مَصْرُ ، وَعَادَتْ هِيَةُ الإِذَاعَةِ الْمَصْرِيَّةِ
فَتَفَضَّلَتْ مَرَّةً أُخْرَى بِالسَّماحِ بِاستِئْنَافِ أَحَادِيثِهَا ، فَلَمْ أَجِدْ أَحَبَّ إِلَيَّ نَفْسِي
مِنْ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى أَبْطَالِ الْعَرَبِ ، وَأَنْ يَكُونَ جَامِعُ فَضَائِلِهِمْ بِلِ فَضَائِلِ الْإِنْسَانِيَّةِ
كَلَّا مِنْ مَوْضِعَ الْكَلَامِ مَرَّةً أُخْرَى . وَكَانَتِ الْعِنَايَةُ هَذِهُ الْمَرَّةُ بِدُعَائِمِ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ
وَآثَارِهَا وَانْتَشارِهَا وَمَا يَسْتَطِعُهُ تَقْدِيهُ لِعَلاجِ مُشَكَّلَاتِ الْعَالَمِ عَلَى هَدَاهَا ،
فَفَاضَ الْحَدِيثُ وَاتَّسَعَ لِهِ الْوَقْتُ حَتَّى أَرْبَى عَلَى ثَلَاثَيْنِ مَحَاضِرَةً رَأَيْتُ أَنْ أَجْعَلَهَا
أَسَاسًاً لِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي أَرْجُو أَنْ يَنْفَعَ اللَّهُ بِهِ فِي فَهْمِ (الرِّسَالَةِ الْمَحَالِدَةِ) لِمُحَمَّدِ بْنِ

عبد الله في عصر الظُّمَاءِ الروحِيِّ ، والاضطراب السياسي ، والمادِيَّةِ القاسِيَّةِ .
وقد يكون من توفيق الله أن يخرج البحث في هذه الرسالة وأثرها في
زمنِ النَّاسِ فيه أحوالٌ ما يكونون إلى هدىٍ ينير لهم طرق العيش بسلام بعد
أن دمرتهم الحروب والآلام .

فإذا كان هذا الكتاب شعاعاً من نَّفسِ هذا الحق ينطاق في ديناجي هذا
الليل البهيم الذي غمر البشرية ، وإذا كان بسطُ مبادئ هذه الدعوة يهدى إلى
طريقٍ وسَطِ مستقيمٍ بين هذه المسالك الوعرة المضللة التي تخبط فيها شعوب
البشر وتتصادم وتتلاخن لغير غايةٍ واضحةٍ ولا حجَّةٍ ظاهرةٍ . فإني أرجو أن
يكون ما بدا في هذا البحث من فضل الله وفيه من رسوله معيناً على تبسيط
مبادئ هذه الدعوة وبيانها بكيفية ترضي أهل الرأي وتثير طريق العامة .

وإني على ما أنا فيه من تقصيرٍ وتفريطٍ لأشاهد بالتجربة والنظر . وقد
عشت بين الفقراء والأغنياء ، محروم الجاه ومتعملاً به ، وخلعت الخاصة
والعامة في الشرق والغرب ، وشاهدت آثار دعوات مختلفة ، ونظرت في
كتب أقوام كثيرة ، فلم أر بناءً أقوى على الدهر ، ولا أرجحَ جمْعَ البشرية
من ذلك البناء الذي بناه محمد صلى الله عليه وسلم !
حاولت أن تناول منه العرب والمعجم ، واشتغلت به المتفقهون والمؤرخون ،
والرواة وأهل الرأي ، ودعاة الفتنة وداعاة السياسة ، وتألب عليه الجاحدون
والماكرون وشوّهوا ما شاءوا ثلاثة عشر قرناً ، فلم يستطعوا أن يغيروا واعد
الله « إِنَّا نَحْنُ نَرْزَعُنَا الدَّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » فقضى أمرهم جميعاً وبقى أمر
الكتاب قائماً ، ولا يزال ذلك البناء على مر الأعاصير سليماً متيناً رحباً ، من
نزله كان آمناً .

هذه الرسالة الخالدة إن كانت من الله ، كما نعتقد نحن المسلمين ، فيكفي
أنها من الله لمتاز على كل دعوة من غير الله .. وإن كانت من (محمد) ، كما يقول

نهاد الزمان
والنبرة

حق من السماء
أو من الأرض

المنكرون لنبوته ، فنحن على يدنا من أمرنا ، ندعو إلى سبيلها بالحكمة والوعظة الحسنة . ندعو المنكرين لينظروا فيها لا كذبنا ، بل كنوزها تارikhية أنت بأفكار وشرايع في السياسة والمجتمع والاقتصاد . وسيجدونها ، بصرف النظر عن معنى التدين ، أساساً صالحة لظام عالمي وسطى بين المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يطاحن عليها الناس الآن ، وسيجدونها ، حتى على أنها من البشر ، أصلح الدعوات وأرشدها وأدناها إلى مبادئ العدل والحرية والمساواة والإخاء ، وسيجدون طرائقها كيادتها وسطى سهلاً يلتقي الناس على قبولها بفطرتهم فيصلح بها الحال ويستقيم المجتمع ، ويعم السلام بين الأمم ، وبين الطبقات في الأمم .

فما هي دعائم هذه الرسالة ؟

وما هو هدأها في الإصلاح والتكافل الاجتماعي ؟

وما هي سياستها في العلاقات الدولية ؟

وما هي نظرتها لأسباب الانحراف العالمي ؟

وما هي وسائلها في البحث عن سند روحي للحضارة ؟

وما هو النظام العالمي الجديد الذي يوافق روحها ؟

وما هو تاريخ انتشارها شرقاً وغرباً قدماً وحديداً ؟

ذلك ما سنتناوله بعون الله تعالى في أبواب هذا الكتاب وفصوله ،

ونسأل الله عن جل التوفيق إلى الهدى والرشاد .

عبد الرحمن عزام

الدِّعَامَتَانِ

تقوم الرسالة الخالدة على دعامتين ، ينبع عليةما بناؤها ، وتترفع منها فروعها ، ويصدر عنهم معتقدها ، هما :
الإيمان ، والإحسان .

لقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِرِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ». (٦٢ سورة البقرة)

وقوله : « بَلَى ، مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ مِّنْ رَبِّهِ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ». (١١٢ سورة البقرة)

وقوله : « وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ! ». (١٢٥ سورة النساء)

في هذه الآيات وأمثالها تحديد وجهة الإسلام ، وتلخيص الدعوة الحمدية : عقائدها وعبادتها وشرائعها .

وفيها سرُّ بساطتها وقوتها ورحابتها وسرعة انتشارها بين أهل الرأي وال العامة من البشر .

الإِيمَانُ بِالْهُدَىِ الْوَاحِدِ

أصل الأصول — الدين فطري — البحث عن الله — فضة إله زنجوي —
التوحيد أعظم أسس الدعوة الخمودية — هو السبيل لوحدة العالمية

الإِيمَانُ بِاللَّهِ بارِيِّ الْكَوْنِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، هُوَ أَصْلُ الْأَصْوْلِ فِي
الْأَدِيَانِ السَّمَوَيَّةِ، فَهُوَ أَصْلُ الرِّسَالَةِ الْخَمُودِيَّةِ .
هُوَ الْيَنْبُوعُ الَّذِي أَفَانَهُ اللَّهُ مِنْ قَلْبِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْهُدَىِ
وَحْقَائِقِ الْخَيْرِ وَالسَّلَامِ .

هُوَ الصَّدِّيِّ الْعَبِيقُ لِذَلِكَ الْهَاتِفُ الَّذِي نَادَاهُ مِنَ الْمَجَاءِ وَالْأَرْضِ : « اقْرَأْ
بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبِّكَ الْأَكْرَمَ .
الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنْ . عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

« يَا أَيُّهَا الْمُدْرِرُ ! قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكِيرْ . وَثِيَابِكَ فَظَهِيرْ . وَالْأَجْزُ
فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْتَنِنْ تَسْكِنْ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

« وَكَذَلِكَ أَوْخَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أُمَرِّنَا . مَا كُنْتَ تَذَرِّي مَا الْكِتَابُ
وَلَا إِيمَانُ ، وَلِكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءَ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ
لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ،
أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » .

خرج (محمد) على أهله وقومه بالدعوة إلى الإيمان بالله وحده فأنكروها،
وأرادواه على العدول عنها وظنوا به الغنون، فقالوا: ساحر وشاعر ومجنون
وكذاب، وساوموه على ترك دعوته بالمال والملائكة والجاه، وقاوموه واضطهدوه
وآذوه، فما كان قوله لهم إلا أن قال: « وَاللَّهُ لَوْ وَصَّمُوا الشَّمْسَ فِي عَيْنِي وَالقَمَرَ
فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَرْكِنَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ » . فلم يَعِدْ

بذلك الإيمان الذي اطمأنت إليه نفسه وأمره به ربها ، ولا بالدعوة إليه ، مُلْكَ الليل والنهار وما فيهما ! وكان همه أن يلتقي النام على عبادة الخالق القدير الذي تزهت صفاته عن الشرياث والمثيل .

الدين بطرى

والناس من أقدم العصور حيًّار يجدون في أنفسهم إلهاماً بالفطرة إلى التسليم بقوة ظاهرة يستلمون منها ويستمدون منها العون ، ويستقبلون منها الخير والشر ، فيدعونها خوفاً وطمعاً ، ويتلقونها بالقرابين والعبادات ، ويجدون في الإيمان بهذه القوة التي اختلفوا في تكييفها سندًا وملاذاً من رهبة القوى المادية في الكون ، وسؤالاً وعزاء عن ما هي فيه من قسوة الحياة وآلامها .
شعور فطري قوي في نفوس البشر يدفعهم إلى عبادة القوة . وليس أبدع من تصوير القرآن لهذا الاتجاه بقوله في قصة اهتداء إبراهيم عليه السلام إلى الله كما وردت في سورة الأنعام :

« وكذلك رأى إبراهيم ملائكة السموات والأرض وليكون من المؤمنين . فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربِّي ! فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً ، قال هذا ربِّي ! فلما أفل قال لئن لم يهدني ربِّي لا كونَ من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغةً ، قال هذا ربِّي ، هذا أكبر ! فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون . إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

هكذا تدرج عقل إبراهيم في الاتجاه إلى الله من مظاهر القوة والنفع والرعب والروعة في النجم والقمر والشمس ، ولكن لم يرض فطرته السليمة أن يراها ناقصة بأفواها وقيودها وتمددها وخضوعها لسلطان العذاب ، فعدل عنها ، والتمس عقله الطريق إلى قوة مختارة دائمة غير محدودة ، هي الذي فطر السموات والأرض وقهراها . ثم اتصل بعقله وحي الله وهداه .

وقد عبد الناس قُويَّ كثيرة ، إما عبادة أصيلة ، وإما لاختناد عبادتها زُلُق
وتقرُّباً إلى تلك القوة العظمى القاهرة التي يدركونها بفطرتهم .

عبدوا الأشباح والأرواح والجحادات والحيوانات والتجموم والكواكب
والماء والنار والبرق والرعد ، وما توهموا أن فيه القوة أو أنه مُثُل لها أو مظاهر
من مظاهرها . بل عبد بعض الناس بعضاً ممن تحجت فيه قوة غير طبيعية ،
ثم قتلوا من عبدوا حين تبين لهم قصوره عن القدرة التي ظنواها فيه .

ومن أَعْجَب ما شاهدت من عبادة الإنسان للإنسان ، أني جالست قبل قصة آلة بغيري
خمسة عشر عاماً إله من آلهة الزنوج في جبال الثوبة بأقصى الجنوب من
كردفان . فكنا على الأرض نتفقأ ظلاً وارفة لشجرة من تلك الأشجار
الاستوائية الهائلة ، وجمع من الشعب رجالاً ونساء عرايا يرقصون ويطربون
في حضرة الإله ويسموه « الكجور » . وهذا الكجور سواء كان هو
الإله أم رمزه ، هو عرفاً المعبد الذي يرفع إليه الدعاء وتقديم له القرابين ، وهو
القدير على تصريف الأمور الكونية ، له كل قدسي ، فهم يطعمونه ويهبّونه
ويترفون إليه مقابل أن يأتيمهم بالملطري زرعهم وسائهم ، وأن يشير عليهم
بالوقت المناسب للصيد أو الحرب ، أو أن يدفع عنهم البلاء والمرض .

ولم أستطع أن أتبين إن كان في نظرهم إله كاملاً أو كأصنام الجاهلية ،
يعبدونه زُلُق لمن هو أعظم في نظرهم .

جاءت زوجة « الكجور » ونحن تحدثت بواسطة مترجم فلست بمحوارى
ومدت ساقها فأرأتني آثار ضرب بها . فقال المترجم : إن بعض العامة ضربوها ،
وهي تشكو إليك ظانة أنك الحكومة . فقلت : كيف وهي زوج « الكجور »
وهو إلههم المتصرف بالقدرة عندهم ! فقال : إن القدس لا تشمل الأسرة ،
وحقوقه شخصية فقط ، وأهله مثل جميع الناس .

فقلت لصاحبي : إن هذا الشعب على سذاجته وضلال عقيدته يضرب
أعلى الأمثال في الديموقراطية والمساواة .

ومن عجيب أمر القوم ، أن للكجور حقوقاً يقابلها واجبات ، فإذا
امتنع عن أداء الواجب قتلوه .

فهل إذا أجدبت الأرض وهلك الزرع سأله المطر ، فإن أبي وتأخر
المطر حاولوا استرضاءه بالهدايا والدعاء ، فإن مررت السنة وأجدب ما بعدها
ولم يستطعوا أن يقنعوا بجورهم ليأمر المطر برحمتهم ، فإنهم قد ينتظرون
مواسم أخرى ثم يقتلونه أو يرجونه ويفيرون غيره من يعرفون فيه بالميراث
والاختبار علم الأسرار وفعل بعض الخوارق ، فيخلونه محله .

وأعجب ما في نوادرهم ما روى لي أنهم شكوا أحد الآلهة مرة إلى
الحكومة لامتناعه عن الإيتان بالمطر ، ولم يتركوا موظف الحكومة حتى
أمر بحبسه ، واستمرروا في يتظرون أيامًا ، فإذا بالكجور يطلب من الحاكم
أن يطلق سراحه فإذا بهم بالمطر بسرعة . وما إن انطلق من الحبس وسار
بالشعب نحو الجبل ، حتى هطلت الأمطار غزيرة . فهم لا يشكرون في قدرته
ولا يظنون به العجز ، وإنما يظنون به القصد السيء .

ذلك مثل من فكر البشر في سذاجته . وفكروا البشر حتى في حضارته
أحياناً لا يكون أعلى كثيراً . فقد عبد المعجل والقط والصنم والنار وبعض
البشر وغير ذلك .

وكانت الدعوة الحمدية إلى الوحدانية غريبة لدى العرب وغيرهم رغم
ما يظهر الآن من بداهتها واستقامتها ، وكانت الحاجة شديدة لدى داعي التوحيد
ليسمو بالعقل الإنساني إلى النظر في الكون والمخالوقات والتوجه إلى خالقها
جيمعاً لاستمداد العون واستلهام الرشد .

التوحيد أعظم
أُس الدعوة
الحمدية

وإذا تقصينا سيرة الرسول في مكة ، وتأملنا التزيل في تلك الفترة ، رأينا
 (محمدًا) قد وقف قلبه وجهده ، ووهب حياته وحياة أنصاره لتسكين هذه
 الدعامة الأولى وإطمارها . وقد خاصم أعداءه وهادئهم ، ونفر ورضي ،
 واستصرخ أهل الأديان الأخرى ليلتقاوا معه على كلاية سواه : هي عبادة الله
 لا شريك له « قل: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كُلِّيْ سَوَادٍ يَنْتَنِي وَيَنْكِمْ أَلَا تَعْبُدُ
 إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَحْدَدَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . فَإِنْ
 تَوَلُّوْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ». .

ولم يقبل في دعوته إلى الوحدانية من المشركين وعبدة الأولان هؤادة
 أو مساومة رغم أنه كان يجادل الجميع ، ولكنه كان كثير التسامح مع أهل
 الكتاب . يقول القرآن « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْتِي هِيَ أَحْسَنُ » ،
 ويقول في النصارى « وَلَتَعْدِنَ أَفْرِبَهُمْ مَوْدَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا
 نَصَارَى » ، ويقول قوله عاماً في جدال الجميع « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
 وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادُهُمْ بِالْتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

وقد بلغ تسامح الدعوة المحمدية مع الملل الكنaitية حدّاً لا يعرفه أهل
 هذه الملل حتى في هذا العصر الذي انتشر فيه الأدينيون ، ولا يقبل مثله كثيرون
 من المتدلين في الملل الأخرى ، فلا تتسع صدورهم له ولا رحمة الله لغيرهم .
 انظر إلى هذه الآية الكريمة « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى
 وَالصَّابِرِينَ مِنْ أَمْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
 وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ». .
 فالهدف الأساسي للرسالة المحمدية هو الإيمان بالله لا شريك له . وفي سبيل
 التوحيد تسهل كل العقبات ، وتنسوى القبائل والشعوب جميعها ، حتى الأديان
 لقوله تعالى « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزَلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَإِنْحِقَّ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ».

رسول الله في دعوته إلى الإيمان بالله الواحد الخالق لم يدع أنه مبتدع بل قال إنه مكمل للشريعات السابقة ومعيد للحقيقة الفطرية التي هي دين إبراهيم بل دين نوح وآدم، وإنه لا تبديل لذلك الدين القائم الذي يستند إلى وحدة الله، دين واحد لا ترتبا عليه وحدة خلقه «شرع لكم من الدين ما وصي به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه . كبر على المشركون ما تدعونهم إليه» . «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إني بما تعملون عليم . وإن هذه أمتك أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون» . «فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفَّارَ قَالَ مَنْ أَنْصَارٍ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

ولم يختلف الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل الكتاب إلا حيث كان تزييه الخالق موضع شك . ففي سبيل التوحيد والتزييه جادل وخاصم ولم يصالح أو يهدن أحداً على حساب دعوته هذه، لأنها أساس رسالته وغايتها، بل غاية الوجود «وما خلقتُ الْجِنَّةَ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ» ، «سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْكِمُ وُعْدَهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» .

وهذا التوحيد الذي دعا إليه فضلاً عن سمه بالعقل البشري هو أصل الخير وأساس السعادة والخلق السليم كما يظهر من الفصل التالي .

آثار التوحيد

التوحيد روح الدين — هو أساس الانتساب والاعتبار الشخصي — الإشراك سبب لإهدار شخصية المشرك — المشرك ماريٌ على الفطرة — المشرك باعث الظلم والاستبداد — التلازم بين التوحيد وصلاح الفكر والحياة — وذكر الخرافات والأباطيل — عقائد التوحيد وأثارها في تركيبة النفس — آثارها في حرية الفكر وسيادة العقل وسمو الحضارة — لا احتجاج بالواقع السى،

يَدْنَا أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ الْهَدَىُ الْأَسْمَىُ لِلْدُعْوَةِ الْمُهَمَّةِ .
وَاللَّهُ سَبَحَنَهُ قَدْ سَمِيَ الْمُؤْمِنُ بِهِ وَحْدَهُ مُسْلِمًا « فَلَمَّا أَخْسَنَ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفَّارَ
قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، أَمْنَى بِاللَّهِ وَأَشَمَّدَ
بِأَنَا مُسَلِّمُونَ » .

وَإِذَا تَصْفَحْنَا آئِيَ الدُّكَرِ الْحَكِيمِ نجُدُ الدُّعْوَةَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ لَا تَخْلُو
مِنْهَا سُورَةٌ ، بَلْ تَكَادُ لَا تَخْلُو مِنْهَا صَفْحَةٌ مِنَ الْكِتَابِ تَصْرِيحاً أَوْ تَلمِيعًا .

وَحِكْمَةُ ذَلِكَ وَاضْعَفَةٌ ؛ إِذَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ كُلُّ مَا فِي الدُّعْوَةِ
مِنْ صَلَاحٍ وَإِصْلَاحٍ ، وَهُوَ الرَّبَاطُ الَّذِي يَجْمِعُ شَتَّاهَا وَيُؤْمِنُ بَيْنَ أَجْزَائِهَا ،
بَلْ هُوَ فِيهَا بِقَامِ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ ، يَتَحَلَّ وَيَبْلُى وَيَنْدِرُ بِغَرَافِهَا . وَالشَّرَائِعُ مِنْ
غَيْرِ إِيمَانِ كَالْقَوَاعِينِ الْوَضْعِيَّةِ : تَسْقُطُ بِسُقُوطِ الْقَاعِينِ عَلَيْهَا وَيَذَهِبُ أَثْرُهَا
بِذَهَابِ الظَّرُوفِ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا .

لَذِكْرِكَ كَانَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ هُوَ الْحَدَى الْفَاصلُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَيْسَتْ
الْعَنَاصِرُ وَالْأَجْنَاسُ حَدُودًا بَيْنَهُمْ بَلْ لَيْسَ الْأَنْتَسَابُ إِلَى الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ نَفْسَهُ
وَدُمُّ الْأَنْتَسَابِ إِلَيْهِ حَدًّا ، إِذَا يَنْتَهِي هَذَا الدِّينُ يَرْعِي كَنِيسَةُ الْمُسِيَّحِيِّينَ وَيَعْمَلُ
الْيَهُودُ إِذَا دَخَلُوا فِي ذِيْمَتِهِ ، وَيَأْمُرُ الْمُسَلِّمِينَ بِالْقَتَالِ لَا حَرَامَ حَرَمَةٌ ؛ قَائِدُ الْمُعَاهِدِينَ
مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ الْكَتَابِيَّةِ « وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بِعِضِهِمْ بِعِصْمَهُمْ لَهُمْ مَمْلُوتُ صَوَامِعُ
وَبَيْعَ وَصَالَوَاتٍ وَمَسَاجِدٍ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا » ، وَيَنْتَهِي هُوَ يَكْتُنُ

مواسِس
الانتساب
والاعتبار
الشخصي

مِنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِضَرِبِهِ قَلِيلَةٌ عَلَى الْقَادِرِينَ مِنَ الذِّكْرِ
مُقَابِلَ حَمَاهِ نَفْوِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ وَدِينِهِمْ وَغَرْفَهِمْ ، ضَرِبِهِ هِيَ رَمْزٌ
لَّهُمْ ، يَسْتَعِينُ بِهَا الْجَاهِدُونَ عَلَى الرَّبَاطِ فِي الشُّعُورِ ، وَيَأْمُنُ الْمُعَاهَدُونَ بِهَا
عَلَى دِيَارِهِمْ وَعَقِيَدَهِمْ . وَقَدْ رَدَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، إِلَى نَصَارَى
رِحْضَنْ حِنْ أَجْلَاهُ الرُّومُ عَنْهَا ، وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ : إِنَّا أَخْذَنَا هَا حَمَاهِكُمْ وَقَدْ
عَجَزَنَا عَنْهَا . نَقُولُ بِيَنْمَا الْإِسْلَامُ يَعْمَلُ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ ، إِذَا بِهِ
يَفْرَقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَيَعْمَلُهُمْ مُعْمَلَةً أُخْرَى فِيهَا عَدْمُ اعْتِرَافٍ بِكَرَامَتِهِمْ
وَلَوْ أَنَّهُ يُنْفِيُهُمْ أَيْضًا بِعَهْدِهِمْ مِنْ عَهْدِهِمْ وَمُوَاتِيقِهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ بِشَرْطٍ أَلَا تَصَادِمُ
حَقًا أَوْ تَدْفَعُ إِلَى ظُلْمٍ ، كَمَا حَصَلَ فِي حَلْفِ النَّبِيِّ لِخَزَاعَةٍ وَصَلْحِ الْحَدِيدَيْهِ كَمَا سِيَّأَتِيَ .
إِذَا الْمَدَاوَةُ مَعَهُمْ دَاعَةٌ لِوَجْهِ اللَّهِ وَصَالِحُ الْبَشَرِيَّةِ . حَتَّى يَكُونُ الدِّينُ كَمَا هُوَ .

الشَّرِكُ سَبَبٌ
لِإِهْدَارِ كَرَامَةِ
الْمُشْرِكِ
وَشَخْصِهِ

وَمِنْ نَاحِيَةِ أَخْرَى يَنْجُدُ الْإِسْلَامُ يُدْخِلُ الْكِتَابِيَّةَ فِي الْأُسْرَةِ الْمُحْمَدَيَّةِ فَيُبَيِّحُ
مُصَاهَرَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَيَجْعَلُهُمْ خُوَّولَةَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ لَا يَقْبِلُ مِثْلُ هَذَا
النَّسَبَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، وَيَأْبَى أَنْ يَعْتَرِفَ لَهُمْ بِهَذِهِ الْمِيزَةِ « وَلَا تُنْكِحُوا
الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنْنَ وَلَا مَأْمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا يُنْكِحُوا
الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَا يَعْبُدُ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَا يُعْبِدُهُمْ ».
يَجْعَلُهُمْ بِنَحْسَةِ « إِنَّا الْمُشْرِكُونَ بِنَجْسٍ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ».
كُلُّ هَذِهِ الشَّدَّةِ مَعَ الْوَثَّابِيَّنَ وَالْمُشْرِكِينَ لَيْسَ تَعَصِّبًا أَعْمَى وَلَا إِفْرَاطًا
فِي الْعَصَبِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، فَلَوْ كَانَ ذَلِكَ لِسَوْاتِ الدُّعَوَةِ فِي الْمُعَالَمَةِ بَيْنَ أَهْلِ
الْأَدِيَانِ الْأُخْرَى جَيْعًا ، وَقَدْ أَقَى الْإِسْلَامُ مِنَ الْعَنَتِ وَالْأَذَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
كَثِيرًا ، وَلَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يُخْرِجْ الدُّعَوَةَ عَنِ التَّعْبِيرِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ . ذَلِكَ
كُلُّهُ لِأَنْ عَقِيَّدَةُ التَّوْحِيدِ هِيَ غَايَةُ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَسَبِيلُ الْإِصْلَاحِ الْمُشَودُ :
فَتَقْتَلُ آمَنَّ الْعَبْدَ بِأَنَّهُ أَثْرَ لِلْبَارِيِّ الْأَعْظَمِ ، كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَالِقِهِ مَا يَبْيَنُ الصَّانِعُ
وَالْمَصْنُوعُ مِنَ الْعَصَلَةِ ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَصْنَوْعَاتِ جَمِيعًا مَا يَبْيَنُ الْآنَارُ الْمُتَمَدِّدَةُ

النَّاسِ
بِالْأَنَارِ
بِالْأَنَارِ
بِالْأَنَارِ

للهُنْشِيُّ الْوَاحِدُ، وَكَانَ هَذَا الْاِرْتِبَاطُ الْمُعْتَرَفُ بِهِ اعْتِرَافٌ بِإِعْانٍ بَيْنَ الْخَالقِ وَالْخَالقِ أَخْوَةً عَامَةً فِي الْرِّبَاطِ لَا يَفْصِمُ، يَسْتَمِرُ بِهِ الْعُمَرَانُ وَالْإِصْلَاحُ وَالْخَيْرُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ مَصْدِرُهَا إِلَذْعَانٌ لِإِرَادَةٍ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ بِذَلِكَ وَجُودُنَا جَيْعاً فِي هَذَا الْكَوْنِ مَتَصِلُ الْمِبْدَأُ مَتَحَدُّ الْغَايَةَ. وَمَنْيَ امْتَلَاتُ النَّفْوسِ بِذَلِكَ سَهْلٌ كُلُّ شَيْءٍ.

فَلَوْ تَصْوِرْنَا النَّاسَ عَلَى إِعْانٍ كَامِلٍ كَهُذَا، يَؤْذُونَ مَا عَلَيْهِمْ وَفَقَ هَذَا الْإِعْانُ، لَأَمْكَنَنَا أَنْ تَصْوِرَ أَقْدَرَ الْمَخَاوِقَاتِ عَلَى الْفَسَادِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، أَصْلَاهُمَا، إِذَا هُوَ حِينَئِذٍ لَا يَحْتَاجُ لِوَازْعٍ وَلَا هَادِرٍ إِلَّا مِنْ إِعْانِهِ، بِلْ لَأَمْكَنَنَا أَنْ تَصْوِرَ هَذَا الْعَالَمُ وَلَا حُكْمُ وَلَا حُكْمَةٌ فِيهِ إِلَّا لِوَجْدَانِ الْمُؤْمِنِينَ. لَذَلِكَ كَانَ الْإِعْانُ بِاللَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ الشَّاغِلُ لِشَاغِلِ اصْحَابِ الدُّعَوَةِ، وَكَانَ فِي الْحَقِيقَةِ سَبَبُ نِجَاحِهِمَا وَاسْتِقْامَتِهِمَا.

فَإِذَا الْشَّرِكُ يَتَبَعُهَا هَدْمُ مَفَاسِدِهِ، وَإِقَامَةُ التَّوْحِيدِ يَتَبَعُهَا قِيَامُ فِضَائِلِهِ.

الشَّرِكُ طَارِيٌّ تَقْرَرُ الدُّعَوَةُ الْمَحْمَدِيَّةُ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا عَلَى الْفَظْرَةِ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ، ثُمَّ عَلَى الْفَطْرَةِ خَلَوُا، فَإِذَا عَادُوا لَهَا اسْتِقَامُوا.

وَإِذَا نَظَرْنَا فِي تَارِيخِ أَدِيَانِ الْبَشَرِ وَجَدْنَا الشَّرِكَ فِي الْفَالِبِ نَتْيَاجَةً لِبَدْعِ أَحْدَثِهَا النَّاسُ، فَعَدَدُوا الْآلهَةَ وَنَوَّعُوهَا، وَأَقْامُ الْمُبَدِّعُونَ وَالْمُفْسِدُونَ أَنْفُسَهُمْ قُوَّاماً عَلَى الْآلهَةِ وَسَدِّنَاهَا، بِلْ وَكَلَاهُ وَنُوَابَاهُ، وَأَخْذُوهَا سُلْطَانَ هَذِهِ الْآلهَةِ سُلْطَانَهُمْ، ثُمَّ تَأَمَّرُ ذُرُّو الأَغْرِاضِ فَتَسَانِدُوهَا عَلَى تَضْلِيلِ الْعَامَةِ، وَاتَّهَوْهَا بِوَضْعِهِمْ فِي أَسْرِ بَعْضِهِمْ مِنَ الْخَرَافَاتِ وَالسَّخَافَاتِ، وَكَانَ الْكَهْنَةُ وَأَخْرَاجُهُمْ دُكْنَارِيَّا وَالْأَبَاطِيلَ مِنَ الْقُوَّامِ وَالْوَكَلَاهُ وَالْمَرْشِدِينَ خَزَنَةُ الْأَسْرَارِ الْدِينِيَّةِ هُمْ فِي الْوَاقِعِ الْآلهَةُ الْمُتَضَرِّفُونَ فِي الْمَجْمُوعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَأْسُورَةِ.

فَأَوْلُ أَثْرٍ يَبْدو لِلشَّرِكِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ، هُوَ أَنَّ الْعَبُودِيَّةَ لِلصَّنْمِ اقْلَبَتْ إِلَى عَبُودِيَّةِ الْشَّخْصِ أَوِ الْأَشْخَاصِ الْقَانِينِ عَلَى هَذَا الصَّنْمِ، وَقَامَتْ عَهُودُ مِنْ

باعت النسلم
والاستبداد
الاستبداد دامت في مصر وال العراق آلاف السنين ، ولم يخل منها ركن من أركان العالم من بفر التاريخ إلى اليوم . ومهما تغيرت الأوضاع والأشكال . فإن الشرك والاستبداد حليفان متلازمان .

أما التوحيد فتبنته الإنصاف ويلازمه كالظل للشواغر ، لأن الإله الذي دعا إليه الأنبياء و محمد صلى الله عليهم وسلم منه عنه الهوى والغرَّض ، لا يريد من خلقه رزقا ولا طعاما ، وليس له وكلاء ولا نواب ولا سلطاء . يقول « اذْغُوْنِي أَشْجِبْ لَكُمْ » وهو أقرب إليهم من جبل الوريد ، هو الرحمن الرحيم ، هو الغنى القدير ، هو الباري المصور ، هو العَفْو الغفور ، هو المغطى المانع ، هو الحَكْمُ العَدْلُ ، هو المتقن الجبار ، هو العليم الخبير ، هو المسيطر فوق عباده ، العزيز الحكيم .

كل هذه الصفات وما معها من تَنْزِيه عن الشَّبَهِ والمِثْلِ جعل الألوهية في وضع يعلوها عن الاستغلال السَّيِّء ، وجعل الخلق تحتها متساوين في حكمها ، أكرمُهم عند الله أتقاه ، وأقربُهم أبرئهم بالعباد .
وكما أن الظلم والأُرْة ملازمان الشرك كان الإنصاف والعدل والمساوة ملازمةً للتَّوحيد .

لذلك كانت غاية الدعوة الحمدية الإعان بالله وحده ، وهو عندها فوق كل شيء . ويقول القرآن الكريم « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ». آثار التوحيد في تركية النفس

والإعان الخالص من الشوائب ، البُصادر من القاب ، تتبعه حتماً جميع الفضائل المتعارف عليها ؛ لأن المؤمن يجحد حسابه مع الله مباشرة فيرفعه إليه وحده؛ فهو لا يرتكب الكبيرة ولا الصغيرة عن محمد وقصد . ومني وجد هذا الإنسان فقد وجد الإنسان الكامل .

فلو أن مجتمعاً تكون من مثل هذا الإنسان لقام على الرحمه والمحبة ؛ إذ من

وصايا الإسلام «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» «الراحون
يرزقهم الرحمن» «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» فهو إذن
المجتمع السعيد.

وليس غريباً ما دعا إليه بعض الخوارج في عهد الفتنة بين (علي) و(معاوية)
من إلغاء الحكومة البشرية تماماً إذ قالوا «لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» . ولو تحققت
الحكومة الإلهية لكان ملوكها الوجدان، وقانونها الإنفاق، وزاجرها
العرف العام.

لكن الدعوة الحمدية لما فيها من صدق نظر ومطابقة لطابع الناس عوّلت
في الإصلاح على الإيمان والشّرعيّ الذي ينظم ما يقصدت إليه من إحسان، وجعلت
الوازع من يختاره المؤمنون لينفذ ما شرّعت، فضمنت بذلك استقامة الأمور.
وهيئات أن تصل البشرية إلى حكومة الوجدان التي توحّي بها عقيدة التوحيد !

قلنا إن الإيمان بالله يتبعه حتماً تغلبُ جميع الفضائل في نفس المؤمن . فهو
لا يعيش لنفسه بل للإخوانه من مخلوقات الله جيّعاً ، ويُكاد يُمحى في النفس
المؤمنة الشر بجميع أنواعه ، وأول ما ينشو فيها هو الإيثار والفداء والتضحية
في سبيل الخير العام .

فالمؤمن لا يكون ظالماً ، لأنّه يعارض بالظلم صفة من صفات الله وهي
العدل ، ولا يكون غليظاً قاسياً ، وسيده هو الرحمن الرحيم . ولا يكون كاذباً
ولا مخادعاً ولا منافقاً؛ لأن حسابه مع الله العليم الخبير الذي «يعلم خائنة الأعْيُن
وما تخفي الصدور» ، ولا يكون ذليلاً أو جباناً ، لأنّه يعلم أن ذلك لا يفيده
مادام الأمر يهدى الله .

وهكذا إذا استرسلنا في تعداد النّقائص نجد أنه حيل بينها وبين الموحد
بحجاب الإيمان ، ونجده الصفات السامية جميعاً محبيّة إلى النفس المؤمنة المطمئنة

التي دخلت في عباد الله ودخلت في رحمته حين أبَت نداءه : « يا أيتها النفسُ
المطمئنة ارجعني إلى ربِّك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ». .
هذه النفس المطمئنة بالإيمان تحيا في سعادة لا يتذوقها إلا المؤمنون .
ويُعْكِن لأمثالنا من يعيش على هامش الإيمان ويُسأَل الله المهدى ، أن يتصور
النفس المؤمنة تكون في الجنة فقلًا في هذه الدنيا ؛ لأن السعادة الروحية التي
يتذوقها هي أطيب ما في الجنة من متعٍ .

هذا الإيمان بالله وحده الذي قلنا إن الفضائل تبعه حتى وإن يظهر النقوص
اللازم بـ التوحيد وصلاح
من الشر والرذيلة ، يسمى كذلك بالعقل البشري ؟ فالوثنية والشرك يشغلان
العقل والجنة والحياة
الذهن بالمحسوسات ومحصرانه في نطاق الأباطيل الصادرة عن دعوات السحررة
والكهنة وطوابق القاعدين على الآلة المحسنة ، أو على الآلة المقسمة الموزعة
السلطات والمتنافسة عليها ، فتطبع في أذهان الناس صورًا مما هي فيه أو ما يبطنون
إليه من انحرافات ، بينما يفعل التوحيد والتزكيه عكس ذلك ، فهو يدعو للتفكير
والنظر وتحكيم العقل ؛ فالله الذي دعا إليه الإسلام يجمع السلطان والفضائل ،
وهو مع الناس أيما كانوا ، لا وسيط له ، ولا ينالون به بحسن ، فلا بد لهم من
التفكير فيه والاستدلال عليه بأثره ، مما يدعو إلى تعاقب العقل عصتو عاته .
وقد كانت عنابة الدعوة الحمدية في هذا باديه في أقوال الرسول صلى الله
عليه وسلم وأعماله كاردة آيات الكتاب الكريم الدعوة إلى النظر والتعقل ،
فاستهزأت بالمقلدين والمكابرین والجاحدين والجامدين بكلمات لاذعة قارصة ،
وامتدحت المفكرين والباحثين والذين يحسنون استخدام ملائكتهم في النظر
في الكون واستنباط الحقائق من مقدماتها وآثارها .
ومن العجيب أن الشرك الذي صرعته الدعوة الحمدية في جزيرة العرب
في أيام الرسول وفي غيرها من بعده ، وترتب على هزيمته ظهور الفضائل التي

أشرنا إليها ملزمة للإعان بالله لا شريك له ، لم يكن سهلا هيناً كا يُظنَّ ،
بل كان شرّاً مُستطيرا وبلاه مستأصلا .

يقول الله تعالى « وَتَجْبُوا أَنْ جَاءُوكُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ
كَذَّابٌ . أَجْعَلَ الْآلَهَةَ إِلَيْهَا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ بَخْيَابٌ ! وَانْطَلَقَ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ
أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلَهَتِكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ لَرُادٌ ما سَعْفَنَا بِهِذَا فِي الْمَلَةِ الْآخِرَةِ
إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ » .

فالدعوة الحمدية باتتصارها على الشرك قد أزالت العقبة الأولى في سبيل
غيره الفعل السمو بالنفس البشرية كما يتنا ، ورفعت الحجر عن عقول تحيّرت ، فانطلقت
للناظر والتبصر ، وبدأت آثار ذلك مسرعة ، حتى كادت الدعوة الحمدية أن
تكون في ذاتها معجزة ، فقد اتفق العلماء والباحثون على أن نجاح محمد صلى
الله عليه وسلم في دعوته مقطوع النظير ؛ فلا يُعرَف في تاريخ البشر نجاح
كالذى لقيه .

ومن المتفق عليه أيضاً أن دعوه كانت غريرة مُشكّرة في نظر القوم
مُبَيَّدةٌ غير مُمَيَّدٍ لها ، قد لقيت من العناد والاستهزاء والاستنكار ما تَفِيضُ
به حوادث السنوات العشرين التي قضتها صل الله عليه وسلم وهو يجهّر بها
بعد أن أخفاها في بادي أمرها .

وكما كانت الدعوة إلى التوحيد غريرة فإن آخرها في النفوس وما ترب عليه
في تكييف الحياة وتغيير وجه الأرض كان أكثر غرابة .

فالأعراب الذين وأدوا بناتهم واعتزوا بسفك الدماء والنهب ، صاروا
الخشوع الرئيسي الدين ينتفعون فضلا من الله ورضوانه .
والأسرة التي كان يرث فيها الرجل زوجات أبيه ، صارت الأسرة المطهّرة .

والقبيلة التي كانت لا تعرف حقا إلا لعصبيتها ، ولا ترعى ذمة إلا من

هو منها ، صار فيها من يردد إلى نصارى (جحش) أموالهم ، لأنهم عجز عن رعاية ذمّتهم .

والسادة الذين استعبدوا الناس صاروا يخشون الله ولا يخشون في الحق لومة لأتم .

ومن الجفاة النساء صار الخليفة الذي ترده أمرأة في تجمع الخلق فيقول « أصابت امرأة وأخطأ عمر ! » ويكتب إلى أكابر ولاته الفاتحين متهكماً « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ! » لأن ابن ذلك الوالي أساء إلى مسيحي من قوم مغلوبين . وكان ذلك في مصر .

فإذا قال قائل : وما بال فساد الحال صار بأخطابه على الدنيا اليوم ، والمؤمنون ملأ الأرض ؟

قلنا ما قاله الله « وما يؤمنُ كثيرون باليه إلا وهم مشركون » وما قاله الرسول « والله لا يؤمن ! والله لا يؤمن ! والله لا يؤمن ! قيل : من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يؤمن جاره بوائمه » .

فهل أمن أحد من أهل الكتاب في الغرب أو الشرق بوائق جاره ؟
وهل أحب مسلم لأخيه ما يحب لنفسه ؟

ولازالت الإنسانية في هذا البلاء ، وهذه الحروب ، وهذه الفرقـة بين الأمم ، وبين الطبقات في الأمم حتى تغلاً مبادئ عقيدة التوحيد قلوب الناس .

لا احتجاج
بالواقع السرى .

الإحسان

رِدِيفُ الإِعْيَانِ — تَطْلِيمُ دِيقَنِ قَوَاعِدِ الْحَيَاةِ وَأَسَالِيهَا — آخِرُ سَرِيعٍ لِتَطْبِيقِ
نَظْمِ الْإِحْسَانِ — الرِّحْمَةُ وَالْإِغْرَاءُ أَسَاسُ الْإِحْسَانِ — دَفْعَ لَا يَدْعُونَهُ مِنْ
الْأَتْرَاكِ الْعَمَانِينَ — أَثْرَمُ فِي زَوَالِ عَهْدِ الْاِفْتَطَاعِ مِنَ الْمَدَافِعِ وَالْبَولُونِينَ —
مَوْقِفُ عَلِيمٍ لِشِيخِ الْإِسْلَامِ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ سَلَمَ — رِحْمَةُ الْحَيَاةِ —
وَفَائِعُ وَحْكَمَاتِ رِحْمَةِ الرِّحْمَةِ

الآن ننتقل إلى الدعامة الثانية للإسلام وهي الإحسان . والإحسان في
نظرى هو العمل الصالح ، وقد جاء في الآيات ردِيفُ الإِعْيَانِ . بل يكادُ يلزمهُ ردِيفُ الإِعْيَانِ
في كل آية .

والشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ كُلُّهَا مَا هِيَ إِلَّا بَيَانٌ بِالْأَمْرِ أَوِ النَّهْيِ أَوِ الْإِبَاحَةِ لِلْأَمْرِ
الَّتِي يَكُونُ الْعَمَلُ صَالِحًا . وَهِيَ فَرِيدَةٌ بَيْنَ الْأَدِيَانِ فِي وَضْعِ الْأَصْوَلِ
وَالْفَرْوَعِ لِهَذَا الْإِحْسَانِ ، فَفِي جَمِيعِ عَلَاقَاتِ الْإِنْسَانِ بِاللهِ وَمَخْلُوقَاتِ اللهِ رَسَّمَتْ
الشَّرِيعَةُ بِشُعُورٍ مِنَ التَّفَصِيلِ قَوَاعِدَ الْحَيَاةِ وَأَسَالِيهَا الْمُسْلِمِ ، وَهَذِهِ الْقَوَاعِدُ مِنْهَا
مَا يَخْتَصُّ بِالْعَلَاقَةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ مِنْ صَلَوةٍ وَصُومٍ وَحِجَّةٍ مَا يَتَّبِعُ الْإِعْيَانَ
وَمَا يَقْتَضِيهِ مِنْ عَبَادَاتِ .

وَكُلُّ مَا نَحْتَاجُ إِنْ نُشِيرَ إِلَيْهِ مِنْهَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ هُوَ أَنْ هَذِهِ
الْعِبَادَاتِ مَعَ تَرْكِيَّتِهَا لِلنَّفْسِ وَتَطْهِيرِهَا لِلْبَدْنَ ، مَمَّا يَمُودُ أَثْرَمَهُ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي
شَخْصِهِ ، هِيَ كَذَلِكَ مَجْمُوعَةٌ نُظُمُّ تَعْلِيمَهُ عَلَى حُسْنِ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ ،
وَيُبَسِّرُ عَلَيْهَا مِنْ تَدْرِيبٍ وَتَهْذِيبٍ سَبِيلَ التَّكَافُلِ الَّذِي لَا يَدْعُونَهُ لِلْجَمَاعَةِ
الصَّالِحةِ ، بل تَحْرَضُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ عَلَى التَّعَاوُنِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ الْعُمَرَانِ .

وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَثْرِ الَّذِي أَحَدَثَهُ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ فِي نُفُوسِ قَوْمٍ
مِنَ الْأَعْرَابِ وَأَضْرَابِهِمْ مِنَ الْأَمْمِ الْمُتَبَدِّيَّةِ هُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنِ الْأَنْفَافِ وَالْتَّعَاوُنِ ،
وَأَدْنَاهُمْ لِلْأَنْوَافِ وَالشَّرَّ .

فِي بَعْضِ سَنَينَ أَصْبَحَ الْجَفَاهُ النَّافِرُونَ، وَقَدْ عَبَدُوا اللَّهَ عَلَى الْكَيْفِيَّةِ
الَّتِي سَنَهَا صَاحِبُ الدِّعَوَةِ، أَهْلَ نَظَامٍ وَتَقْوَىٰ، يَرْكَعُونَ وَيَسْجُدُونَ لِلَّهِ
وَيَأْتُهُمْ بِرَجُلٍ مِّنْهُمْ، وَيَؤْذُنُ ذَلِكَ باطْرَادٍ فِي أَوْقَاتٍ مُحَدَّدةٍ، فَتَمُودُهُمُ النَّظَامُ
وَالطَّاعَةُ وَالْتَّكَافِلُ، وَأَصْبَحُوا إِخْرَاجَهُمْ بِذَمَّتِهِمْ أَدَنَاهُمْ.

وَقَدْ دَهَشَ فَعْلَامُ اُولَادِ عَمْرَوْهُمُ الَّذِينَ اسْتَمْرَرُوا عَلَى الشَّرْكِ حِينَ التَّقَوُّا
بِهِمْ فِي «بَدْرٍ» فَرَأُوهُمْ لِأَوْلَ مَرَّةٍ فِي كِتَابٍ مُرْصُوصٍ لَا يَعْدُ لِلْعَرْبِ بِهَا.
لَا يَتَنَادُونَ بِعَصْبَيَّةٍ مَعَ أَنْهُمْ مِنْ شَتَّاتِ الْعَرْبِ، بَلْ شَتَّاتِ الْأَعْرَابِ وَالْعَبِيدِ
وَالْأَحْرَارِ وَالْبَيْضِ وَالْشَّوْدِ، رَابِطُهُمْ فِي اللَّهِ وَأَخْوَهُمْ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ.

فَالْعِبَادَاتُ عَلَى الْكَيْفِيَّاتِ الْمُخْتَارَةِ فِي الْإِسْلَامِ لَهَا بِلَا شَكٍّ، غَيْرَ الرَّابِطَةِ
الَّتِي تَقْوِيهَا بَيْنَ الْمُخْلُوقِ وَالْمُخْلَقِ، آثَارٌ عِدَّةٌ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَحَيَاتِهِ وَعَلَاقَتِهِ
بِالنَّاسِ؛ وَلَذِكَّرَ كَلَّهُ كَانَ عِنْيَّةً صَاحِبِ الدِّعَوَةِ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا عَظِيمَةً.
وَفِقَهَاءِ الْمُسْلِمِينَ حِينَ عَلَمُوا أَنَّ الْإِسْلَامَ بُنِيَ عَلَى خَمْسَةِ أَرْكَانٍ، لِلْعِبَادَاتِ
ثَلَاثَةُ مِنْهَا، قَدْ أَدْرَكُوا عِظَمَ هَذِهِ الْأَرْكَانِ الْثَّلَاثَةِ: الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالْحِجَّةُ
فِي بَنَاءِ الدِّينِ. وَقَدْ أَفَاصُوا فِي فَضْلِ الْعِبَادَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، بَلْ فِي فَضْلِ كُلِّ صَلَاةٍ
وَرَكْعَةٍ، بِمَا لَا حَاجَةٌ مَعَهُ جَدِيدٌ، وَمَا يَعْرَفُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ تَفْصِيلًا
فَإِجَالًا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَعَ شَدِيدِ الْأَسْفِ، لَا يَعْرُفُونَ عَنْ
دِينِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. فَلِهَذَا أَظْلَنَّ أَنَّ الْعِنْيَةَ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ بِالنَّوَاحِي
الْأُخْرَى لِلْأَحْسَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَجْدَرُ وَأَنْفَعُ.

كان الرجل يأتي من أقصى الباردة فيجلس إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يتلقى دعوته ، فيقوم من بين يديه وهو أعلم بها من درجوا اليوم في أحضان الإسلام ، ونشأوا في يوم الدين ، وليس ذلك لميزات الرسول ، صلى الله

عليه وسلم، وبركته وتأثير شخصيته فحسب، ولا لأن هؤلاء الأعراب كانوا مختلفون عن أبناءهم عرب اليوم، وإنما كانت الدعوة بسيطة مركزة في مبادئ عامة مفهومة للكافة، سهلة، تلقي إليهم ليعملا بها وليسروا على نهجها وينسجوا على منوالها، لا يتحذّوا عنها ثم يستغلوا بالقشور إذ «نسوا الله فإنما أنفسهم»، ورضا بالظاهر فقدوا اللب والجوهر.

وعبارة القرآن في هذا المعنى تدل على سهولة تلقى الدعوة ونشرها: يقول الله تعالى «فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوْهُمْ».

فالدعوة بسيطة، أساسها الإيمان والإحسان. وهذا الإحسان هو العمل الصالح كما قلنا. وهذا العمل الصالح هو مبادئ عامة وعبادات تلقن كثييرًا منها في خطوات.

أما المبادئ فأصلها جميعاً في الرحمة والإباء. والرحمة صفة الله وقد كان أساس الإحسان المسلمين في أول عهد الدعوة يسمون الله (الرحمن) حتى قال العامة، إن محمدًا يعبد إلهًا اسمه الرحمن. والmuslimون يستفتحون كل عمل وحركة باسم الرحمن الرحيم، ويحيى بعضهم بعضاً بالسلام والرحمة فيقولون «السلام عليكم ورحمة الله».

وآيات الكتاب شاهدة على أنها أحب الصفات إلى صاحب الدعوة

«محمد رسول الله . والذين معه أشداء على الكفار ، رحمة ينتهي».

«واخْفُضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَقُلْ إِنَّا نَذِيرُ الْمُبِينَ».

«وَنَزَّلْ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ».

«فَإِنَّمَا رَحْمَةُ مِنَ اللَّهِ لِتَلْمِيزُهُمْ».

«عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَوِيفٌ رَحِيمٌ».

والأحاديث النبوية في معنى الرحمة مستفيضة.

«الراجمون يرجمهم الرحمن» «إرجموا من في الأرض يرجمكم من في السماء» .

هذه الرحمة التي هي أصل من أصول التشريع في الدعوة المحمدية «وما أرسلناك أساً العرآن إلا رحمةً للعالمين» هي أساس العرآن . وما نُزِّلت من قلب إنسان إلا صار خرباً ، ولا من قوم إلا كانوا وباء على الأرض . والتاريخ يحدّثنا عن طغيان أقوام نُزِّلت الرحمة من صدورهم ، فتركوا آثاراً فظيعة من الخراب استمرّت بعدهم قرونًا .

فضلاً موجات المغول مع (جنكيز خان) ومن بعده لا تزال رغم مرور سبعة قرون بادية آثارها للعيان في أواسط آسيا وغربها ، وقد شهدتها بنفسى في الأفغان وإيران والعراق ، وستبق أجيالاً كثيرة .

و جاء من بعدهم أقوام مثلهم من المسلمين ومن الأعراب المسلمين نُزِّلت الرحمة من صدورهم فما ثُوا في الأرض الفساد ، ولا تزال آثار الخراب الذى أحدهه بعض هؤلاء القساة من الأعراب مشهودة في شمال إفريقيا ، وقد شهدتها كذلك بنفسى بعد مرور مئات من السنين .

فالرحمة أساس العرآن ، جاء بها موسى وعيسى ومحمد . بل هي رسالة أنبياء الله والمصلحين جيماً . ولم يَغْلُظْ شأن دولة من الدول إلا والرحمة صفة من صفات القائين عليها .

* * *

. وقد يظن بعض الناس ما يتناقلون من أحاديث أو فكاهات عن بعض المهوود للدولة العثمانية أنها كانت دولة عظيمة ، ولكن لم تكن صفة الرحمة من مميزاتها . وهو خطأ شائع لا يقف أمام البحث والتدقيق . فالعثمانيون في أيام عزّهم ورثوا الرحمة التي نزعها الله من قلوب العرب المتأخررين ، فورثوا الدولة ، وسادُوهُم كأسادُوا الأوريين .

دفاع لابد منه
عن رحمة الأنبياء
الثانية

أمثال شعبية
أشهد لهم
وقد سمعت بنفسي حديث هذه الرحمة في (بَسْرَائِيَا) من رومانيا على نهر
(الدينستر)، وقيل لي إن أمّة الفلاحين في هذه الأطراف النائية للملك العثماني
لا تزال تُعْبَر عن رحمة الترك وعدله . ومنها ما يشير إلى أن العدل يُنْزَع مع
الأثراء من الأرض . وقد لفت نظرِي في بولونيا ورومانيا وفي بلاد البلقان
في رحْلَاتي المتعددة أمثلة وأساطير لا تزال تشير إلى ما استقر في نفوس هذه
الأُمَّةُ المُسِيَّحِيَّةِ من احترام الترك "المسلم كرِحيم عادل".

وفي سنة ١٩١٧ كنت في فينا فُرُوي لي أن البولنديين مستبشرون بوصول
العساكر العثمانية إلى جاليسيا مَدَداً للنساويين وقتله ، فسألت عن السبب ،
فقيل لي إن عندم ثُبُوة يعتقدونها عن بعض قدسيهم بأن علامه عزّهم وظهور
دولتهم مرة أخرى هي أن تعود العساكر الإسلامية إلى الظهور شمال الدانوب
ومن العجيب أن هذه العساكر ولو أنها جاءت مَدَداً لغاصبي بولندا
ومقتسمها فإنه لم يَمْضِ سنة على عبورها (الدانوب) حتى استقلت بولندا
حقيقةً مرة أخرى وعادت دولة مُوحَّدة .

هذه الأسطورة وغيرها من الأمثال في لُغَاتِ الأُمَّةِ الْبَلْقَانِيَّةِ جعلتني
أتوسّع في قراءة التاريخ الإسلامي في البلقان ، وقد خرجت من قراءتي
ومُشَاهَداتِي بأن العدل والرحمة الإسلامية ها اللذان مَكَّنا للعُمَّانيين في أوروبا .
وبالعدل والرحمة خرجت هذه الأُمَّة من غَيْبُوبَتها وهمجيّتها وقسّوها ،
وعرفت المساواة والإنصاف . ويُكَفَّيُ أن تعلم أن استرقاق الطوائف باشتعـ
صورة كان نظاماً دولياً متعاهداً عليه في أوروبا الوسطى والجنوبيَّة إلى أن فضَّ
عليه العُمَّانيون .

وكانت هناك عهود دولية بين المدافِع والبولنديين وال مجرم لتسليم كل
أثري في زوال
عهد الإقطاع
من أرض المدافِع
والبولنديين
فلاج يرحل من مَرْءَةِ سيدة من (البويار) إلى أحد هذه الأوطان ، وكانت
المزارع تُبَاعُ بما عليها من الحيوانات والفالحين .

جاء العُمَانِيُّونَ إِلَى أُورُبَا يَحْمِلُونَ بَيْنَ صُدُورِهِمْ عَاطِفَةَ الرَّحْمَةِ كَمَا أَرَادَهَا صاحِبُ الدُّعَوَةِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ يَكُنْ الْأَتْرَاكُ أَكْثَرَ عُدَّةً وَلَا عَدَّاً مِنْ أَيَّةِ أُمَّةٍ مِنَ الْأَمَّ الَّتِي سَادُوا هَا ، فَوَصَلُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ جَمِيعًا إِلَيْنَا ، تَهْمَدُ لَهُمُ الرَّحْمَةَ صَعَابَ الْجَبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْوَهَادِ ، كَمَا مَهَّدَتْ لِلْمَعْرُوبِ قَبْلَهُمْ إِفْرِيقِيَّةً وَآسِيَا .

وَكَانَ لِلْأَتْرَاكِ مَلِكٌ عَظِيمٌ ، هُوَ السَّاطُونَ سَلِيمٌ ، عُرِفَ بِالْقُسوَةِ وَذَبْحِ كَثِيرٍ مِنْ آلِ بَيْتِهِ ، وَيُلْقِيُّهُ الْأَتْرَاكُ أَنْفُسَهُمْ بِسَلِيمِ الْقَارِيِّ ، فَخَطَّرَ لَهُ أَنْ يَوْهَدَ دِينَ الدُّوَلَةِ وَلِغَمَّهَا فَأَبَى عَلَيْهِ شِيخُ الْإِسْلَامِ ، فَامْتَنَعَ حُرْمَةُ لَوْصَابَا الْإِسْلَامِ بِاحْتِرَامِ حُقُوقِ الْمُسِيَّحِيِّنِ وَالرَّحْمَةِ بَيْنِهِمْ . وَذَلِكَ مِنْ أَثْرِ الرَّحْمَةِ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللَّهُ قَلْبَ صاحِبِ الدُّعَوَةِ وَأَتَبَاعِهِ ، وَالَّتِي هِيَ رَكْنُ الْإِسْلَامِ الْمُتَّيَّنِ وَصَفَةُ اللَّهِ الَّتِي إِذَا نُزِعَتْ مِنَ الصُّدُورِ دَأَتِ الدُّوَلَةُ ، وَعِمَّ الْخَرَابِ حَتَّى يَسْتَخْلِفَ اللَّهُ أَهْلَ الرَّحْمَةِ .

موقف عظيم
لشيخ الإسلام
في عهد السلطان
سليم

انظروا إِلَى الْعَالَمِ الْيَوْمَ ، وَقَدْ نُزِعَتِ الرَّحْمَةُ مِنَ الصُّدُورِ ؛ أَلَمْ يَنْقُلِ الإِنْسَانُ شَرًّا مِنَ الْوَحْشِ الضَّارِّ ؟ أَلَمْ يَسْبِقِ التَّحْضُورُ فِي الْقُسوَةِ جَنْكِيزْخَانَ ؟ . أَلَيْسَتِ الْغَارَاتُ الْجَوْيَةُ عَلَى الْمَدَنَيْنِ أَسْوَأُ مَا بَلَغَهُ النَّاسُ مِنَ التَّوْحِشِ ؟ . ثُمَّ أَلَيْسَتِ هَذِهِ مَقْدِمَاتُ الْخَرَابِ الْعَامِ ؟ .

هَذِهِ الرَّحْمَةُ الَّتِي أَرْسَلَ اللَّهُ مُحَمَّداً مِنْ أَجْلِهِ ، لَيْسَتْ خَاصَّةً بِالْإِنْسَانِ ، وَلِيَعْلُمُ الْقَارِيُّ مَكَانَتِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ ، تَقْصُصُ بَعْضُ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ فِي الرُّفْقِ بِالْحَيْوَانِ ، لِيَتَبَيَّنَ مَدَى عَنَايَةِ صاحِبِ الدُّعَوَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بَيْتِ الرَّحْمَةِ فِي دُعْوَتِهِ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « يَئِنْمَا رَجُلٌ يَعْشِي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَطْشُ ، فَوُجِدَ بِهِ رَا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرَبَ ثُمَّ خَرَجَ ، وَإِذَا كَلْبٌ يَلْهُثُ ، يَا كُلُّ الْتَّرَى مِنَ الْمَطْشِ . فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْمَطْشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي . فَنَزَلَ الْبَرْ قَمَلاً خُفْفَهُ مَاهٌ ثُمَّ أَمْسَكَ بِفِيهِ حَتَّى رَقَ ، فَسَقَ الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فَغَفَرَ لَهُ » . فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ « وَإِنَّنَا فِي الْبَهَائِمِ

رَحْمَةُ الْحَيْوَانِ

لأجراً؟» فقال : «في كل كَبِيرَ طَبَيْرِ أَجْرٌ» .
وقال أيضاً «دخلت امرأة النار في هَرَة وربطتها فلم تطعمها ولم تدعها
تأكل من خشاش الأرض» .

وقد جاء الإسلام بالنهي عن كثير مما كان يأتيه العرب . وكان من عادة
العرب أن يعذب الحيوان كشق آذان الدواب ، وربط الناقة بحوار قبر صاحبها
إذا مات لتموت معه ، وغير ذلك .

وحرمت الشريعة رمي الطير للتلوي ، وعَبَتُ الأُولَادُ بِالطَّيْورِ ، والتحريش
بين الحيوانات كما يفعل الأسبانيون مع الثيران ، وبعض الأم بين الديوك
والكلاب ، ومنعت إنتقال الحمل على الدابة ، وأوجبت حُسْنَ رِعَايَتِهِ أو سِقَايَتِهِ ،
وإلا فللقارضى نزعها من صاحبها .

وقد كان لهذه التعاليم أثر بالغ في البدو والموحدين ؛ فقد رُوِيَ أن عَدِيَّاً
بنَ حَاتَمَ ، وقد مَلَكَ الْإِسْلَامَ قَلْبَهُ ، كان يَفْتُحُ الْخَبَزَ لِلنَّمَلَ ، ويقول : إنهم
جَارَاتٌ وَهُنَّ حَقٌّ .

ورُوِيَ عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازي أنه كان يُشَرِّى في طريق برافقه
بعض أصحابه ، فعَرَضَ له كتاب ، فزَجَرَهُ رفيق الأستاذ ، فنهاه وقال : أما علمت
أن الطريق مشترك يتناوَلُهُ ... !

وفي الحديث «إذا رأيتم ثلاثة على دابة فارجُوهم حتى ينزل أحدهم» .
وكتب الفقه تَفِيضُ بأحكام الرفق بالحيوان ، مما يُشير إلى مقدار ما فصَدت
إليه الشريعة من الرحمة بخلوقات الله .

فالرحمة من أحسن الدعوة الحمدية وأصولها ، بل هي المقصودة من
إقامة الدولة . وخير الناس أن يأْهُوا بغير صلاة وصوم وحج ، وخير لهم أن
يعيشوا بغير مساجد وبيع وكنايس إذا نُزِعت الرحمة من صدورهم . فالدين
والدولة بلا رحمة ينقلان إلى خداع وظلم .

فَاللَّهُمَّ أَنْزِلْ الرَّحْمَةَ فِي الصُّدُورِ حَتَّى يُصْرَفَ الْبَلَاءُ عَنِ الْعَالَمِ !

الإحسان

آية هي دستور الإخاء والمساواة — تصوير عجيب لوقع البر لدى الله —
آيات في تهديد ذوي القسوة والبغال — قدامي العرب وفهم الإخاء والمساواة
— إخاء شامل بين المسلمين وأهل الكتاب — بقابلاً للإخاء في العالم الإسلامي
ذكرى أخواتي في أبياتي — الإخاء في العالم الإسلامي

يسقط الحديث في هذا الفصل عن الأسماء الثانى للإحسان، وهو الإخاء
الذى صار دعوة عالمية محببة لدى أهل هذا العصر جيما.

كان المجتمعُ العربي قد قسمته العصبيّات القبليّة والقوسُونَ الفردية، وكان
المجتمع الإنساني قد سادته كذلك العصبية والجنسية والفاخر بالأسباب حين
جَهَرَ الرسول بالدعوة إلى الإخاء صادقاً بنداء الله :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِيلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْرَبُكُمْ ». وقد نادى بالإخاء قسماً وقرينا
للرحمة، وقرر أن بهما تقتجم العقبة ويُسعد الناس ويدخلون الجنة « فَلَا افْتَحْ
العقبة ». وما أذراث ما العقبة! فكُثُرَ رَبَّةُ ، أو إطْعَامُ في يوم ذي مَسْعَةٍ ، يَتَّبِعُها
ذَامَقْرَبَةُ ، أو مِسْكِينَاً ذَامَقْرَبَةُ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّدَرِ
وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ » .

وآيات الكتاب الكريم ، والأحاديث في الترغيب في الإخاء والرحمة
مستفيضة .

وفي حديث قدسي : إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ « يَا ابْنَ آدَمَ
مَرِضْتُ فَلَمْ تَعْدُنِي ! فَيَقُولُ ابْنُ آدَمَ : يَارَبِّ كَيْفَ أُعُودُكَ ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ !
فَيَقُولُ اللَّهُ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَمَّا مَرَضَ فَلَمْ تَعْدُهُ ؟ أَمَا إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوْ جَدَّتْنِي
عَنْهُ ! يَا ابْنَ آدَمَ . اسْتَطَعْتُكَ فَلَمْ تُطْعِنْنِي ! فَيَقُولُ : يَارَبِّ كَيْفَ أُطْعِنْكَ وَأَنْتَ
رَبُّ الْعَالَمِينَ ! فَيَقُولُ اللَّهُ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَمَّا اسْتَطَعْتُكَ فَلَمْ تُطْعِنْهُ ؟

أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوْجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي . يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقِيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي .
فَيَقُولُ كَيْفَ أَسْقِيْكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ! فَيَقُولُ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانَ فَلَمْ
تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوْجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي » .

انظُرْ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى السَّابِقِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْجَلِيلِ : فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ عِبَادِهِ فِي
كُلِّ مُخَلَّةٍ وَحَالَةٍ وَإِنَّ الْبَرَّ بِالنَّاسِ بِرٌّ بِاللَّهِ . وَمَا هُوَ فِي حَاجَةٍ لِبَرٍّ ، وَلَكِنَّهُ
لَا يَرْضَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَانُوا بِالْبَرِّ لِذَاتِهِ . وَلَذِكَّرَ لَا أَظُنُّ أَنْ مَنَازِعًا يُسْتَطِيعُ أَنْ
يَنَازِعَنَا فِي أَنَّ الْإِخْرَاءِ وَالرَّحْمَةِ هُمَا الْأَصْلُ بِالنِّسْبَةِ لِبَادِيِّ الْإِحْسَانِ فِي الدُّعَوَةِ
الْحَمْدِيَّةِ ، كَمَا أَنَّهُمَا الْفَائِتَةُ مِنْهَا ، فَهُنَّ لَمْ تَرْكُ سَبِيلًا مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ إِلَّا
سَلَكَتْهُ لَتَنْتَطُوِيَ النَّفُوسُ عَلَى الْإِخْرَاءِ وَالرَّحْمَةِ ، وَتَنْفِرُ الْقُلُوبُ مِنَ الْأَثْرَةِ وَالْأَنْاثِيَّةِ .
انظُرُوا إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ حَتَّى فِي عِبَارَتِهَا تَصْعَقُ بِهِ وَهُنَّ لَهَا غَلَاظُ الْقُلُوبِ :

« كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتَمَّ . وَلَا تَحْمَضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . وَتَأْكَلُونَ
الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمَّا . وَتَحْبَتوْنَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا . كَلَّا إِذَا دَكَّتِ الْأَرْضُ دَكَّادَكًا .
وَجَاءَ رَبُّكُمْ وَالْمَلَكُ صَفَاقًا . وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى
لَهُ الذِّكْرُ . يَقُولُ يَا لَيْكَنِي قَدْمَتُ لِحَيَاكِي . فِيهِ يَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ .
وَلَا يُؤْمِنُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ » .

كَانَتِ الدُّعَوَةُ إِلَى الْإِخْرَاءِ غَرْبِيَّةً كَالدُّعَوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالدُّعَوَةُ إِلَى الْبَعْثِ ،
فَأَنْكَرُهَا الْعَرَبُ الَّذِينَ لَا يَعْتَزُزُونَ بِغَيْرِ الْمُصْبِيَّةِ ، وَلَا يَنْزَلُونَ لِلْإِخْرَاءِ مَعَ مَنْ
هُمْ أَدْنَى ، كَالْأَرْقَاءِ وَالْفَضْعَافِ ، وَكَانَ لَا يَدَّ مِنْ حَمَلَهُمْ عَلَيْهِ لَأَنَّهُ أَسَاطِيرٌ فِي نُجَاحِ
الدُّعَوَةِ . وَلَكِنَّ كَيْفَ يَتَمُّ ذَلِكُ وَهُمُ الْمُسْتَهْزِئُونَ بِجَمِيعَةِ (مُحَمَّد) مِنَ الْمُسْتَضْمَفِينِ
وَالْعَبِيدِ وَقَدْ تَأْخُوا فِي اللَّهِ مَعَ السَّادَةِ وَالْأَشْرَافِ إِخْرَاءَ جَيْلاً ، حَتَّى حُسْكَى عَنِ
الْمُتَكَبِّرِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا مِثْلَ قَوْلِ قَوْمِ نُوحٍ « مَا نَرَاكُ أَتَبْعَكُ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوكُمْ » .
وَقَدْ أَكَدَ الْكِتَابُ هَذَا الْمَبْدَأَ السَّابِقِ وَوَسَعَهُ حَتَّى شَمِيلُ أَخْوَةِ الْبَشَرِ جَيْعاً
فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كُلُّوْمِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنَّ عَاتِقَمُونَ عَلَيْمُ » .

تمهيد شديد
لذوى الفدوة
والبغول

قدماء العرب
وفهم الإخاء
والمساواة

وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ». .

ولما تمكنت دعوة الإخاء، في النفوس من الله بها على المؤمنين كأكبر

نعمية فقال « واذكرُوا نعمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَتَ بَيْنَ قَلُوبِكُمْ فَاصْبَحُوكُمْ بَنْعَمَتِهِ إِخْوَانًا ». ولم تكن الدعوة إلى الإخاء قاصرة على المهاجرين والأنصار،

ولكنها كانت عامة. « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلَّةٍ ۖ وَإِيمَانًا وَبِينَكُمْ

إِخَاءً شَاملًا
الملائكة وأهل
الكتاب

آلا نَعْبُدُ إِلاَّ اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَعَذَّبُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ». .

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا مَوَّصَى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكُمْ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَتَيْمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ». « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَا أَنْزَلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أَوْتَيْ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أَوْتَيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ». لَا فَرْقٌ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون ». .

فالدعوة الحمدية قد قامت إذاً على رسالة للناس كافة لعبادة الله وحده

وليكون الناس أمة واحدة . والأخوة فيها هي أخوة العقيدة، لا تفرق بين

الشعوب والقبائل ، والأبيض والأسود والأصفر ، ولا الغالب والمغلوب ،

ولا الأراضي والأوطان ، بل تدعو إلى أخوة حدودها البشرية ، تحريم الاعتداء ،

وتدعى إلى سبيل الله بالحكمة والوعظة الحسنة ، حتى في حالة النزاع مع

المعتدين وردعهم عن عدوائهم بالحرب ، فإن فكرة الأخوة البشرية تُتَّخذ أيضًا

ببراسا يهتمّ به المؤمنون في ظلام الحرب ، فهم لا يحاربون للفتح ، ولا للسلب

ولا للقره وإذلال الناس ، وإنما حرية العقيدة . « لَا إِكْرَاهُ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ » « وَإِنْ جَنَحُوا إِلَى الْسُّلْطَنِ فَاجْنَحْهُمْ لَهُ وَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ ». .

حتى في حالة الحرب مع الوثنين ، يعتبر الإسلام الأخوة البشرية أصلًا

في النزاع ؛ فالمؤمن الذي يعتقد أن الوثنية هي أسوأ ما يصاب به الإنسان في

روحه وعقله ومصيره ، إنما يريد لاؤثنى أن ينجو مما هو فيه ، وما هو معرض

له من غضب الله ، فإذا قَسَا عليه لِيُرُدَّه عن كفره ، فإنما يريد بذلك رحْمته وهو معترف بأخوته كما قيل :

فَقَسَا لِيَزَدَ جَرُوا ، وَمِن يَكْ حَازَما فَلَيْقَسْ أَحْيَانًا عَلَى مَن يَرْتَمِي
وهذا الوثنى الذى يحاربه المؤمن متى كان مُعْتَدِياً ، يستحق من المؤمن جميع الحقوق بعمره تسليمه لله ، ويصبح مساويا له عام المساواة ؛ فهو إذا لا ينزعه انكران أخيته ، أو لعدم الرغبة في رحْمته ، بل تمام هذه الرحمة أو هذه الأخوة فنستطيع إذا أن نقول : إن الرحمة والإباء أصلان من أصول الدعوة الإسلامية مقصودان لذاتها ولأثرها ، حتى في أشد حالات النزاع والخلاف وال الحرب ، وإن الأخوة العامة هي مقصد أسمى للرسالة الحمدية ، لا كما يدعى بعض الأجانب ، ولا كما يظن بعض العُلمَّ من أن الإسلام دين حرب وقسوة وقهر .

وعليه فالإحسان أو العمل الصالح ، أن نسعى إلى الإباء العام وأن تكون الرحمة شعارنا وهذه ناف كل زمان ومكان .

وقد كان للدعوة الحمدية أثراً عظيماً في هذا ، بل كان أكبر معجزاتها الإباء سبعة ما أحدثته من أخوة بين طوائف من البشر كانت أشد الأقوام تَدَابُّراً وَتَنَاكُراً وشقاوة . ولو قلنا صفحات التاريخ قبل الإسلام ، ونظرنا فيها إلى حال الأمم التي دانت بالدعوة الحمدية فيما بعد ، ما بين جبال الهيملايا وجبال البرانس ، في طول الدنيا شرقاً وغرباً ، لأدركنا الآثار الهائلة الذي أحدثته الدعوة إلى الأخوة والتَّرَاحُم في نفوس مئات الملايين من البشر على مرّ هذه القرون .

ولا زالت هذه الأخوة التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم أحسن ما يُلقى بصلة الإباء في العالم الإسلامي اليوم ، رغم ما هم عليه من بُعد عن روح الإسلام ، فهي

متجلية فيهم لمن يرحلون في أطراف الأرض الإسلامية كما تجلّت لابن بطوطة
قبل سبعة قرون، ولمن قبله ومن بعده.

وقد شعرت بها لأول مرة في شبابي في جبال الأرنتوط بالأندلس؛ فقد ذكرى إخاه
دخلت تلك البلاد ولا عهد لي بها ولا معرفة بأحد من أهلها، وكان طريق إليها
من بحر الأدريانيك، فنزلت (بكارو) وذهبت إلى (ستنجه) عاصمة الجبل الأسود
وقبلي، وكان أهل الجبل في حالة حرب مع الدولة العثمانية، وكانت متسلكة بصفة
مراسل لجريدة إنجلزية، أقصد التطلع مع المدافعين عن (أشقودره) من الترك
والأندلس، فلمحت في المدينة اسم إسلاميا على دكان، فقدمت نفسي إلى صاحبه،
وكانا كثنا على موعد رغم أن حدثنا كان بالإشارة. وما لبث أن جاء لي بفقيه
يعرف قليلا من العربية، فتفاهمنا، وتولى الرجل بعد ذلك أمرى كلّه حتى
وصلت إلى أشقودره، وتنقلت في بلاد الأرنتوط من الشمال إلى الجنوب،
يوصي بعضهم بعضاً بي . ولو كنت بين أهل ما وجدت منهم جبأ أكثر مما
أوجدهم في الأخوة الإسلامية في تلك الأيام العصيبة ، أيام حرب البلقان .
بل إنّ لازال أذكر أنهم أوجدوا لي في كل بلد من يعرف العربية ومن
يلازمي لخدمتي ومعاونتي .

وهذه الروح ذاتها هي التي وجدتها في شمال إفريقيا أثناء احتراب العامة
من مصر إلى الجزائر . وهي التي لمستها في الهند حينما كان الناس يحفون في
ويستبشرون ، ولما علموا أن مصر صارت دولة مستقلة ، وأنني رسولها إلى
الأفغان فرحاً كأنما أيام عزّهم قد أقبلت !

هذه الروح التي خلقتها الدعوة المحمدية إلى الأخوة ، هي التي شهدتها
كذلك في إيران والأفغان وتركيا والعراق والشام والجهاز وغيرها ، وفي كل
جولة من جولاتي في بلد لازال للإسلام أو بقي فيها مسلمون ، وهي التي يخرج
بها مُعززاً الأفغاني من المشرق أو الفلاني من أقصى إفريقيا الغربية فيخاطبوا

آلاف الأميال سيرًا إلى مكة، متوكلاً؛ لأنَّه يُعنى من أهل إلى أهل، ومن إخوان إلى إخوان، حتى يَرِد المكان الذي جَهَرَ فيه محمد بالدعوة إلى هذه الأخوة العامة.

كنتُ مرَّة قاصداً من الرياض عاصمة نجد إلى مكة، ويبنهم سَفَرُ خمسة أيام بالسيارة، ففي اليوم الثاني لاحَ لِرَجُلَانِ يعشيان، فوجَهَت السائق ناحيَّتهما، وسألَتهما أصلَّهما وقصدُهما، فلم يفهمَا لغَّتهمَا، إذ أنَّهُما كانَا من (فندھار) بالأفغان، وكان موسم الحج مُقْبِلاً، فأدركَتُ أنَّهما يريدان الحجَّ فشقَّ علىَّ أن أُتَرَكُهُما وحَلَّتْهُما معَى إلى مكة. وفي الليلَيَّ التي قضيَناها بالطريق، رَأَيْتَ جهلَ بعضنا لغَّةً بعض، كانت رُوحُ الأخوة ناطقة بكلِّ حاسَّةٍ. ولو لا هذه الأخوة لما طَوَى هذان الرجالُ الأرضَ، لا يَمْلِكُان شيئاً من الدنيا إلا أنَّ الدعوة الحمدية قد آخذَتْ بينَهما وبين البلوش والفرس والعرب من تنقلوا في أوطانهم.

نعم إنَّ هذه الأخوة تَضَعُفُ في أقطار المسلمين بضعفِ الدينِ وقيام النُّعرَاتِ الجنسيَّةِ. وأعظمُ من ذلك يسيطرة المادَّة على النُّفوسِ، فهي تكاد تُفضِّي علىَّ الأخوة في البيت والأسرة الواحدة.

وقد كان أثر الدعوة الحمدية إلى الإباء والرحمة أَعْظَمَ ظهوراً في تاريخ إباء ليس له نظير المسلمين من أية دعوة مُماثلة في التاريخ البشري. وإذا اعترض معترض بما بين اليهود من تعاونٍ، فإنَّ هذه حالة شاذَّة سببَها دوامُ اضطهاد جاعتهم وتشتيتها وجودها في حالة أقلية، ولأنَّ ما بين اليهود هو عصبية عنصرية جنسية مبعثها اليم وليس العقيدة التي تدعو إلى الإباء الإنساني. أما الأخوة التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم وأقامها الإسلام في التفوسِ، فكانت أعزَّ أيامها أيام العزَّ السابق، وقد حلَّها العثَانيون إلى شرقِ أوروبا، كما حلَّها العرب من قبل إلى غربِ أوروبا ومجاهيل إفريقيَّة وآسيا، فكانت الناس تحت رأيَّهم سَوَاسِيَّةً كأسنانِ المُشَطِّ، لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ إلا بالتفوَّقِ والعلافَةِ، ولا سلطان لسلم على غير مسلم إلا بما تقتضيه حدود الله.

وقد كان أهل الملل الأخرى في الدول الإسلامية أهل ذمَّة، لِهُم مَا للمسلمين
وعليهم مَا عليهم، فلهم ما يقتضيه العدل والرحمة، وعليهم ما يقتضيه الإخاء.
واليآن، وهذا العالم المصطرب، يا كل قويه ضعيفه، والناس في أنكر
صور القسوة يتقادرون بالهوى ليجنوا مفانيم وأسلاباً لاشك أنهم في أشد الحاجة
إلى التذكير بدعوة الإخاء والرحمة، ولظهور هذه الدعوة قوية عزيزة، كما كانت

ولله الأمر من قبل ومن بعد

٢ في الإصلاح الاجتماعي

التطهير الحليق للفرد

نوج الإنسان الكامل — أثر القيادة العملية — أثر العيادة في توجيه
الخلق للخير العام — عبد الملك بن مروان وأبو حازم — الناجر الناصح الناجع
نظرة عمرية لحقيقة الصلاح

كانت الدعوة الإسلامية ثورة اجتماعية مهّماً قلبنا عن شبيه لها في الشرق
والغرب ، والقدم والحديث ، فلن لا نجد لها مثيلاً .

وأعظم آثار هذه الثورة هو الانقلابُ الخلقيُ والنفسيُ الذي أحدثه
محمد صلى الله عليه وسلم بعمله ومثله وشخصه ، وأحدثه عبادته ، فكان نتيجة
ملازمةً و مباشرةً لدعوته . وهو أساس مراتب الإصلاح الاجتماعي : لأن صلاح
الفرد أساس صلاح الجماعة .

. يقول تعالى في وصف محمد صلى الله عليه وسلم « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ »
ويقول محمد صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَنَّمَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ». « أَدْبَرْتُ
رَبِّي فَأَخْسَنَ تَأْدِيبِي » .

وحقاً نقلت الأخلاق الفاضلة في شخصه الكريم : فالصدق والبر ومعرفة
الواجب وأذوه والحلم والحياة والصبر والشجاعة والعزّة والتواضع والعرفة والوفاء
كل أولئك كان بعض صفاتِه البارزة التي فربَّت إلى القلوب ، فتعلقَ الناس به ،
وتركتُوا في حبه جاهيليتهم وآباءهم وأبناءهم .

وقد أدرك العلماء من غير المسلمين هذه الحقيقة في شخص محمد صلى الله
عليه وسلم ، ولكنهم لم يوقفوا للإعنان به رسولاً من الله تعالى ، ولعل ذلك أثر
من آثار البيئة فيهم .

كنت مرّة في (لسدره) أتحدث في القطار إلى السير (دنسون
روس) وكان من العلماء المستشرقين فذَكرَنا مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم . فسألته :
هل يعتقدُ أنَّ مُحَمَّداً كان يُتفاوتُ ويُكذِّبُ ؟ فقال كلاً . إنْ صِدقَه واستقامَتْه

لا شئ فيهما ، ولكنكه كان هو مخدوعا ، يعتقد أنه يُوحى إليه ولم يكن يعمل إلا بما يعتقد .

فهاهى ذى القرون تتابع ، وأخلاقُ محمد صلى الله عليه وسلم من الوصوح والقوءة بحيث لا يستطيع أن ينكرها عليه جاحد برسالته . مصداقاً لقوله تعالى : « فإنهم لا يكذبونك ولكنَّ الظالمين بآياتِ الله يَمْحُدُون » .

كان إمثيله الشخصى أكبرُ الأثر في الانقلاب الروحي والخلقى الذى ازدادت
الندة
تم في أيامه وبعد وفاته . وكذلك كان أمرُ المبادىُّ التي سنتها ، والمقيدة التي دعا
إليها . فبادئ المساواة والإخاء والمعدلة والحرمة التي جعلها أجزاءً متساوية للإيان
قد فعلت فعلها في إصلاح الأخلاق والسمو الروحي للجماعة . وكذلك فعلت
عقيدة الإيان بالله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله السلطان ، يسده النفع
والضرر والمنع والمعطاء ، تتساوى الناس في ملائكته وفي العبودية له ، فـما
بالروح البشرية وحررها ووجهها إلى الخير العام وقصد وجه الله القدير الذي
يـذهـكـلـشـىـ ، وجعل مـنـاطـ الأـعـمـالـ النـيـةـ الـتـىـ يـعـلـمـهـاـ وـيـجـبـطـ بـهـ عـلـامـ الغـيـوبـ .
فـهـيـاـ بـهـذـهـ العـقـيـدـ السـبـيلـ إـلـىـ الـأـخـلـاقـ الفـاضـلـةـ .

فالذى يـدـيـنـ بـهـاـ لـاـ يـكـذـبـ ، لأنـ الكـذـبـ لاـ يـخـفـىـ عـلـىـ اللهـ وـلـاـ يـنـفـعـ صـاحـبـهـ ،
فصار الصدق من دعامتـ الأخـلـاقـ فـيـ الدـاعـوـةـ الـحـمـدـيـةـ ، وـصـارـ الرـيـاءـ وـالتـقـافـقـ
يـبعـدـ عـنـ اللهـ ، وـلـاـ يـكـسـبـ الـأـعـمـالـ إـلـاـ بـوـارـاـ ، وـاستـحالـ بذلكـ عـلـىـ المـسـلمـ
الـمـؤـمـنـ أـنـ يـكـوـنـ كـاذـبـاـ أـوـ مـرـاثـيـاـ .

وـالـمـؤـمـنـ شـجـاعـ الرـأـيـ وـالـقـلـبـ لـاـ يـهـابـ الموـتـ ، لأنـ الذـىـ يـعـلـكـهـ هـوـ اللهـ
وـحـدـهـ ، وبـذـلـكـ تـرـفـعـ نـفـسـهـ إـلـىـ الـعـزـةـ وـالـإـباءـ وـالـاسـتـهـمـادـ فـيـ الـحـقـ ، وـتـرـفـضـ
الـظـلـمـ أـوـ التـحـقـيرـ إـنـ وـقـعـ عـلـيـهـ أـوـ عـلـىـ إـخـوـانـهـ مـنـ عـبـيدـ اللهـ .

وـالـمـؤـمـنـ بـهـذـهـ العـقـيـدـ لـاـ يـكـوـنـ جـبـانـاـ مـسـتـسـلـماـ ، بـلـ يـحـيـاـ مـنـاصـلاـ ، يـدـفـعـ
شـرـورـ الـحـيـاةـ عـنـ نـفـسـهـ وـعـنـ النـاسـ بـحـيـاتـهـ .

المؤمن يعتقد أنَّ اللهَ هو الذي يعطي ويُعْنِي ويرزق من يشاء بغير حساب ،
فلا يدخل عا في يده ، بل يبذل إرضاً لهذا الرزق وطالباً لبره وكرمه ، ويعيش
سخيناً كريماً سخحاً مع إخوانه عباد الله .

كذلك لا يكون المؤمن أناياً ، فإن عقيدته تمنعه من أن يختص نفسه
بالماتع ، وهو يعلم أن في ذلك حرماناً لبيان الله من المشاركة في فضل الله ،
 فهو إنسان يكل إنسانيته بالشمور بمحضه ، يعيش بنفسه وأهله وجيرانه وأهله
والناس جميعاً .

هو حسن المعاملة والعشرة وفي ودود ، لأن كل ذلك من ممتمات إيمانه
وممتلئات خصوصية للذات العلية التي رفعته واستخلفته في الأرض .

فالعقيدة الإسلامية التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم ، والتي مكّنها
في نفوس أصحابه وأتباعه هي بذاتها الداعمة الكبيرة للإصلاح الاجتماعي ، فقد
نشأ عنها وترتب عليها حياة روحية خلقية فاضلة ، لها المقام الأول في نفس
الMuslim ، وما بعدها من مادة إنما يكتسب قيمتها وأهميتها بقدر صلاحه لاعتراض
هذه الروح وتعكيتها .

وفي المجتمع الإسلامي الذي تسوده العقيدة الصحيحة لا يمكن أن تُسيطر
المادة على الأفكار والأعمال والأخلاق والتصرفات البشرية سيطرة تشبه في
قليل أو كثير ما يُعانيه العالم اليوم من سيطرة المادة .

سلبان بن عبد الملك وأبو حازم
روى أن سليمان بن عبد الله الخليفة الاموي قدّم المدينة لزيارة ، وبعث
إلى أبي حازم ، فلما دخل عليه قال : تكلم يا أبو حازم قال : نعم أتكلم يا أمير
المؤمنين : لا تأخذ الأشياء إلا من محلها ، ولا تضعها إلا في أهلها . قال : ومن
يقوى على ذلك ؟ قال من قلل الله من أمر الرعية ما قللك . قال : عظني يا أبو
حازم . قال : أعلم أن هذا الأمر لم يصل إليك إلا بعوت من كان قبلك ، وهو

خارج من يديك يمثل ما سار إليك . قال : مالك لا تجيء إلينا ؟ قال وما أصنع بالجيء إليك يا أمير المؤمنين ؟ إن أذنني فتنتي ، وإن أقصيتي أخزنتي ، وليس عندك ما أرجو لك ، ولا عندي ما أخافك عليه . قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قدر فتحها إلى من هو أقدر منك عليهم ، فما أعطاني منها قبلت ، وما منعني رضيت .

ذلك هو أمر الدعوة الحمدية في أخلاق الرجال ، ترجمتها وتطهيرها .
وتاريخ الصحابة والتابعين ، بل تاريخ المسلمين في جميع الأقطار يفيض بصفحاتٍ من الأمثلة العالية في الورع وحسن المعاملة والبعد عن الفحش والإخلاص في النصح لعباد الله .

يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلف الأثمان ، ضرب قيمة كل حلة منه بأيام ، وضرب كل حلة قيمتها مائتان ، فر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الذكان ، بخاء أعرابي وطلب حلة بأيام ، فمرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضي عنها وشتراها ، فقضى بها ، وهي على يديه فاستقبله يونس فعرف حلتة . فقال للأعرابي يكم اشتريت ؟ فقال : بأيام . فقال : لا تساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردها . فقال : هذه تساوى في بلدنا خمسة وأنا أرضيها . فقال له يونس : انصرف فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم ردَّه إلى الذكان ، وردَّ عليه مائتي درهم وخاصم ابن أخيه في ذلك وقال له : أما استحيت ؟ أما استحيت الله ؟ ! تاريخ مثل الشعن وترك النصح للMuslimين .
قال والله ما أخذها إلا وهو راض عنها . قال : فهل أرضيت له بما رضاه لنفسك ؟!
وروى عن محمد ابن المنكدر أن غلامه باع لأعرابي في غيته شقة من الخمسيات عشرة ، فلم يزل يطلب ذلك الأعرابي طول النهار حتى وجده .
قال له : إن الغلام قد غلط فباءك ما يساوى خمسة عشرة .
قال يا هذا قد رضيت .
قال وإن رضيت فإنما لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا ، ورد عليه خمسة .

تلك أخلاقٌ من عَكَنْتَ الدُّعَوَةُ الْمَحْمَدِيَّةُ مِنْ نَفْسِهِ ، فَعَمِلَ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

فَالْمُسْلِمُ لَا يَخْدُعُ وَلَا يَغْشُ وَلَا يَغْنِي .

قِيلَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَا سَبَبَ يَسَارِكَ ؟ قَالَ : ثَلَاثَ مَا رَدَدْتُ رِبْحًا فَطَّا ، وَلَا طَلَبَ مِنِّي حَيْوَانًا فَأَخْرَجْتُ يَمِعَهُ ، وَلَا بَعْثَتُ بَنَسِيَّةً . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « رَحْمَ اللَّهُ أَمْرًا سَهَلَ النَّيْعَ ، سَهَلَ الشَّرَاءَ ، سَهَلَ الْقَضَاءَ ، سَهَلَ الْاِقْتِضَاءَ » .

وَكَذَلِكَ كَانَ أُثْرُ الدُّعَوَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ حَاسِمًا فِيمَنْ اهْتَدَوا بِهَا ، وَكَانَ الدِّينُ الْمَعَامَلَةُ ، فَلَمْ يَكُنْ تَنَطَّعُوا وَلَا تَكَلَّفُوا وَلَا تَظَاهَرُوا ، بَلْ إِيمَانًا وَعَمَلاً ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، لِإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ يَخْشَاهُ النَّاسُ مِنْ خَشْيَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا .

شَهِيدٌ عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، شَاهِدٌ . فَقَالَ : أَنْتَ مَنْ يَعْرِفُكَ . فَأَتَاهُ بُرْجُلٌ ، فَأَتَيْتُهُ عَلَيْهِ خَيْرًا . فَقَالَ لِهِ عُمَرَ : أَنْتَ جَارُهُ الْأَذْنِي الَّذِي يَعْرِفُ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ كُنْتَ رَفِيقَهُ فِي السَّفَرِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَعَامَلَتَهُ بِالْدِينَارِ وَالدِّرْهَمِ الَّذِي يَسْتَبِينُ بِهِ وَرَعَ الرَّجُلُ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : أَظْلَنَكَ رَأْيَتَهُ قَاعًا فِي الْمَسْجِدِ يُهْمِمُ بِالْقُرْآنِ ، يَخْفِضُ رَأْسَهُ تَارَةً وَيَرْفَعُهَا أُخْرَى ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَقَالَ : اذْهَبْ فَلَاسْتَ تَعْرِفُهُ ! . وَقَالَ لِلْأَرْجُلِ اذْهَبْ فَأَتَنِي عَنْ يَعْرِفُكَ

نظرة عميقة
لحقيقة الصلاح

التكافل

أمة واحدة — جماعة المسلمين تقوم على التكافل — مستوى الفرد ومستوى الجماعة — إيقاظ ضمير الفرد وضمير الجماعة — حراسة الرأي العام — من أتم الأمور بالمردود والنهي عن التكابر — العلاج بالتشريع — صرخة الإصلاح عامة إلى الإحسان — تكافل المهاجرين والأنصار — مثل من التكافل في قبائل الطوارق

يقول تعالى «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» ويقول ، أمة واحدة صلى الله عليه وسلم «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَرَاحِمَهُمْ وَتَعَاطُفُهُمْ مُثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لِهِ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى» .

والفرقُ بين الإسلام وأكثر الملل الأخرى أنه لم يكتفِ بتنظيم العبادات وتزكية ما وراء ذلك ليقيصر أو لغيره من الناس ، بل نظم المعاملات والعلاقات والحقوق والواجبات بين أفراد الأسرة ، وأفراد الأمة ، وبين الأمم المختلفة ، وجعل هدفه الأول المجتمع وصلاحه ، حتى إن العبادات نفسها قد تكون من من وسائل هذا الإصلاح . والأمة الإسلامية في المجتمع البشري وحدة موثقة العرى ، متساندة متكافلة متعاونة تدفع ما يتطرق إليها من الفساد بوحدهاتها وجماعتها .

هذا التكافل الاجتماعي واضح في جميع فوائح الدعوة الحمدية ، وأظنتنا بول قلبنا تاريخ البشر لأنجد حالة ظهر فيها التكافل والتعاون والتراحم بين جماعة ما ظهرت في جماعة المسلمين في العصور الأولى ، بل في كل عصر من العصور قبل أن تلتئم المقول وتقسد القلوب ويفتن الناس بالحضارة الأوروبية الحديثة

إن مستوى الفرد في المجتمع الإسلامي عن الجماعة ، ومستوى الجماعة عن الفرد ، مستوى عظيم هي أمانة الحياة ومناطٌ تكليفاتها ، ولذلك كره الإسلام ذلك في العبادة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتَّيْنَ فَأُوْغَلْ»

فيه بِرْ فُقْ فَإِنَّ الْمُبْتَدَأَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهَرَ أَبْقَىٰ ۝ كَمَا كَرِهَ لِلْجَمَاعَةِ أَنْ تَهْمِلَ
الْعِنَاءَ بِالْفَرْدِ وَأَوْجَبَ عَلَيْهَا أَنْ تَصُونَ مَسَالِحَهُ ، وَتَحْتَرِمَ حَقَوقَهُ وَحَرِيصَهُ ،
وَتُوفَقَ بَيْنَ الْمَصَالِحِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَفَضْلَ الصلَةِ فِي جَمَاعَةِ عَلَى صَلَاتِهِ الْفَرْدِ وَحْدَهُ
بِـ١٣٢٠ وَعَشْرِينَ درجةً .

فَالْفَرْدُ فِي الْجَمَعَةِ إِسْلَامِيٌّ جَزِيلٌ فِي كُلِّيٍّ ، يَكْتَلِهِ وَيُكْتَمِلُ بِهِ ، وَيُعْطَيهِ
وَيَأْخُذُ مِنْهُ ، وَيَخْمِهِ وَيَخْتَمِ فِيهِ .

إِنْقَاطُ ضَمِيرِ الْفَرْدِ
وَضَمِيرِ الْجَمَاعَةِ
هَذِهِ الْمَسْؤُلِيَّةُ الْفَرْدِيَّةُ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، وَهَذِهِ الْمَسْؤُلِيَّةُ الْجَمَاعِيَّةُ عَنِ الْفَرْدِ ، هُمَا
أُولَئِي وَسَائِلِ الْإِسْلَامِ فِي الإِصْلَاحِ وَالْتَّكَافِلِ الْاجْتَمَاعِيِّ . وَقَدْ أَكَّدَ الْإِسْلَامُ
مَعْنَى هَاتَيْنِ الْمَسْؤُلِيَّتَيْنِ فِي ضَمِيرِ الْفَرْدِ وَضَمِيرِ الْجَمَاعَةِ ، لِيُضْمِنَ لِلْمُسْلِمِيْنَ حَيَاةً
الْجَسْمِ الْوَاحِدِ الصَّحِيحِ الْقَوِيِّ السَّعِيدِ الْمُفْتَجِ ، فَقَالَ لِلْفَرْدِ . « أَنْتَ عَلَى شُفَرَةِ
مِنْ شُفَرِ الْإِسْلَامِ فَلَا يُؤْتَيْنَكُمْ مِنْ قِبَلِكُمْ » الْحَدِيثُ .

« كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُلٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْأَمْرِ رَاعٍ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى
أَهْلِ يَتِيمَهُ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَّةٌ عَلَى يَتِيمَ زَوْجِهِ وَوَلَدِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُلٌ
عَنْ رَعِيَّتِهِ » الْحَدِيثُ .

« أُوحِيَ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضِعُوا حَتَّى لا يَغْنِرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » الْحَدِيثُ .
أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِيْنِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتَمَ . وَلَا يَحْكُمُ عَلَى طَعَامِ
الْمُسْكِينِ » الْآيَةُ « وَمُؤْمِنُوْنَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَاصَّةٌ » .
وَجُعِلَ فِي دُعَاءِ الْفَرْدِ قَوْلَهُ : « وَلَا تَجْعَلْ فِي قَلْوبِنَا غِلَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا »
إِلَى آخر النَّصُوصِ الَّتِي تَوَجَّهُ قَلْبُ الْفَرْدِ لِلْجَمَاعَةِ وَتَدْرِجُهُ فِيهَا إِدْمَاجًا تَامًا .

وَقَالَ لِلْجَمَاعَةِ . « إِنَّا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ » الْآيَةُ
« الْمُسْلِمُونَ تَسْكَافُ دَمَائِهِمْ ، وَيَسْعِي بِدَمَائِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَهُمْ يَدْعُونَ مَنْ سِوَاهُمْ » .
الْحَدِيثُ « انْصُرْ أَخْلَاكَ ظَالِمًا أَوْ مُظْلَمًا » فَقَالَ رَجُلٌ : « أَنْصُرْهُ إِذَا كَانَ مُظْلَمًا ،

أرأيت إنْ كان ظالماً كيْفَ أُنْصُرُهُ؟ قال : «عَنْهُمْ مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنْ ذَلِكَ نَصْرٌ»
الحديث .

وَضَرَبَ مَثَلًا رَائِعًا لِوصَايَةِ الجَمَاعَةِ عَلَى الْفَرْدِ وَمَسْؤُلِيَّتِهِ إِزَاءِ جَنَاحِيَّتِهِ ،
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ قَوْمًا رَكِبُوا سَفِينَةً فَاقْسَمُوا ، فَصَارَ
لِكُلِّ مِنْهُمْ مَوْضِعٌ ، فَنَقَرَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مَوْضِعَهُ بِفَأسٍ ، فَقَالُوا إِلَهُ: مَا تَصْنَعُ؟!
قَالَ: هُوَ مَكَانٌ أَصْنَعُ فِيهِ مَا أَشَاءَ . فَإِنْ أَخْذُوكُمْ عَلَى يَدِهِ نَجَا وَنَجَوْا ، وَإِنْ
تَرْكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا» .

هذا التَّقَابُلُ بَيْنَ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْمَسْؤُلِيَّةِ الْعَامَّةِ عَنِ الْمَصَالِحِ هُوَ أَسَاسُ
مَقاوِمَةِ الْآفَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَجَمِيعِ وَسَائِلِ الإِصْلَاحِ لَا تُنْتَجُ نَتَائِجَ تَنَاهِيَّهَا إِذَا مَا تَكَنَّ
قِبَلَهَا هَذِهِ الْوَسِيلَةِ .

وَخَلَافَةُ الْإِنْسَانِ عَنِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَوَصَايَتِهِ عَلَى مَقْدَرَاتِهِ ، لَا تَحْقِيقَانِ
إِلَّا بِهَذَا التَّكَافُلِ الاجْتِمَاعِيِّ .

فَعَلَى الَّذِينَ يَرِيدُونَ مَقاوِمَةَ الْآفَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ أَنْ يُوقِظُوا أَوْلَأَ ضَمِيرَ الْفَرْدِ
لِلْجَمَاعَةِ وَضَمِيرَ الْجَمَاعَةِ لِلْفَرْدِ ، وَأَنْ يُؤَكِّدُوا مَعَنِيَّ الْمَسْؤُلِيَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ ، حَتَّى
يُحِسَّنَ الْفَرْدُ إِحْسَانَ الْبُنْوَةِ وَالْبَرِّ بِالْجَمَاعَةِ ، وَتُتَحْسَنَ الْجَمَاعَةُ إِحْسَانَ الْأُمُومَةِ
وَالرَّعَايَاةِ لِلْفَرْدِ .

يَنْشأُ مِنْ إِدْرَاكِ الْمَسْؤُلِيَّتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ وَالاضْطَلاعِ بِهِمَا ، مَا يُسَمِّي حَدِيثَ
حَرَاسَةَ الرَّأْيِ الْعَامِ^(٦) ذَلِكَ الْحَارِسُ الْبَقِظُ لِكِيَانِ الْأُمَّةِ إِذَا كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى بَصِيرَةٍ وَوَحْدَةٍ
فِي الْقَصْدِ وَالْهَدْفِ ، وَهُوَ السُّلْطَةُ الرَّاهِيَّةُ الَّتِي تَقْوِيمُ الْحُكُمَ وَالْأَفْرَادِ ، وَبِهِ
تَهْزَأُ الْأُمَّةُ وَيَنْتَفَضُ جَسْمُهَا اِنْفَاضَةً الْفَضْبِ إِذَا أَصَابَهُ سُوءٌ أَوْ فَسَادٌ ، كَمَا يَهْزَأُ
جَسْمُ الْفَرْدِ وَيَنْتَفَضُ لِمَا يُصْبِيَهُ مِنْ مَكْرُوهٍ ، وَهُوَ أَمْضِيُّ سَلاحِ الْفَضَّاءِ عَلَى
الْآفَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ، يَفْعَلُ مَا لَا تَفْعَلُ الْقَوَانِينِ . وَهُوَ الْعَيْنُ السَّاهِرَةُ عَلَى تَنْفِيذِ

القواعد ، واحترام القواعد الأخلاقية ، والسنن الصالحة التي أقرّها المجتمع .

ولذلك غنى الإسلام بتكونيه كرقيب يهذب من شذوذ الفرد ، ويحدد
الأمر بالمعروف والنهي
من التكرا من غلوّ الجماعة ، بفعل الأمر بالمعروف والنهي عن المُشكك من أكبر عزائم
الإسلام وأعظم أنسس الحياة الاجتماعية الصالحة .

قال القرآن « والمؤمنون المؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون
بالمعروف وينهون عن المُشكك » وقال « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ،
ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المُشكك ، وأولئك هم المفلحون » وفي الحديث
النبوي الشريف « لما وقعت بنو إسرائيل في العاصي نهضوا عليهم فلم ينتصروا ،
غالسون في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرر الله قلوب بعضهم ببعض ،
ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ؛ ذلك عاصوا وكانوا يعتدون » . ثم
جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مُشككاً ، وقال « لا ولدى نفسى
يده حتى تأطِرُوه على الحق أطراً » أى تعظفُوه وتميلُوه .
فكل ما هو من حق الله أو حق الجماعة ينبغي لا يحتمل فيه إذا اعتقدى
عليه مُعتقدٍ كائناً من كان .

وأكبر آفاتنا الاجتماعية ناشئ من أن الرأي العام الصالح لم يتَّسَّعْ .
فكثيراً ما نرى أفراداً يجاهرون بالاعتداء على حرمات الدين والدولة والحقوق
العامة ، ومع ذلك لا يحركُهم ساركاً للإنكار أو الاعتراض ، ذلك لأن
المجاعة هنا تعيش في ذُهول عن نفسها وحقوقها وواجباتها ؛ إذ هي جماعة موزعة
مشتتة الأهواء غير متجانسة التربة والتعليم ، التربية والثقافة فيها غير
مطبوعتين بطابع واحد ، قد صبَّتْ فيما جداول مختلفة بل بلَّلتْ أخلاق الأمة
وتفكيرها وإيمانها ، وجعلت الشيء الواحد حسناً وقبيحاً لديها في آن واحد :
حسناً لدى جماعة وقبيحاً لدى أخرى .
فتقدِّر المسؤولية الفردية ومسؤولية الجماعة ، وإنجاد الرأي العام الصالح

لَا يَكُونُ إِلَّا بِالدُّعْوَةِ وَالْإِقْنَاعِ ، وَمَنْ أَدْرَكَ الْكُلَّ الْحُقُوقَ وَالْوَاجِبَاتِ إِدْرَاكًا صَحِيحاً ظَهَرَ الرأْيُ الْعَامُ مُوَحَّدًا قَوِيًّا ، فَيَقُولُ الْمَعْوِجُ وَيُصْلِحُ الْفَاسِدَ .
فَالدُّعْوَةُ بِالْحَكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي تَصِلُ إِلَى أَعْمَاقِ النُّفُوسِ فَتَبَدُّرُ
بُدُورِ الْخَيْرِ وَحُبُّ الْحَقِّ وَتَجْثِيْثُ أَصْوَلِ الشَّرِّ وَأَسْبَابِ الْآفَاتِ ، هِيَ الْفَاتِحَةُ
الَّتِي لَا يَبْدُو مِنْهَا .

وَمَفْتَاحُ كُلِّ أَمْرٍ مِّنْ أَمْرَيِ الإِصْلَاحِ هُوَ الْوُصُولُ إِلَى النُّفُوسِ أَوْلًا . وَقَدْ أَشَارَ
الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى ذَلِكَ فَقَالَ « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنفُسِهِمْ » .

وَقَدْ كَانَ الْإِرْشَادُ الْاجْتِمَاعِيُّ الْمُبْنَىُّ عَلَى الْإِقْنَاعِ أَحَدَ الْأَسْلَحةِ الْقُوَّيَّةِ الَّتِي
جَاءَ إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ لِلْإِصْلَاحِ الْاجْتِمَاعِيِّ : فَكَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَئُ
الْآذَانَ بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ لِيَصُلُّ إِلَى الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ ، حَتَّى تَعْرِفَ الْحَقَّ وَتَدْرِكَ
الرُّشْدَ ، وَتَقُومَ عَلَيْهَا الْحِجَةُ وَيَسْقُطُ عُذْرُهَا أَمَامَ نُفُوسِهِمْ وَأَمَامَ اللَّهِ؛ وَلَذِكْرِ سُبُّ
عَهْدِ الدُّعْوَةِ عَهْدَ التَّشْرِيفِ وَالْإِلْزَامِ ، وَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو
النَّاسَ ثَلَاثَ عَشَرَةَ سَنَةً ، حَتَّى تَسْرِيْتَ دُعَوَتِهِ إِلَى قُلُوبِ الْقَوْمِ وَاشْتَفَلَتْ بِهَا
أَنْدِيَتِهِمْ فَقَسَّامُوا عَنْ نَبَيِّنَاهُ الْعَظِيمِ .

فَلَمَّا انتَشَرَتِ الدُّعْوَةُ ، وَوُجِدَ الرأْيُ الْعَامُ لَهَا فِي الْمَدِينَةِ ، ابْتَدَأَتِ مَرْجَلَةُ الْمَلَاجِئِ
التَّشْرِيفِ وَالْإِلْزَامِ .

كَذَلِكَ حَالَ الْإِسْلَامُ آفَاتِ الْجَمَعَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَقَتَّلَهَا الدُّعْوَةُ ثُمَّ التَّشْرِيفُ .
وَالْيَوْمَ ، عَلَى الَّذِينَ يَرِيدُونَ عَلاجَهَا أَنْ يَسْتَلِكُوا بِهَذِهِ السَّبِيلِ ، فَيَجِبُ أَنْ تُتَخَذِّ
الدُّعْوَةُ أَسَاسًا لِلْإِصْلَاحِ قَبْلَ التَّشْرِيفِ ، وَيَجِبُ أَنْ يُلْحَظَ التَّدْرِجُ فِي التَّشْرِيفِ
وَتَرْكُ الطَّفْرَةِ ، حَتَّى يَتَهَيَّأَ الْجَوَّ الْصَّالِحُ وَتَسْتَمدُ أَعْصَابُ اجْتِمَاعَةِ لِقَبْوَلِ مَا يَلْقَى
عَلَيْهَا مِنَ الْأُوْامِرِ وَالْإِلْزَامَاتِ .

وَقَصَّةُ تَحْرِيمِ الْحَلْمِ فِي الْإِسْلَامِ بِالدُّعْوَةِ أَوْلًا ، وَبِالتَّدْرِجِ فِي التَّشْرِيفِ

ثانياً ، تبيّن لنا أسلوب الإسلام في التوصل إلى أغراضه خطوة خطوة .

قلنا إن الإسلام اتّخذ الدعوة وسيلة للإصلاح الاجتماعي ، ثم لجأ إلى التشريع لغاية مقاصد هذه الدعوة ، وقد جعل الحياة كلها ترجى إلى الإيمان والإحسان في العمل فهو يحدُّ لفرد وجماعة الحقوق والواجبات على أساس هذا الإحسان . فكل تكاليف وكل حق ينشأ في المجتمع الإسلامي إنما ينشأ بسبب واحد هو الإحسان لفرد أو لجماعة . وأي عمل من شأنه أن يبعده من الخير أو يقرب من الشر ، سواء أعاد هذا العمل على صاحبه أم على غيره ، فهو محظوظ .

مراد الإسلام
غاية للإحسان

لذلك نجد الإسلام قد تناول جميع نواحي الحياة ، وحدد فيها المسئولية لتحقيق قصده ، وهو الحياة السعيدة التي يريد لها الناس في هذه الدنيا ، والتي جعلها وسائلهم حياة أرق وأسعد في الآخرة .

فثلا يقول النبي الإسلام « كلام راع و كلكم مسئول عن رعيته » إلى آخر الحديث السابق . فلم يخل أحداً من مسئوليته عن الآخر ، فأمير المؤمنين مسئول عن المؤمنين ، ووكلاوه وأمناؤه مسئولون عما بين أيديهم من سلطته ، ورب الأسرة مسئول عن أسرته ، والمرأة مسئولة عن بيتها ، والفرد مسئول عن نفسه وجاره ، وكل فرد في المجتمع الإسلامي مسئول عن حسن قيام المجتمع كلّه ؛ لأنّه مكافٍ كما قلنا بالعمل والدعوة لصلاح هذا المجتمع ، وبالتوصي بالحق والتعاون على البر والتقوى .

وهو مكافٍ بكل أوائل لغرض واحد ، هو الإحسان قاعدة الإسلام الثانية بعد الإيمان وليس أجمع لمقاومة الشر وآفات المجتمع من التربية الإسلامية التي جعلت هذه المسئولية تميّز من الأسمى إلى الأدنى ، وتصعد من الأدنى إلى الأعلى ، فهي التي تشدّ البناء الإسلامي وتُمسِّكه من الخلل .

أخذت الدعوة الإسلامية لدعم التضامن والتكافل بين المسلمين وسائل تكافل المهاجرين
شئي ، حتى آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار في المدينة ذلك الإخاء الذي
حل محل النسب والقربي .

ونشأت بالدعوة الحمدية جماعة متضامنة موحدة هي مصدر السلطات
جيعا ، رأيها شرع ، وقولها فضل ، وأصبحت هذه الجماعة تكفل أفرادها كما
أصبح أفرادها قوى حية مسؤولة لا يتم إعانتها ، ولا يكمل دينها إلا بالإخلاص
للجماعة والتضامن فيها ، والفتنه في سبيلها . « ولا تحسَّنَ الْذِينَ قُتُلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَالَنَا بِأَحْيَاهُمْ عَنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » .

وقد شهدت في بعض الجماعات الإسلامية التي احتفظت بتقاليد المسلمين
تضامناً وتكافلاً لا نظير له ، لا يتنى المصلح الاجتماعي أحسن منه لأية
جماعة بشرية .

رأيت بعض قبائل (الطوارق) في شمال إفريقيا يحيون حياة هذا التكافل
مثل من التكافل في قبائل الطوارق
السعيد ، فليس منهم من يعيش لنفسه ، وإنما جماعته . وأعظم ما يفخر به ويتعزز ، هو
ما يصنع لهذه الجماعة . وأول ما لفت نظرى خالتهم هذه أن رجال من أهل الخضر
هاجر من الفرنسيين ونزل بينهم في فزان ، خاورهم وعاش بفضلهم ، ثم خرج
يطلب الرزق ويريد أن يردد الجبل ، وترك أسرته في جوار هذه الجماعة الإسلامية .
غير أن النّسخ لازمه ولم يستطع كسبا ، خاءنا في (مصراته) يستمدنا فأعنه
ليعود إلى أهله ، ولكنه عاد إلى بعد نحو سنة مرة أخرى فظننت أنه رجع من
أهله ، فقال لا ، وإنما الآن أستطيع الرجوع إلى أهلي ، فقلت وكيف ذلك ؟
قال : بعد لقائنا الأخير اتّجررت عاصيَّات عليه وأصبح الآن في يدي ما أعود
به إلى جماعة الطوارق . فقلت : إلى أولادك أم إلى جماعة الطوارق ؟ قال : إلى
الطوارق أولا ، فهم آتوا أولادي في غيابي ، وأناساً كفل أولاد من أجده
غائباً منهم ، وأقسم ما أعطي الله بين أولادي وأولاد جيراني .

فقلت : هل تعيش جاعتكم كلها كما تعيش أنت مع جيرانك ؟

قال : كننا في الخير والشر سواه ، والفضل اصحاب الفضل ، والواحد من جاعتنا يستحق أن يعود إلى النجع حالياً ، لا حياة من أهل بيته ، بل حياة من جيرانه الذين ينتظرون عودته كأهل بيته سواه بسواء .

ليست جماعة الطوارق هذه أو أقرباً لها من أهل البايدية وسكان القفر مختصة بهذه الروح الجماعية ولا هي من مستلزمات عصبيتها ، وإنما هي الروح الإسلامية أكثر ظهوراً في هؤلاء الذين لا يزالون يغزلون من الحياة الحديثة المادية وقد وجدت هذه الروح في الدساكير والقرى الإسلامية التي لا تزال مطبوعة بالطابع الإسلامي ، سواء كان أهلها عرباً أم عجماء ، يضاف أم شوداً ، في المشرق أم في المغرب . فقد رأيت جماعة المسلمين في كثير منها لا يزالون يحيطون حياة الخير والتضامن والتكافل والتعاون على البر .

لا يزالون أقرب إلى المجتمع الصالح كآرادة صاحب الدعوة من عشرات الملايين الذين فتنوا بالحضارة الغربية المادية ، فهم يعيشون لأنفسهم ولو انقرضت جماعتهم ، وبُوئرُون شهواً لهم على البر بأهلهم ، فضلاً عن جيرانهم .

المقدمة

ثيم

كلة جامدة — نظرية الإسلام إلى مشكلة الفقر — الفقر لعنة والفقير لعنة
الوسيلة — العمل هو الأصل — مطاردة الترف والرؤس — الفاقرون
والضياع — اشتراكية أبي ذر — محاربة الترف والأكتناف والزها —
سلطة واسعة لولي الأمر — الواسطة بشمور المساواة — المساواة عبادة
вшمور ونظم — الأشكال والظواهر ليست غاية في الحسكم — حق القتيل
حق ابنه — البر ينير المسلمين — فلتنتظم البر على طريقة الإسلام

البرُّ كُلُّ عظيم من أركان الدعوة ، وسبيل واضح للإصلاح الاجتماعي .
كلة جامدة
وقد وردت كلة البر في القرآن على معانٍ شتى تحدّدها القراءة ، فهو الصدق
والخير والإحسان على أوسع معانٍه ، وطاعة الله .

ونقصد بالبر في هذا الحديث معنى الإحسان والمساعدة للفقراء والمساكين
ومن تخلّف عن إخواننا في المجتمع عن السير معنا إلى حياة مرضية مستفندية ،
لعجز به أو عدمه أو مرض أو مصاب أو جهل ، أو غير ذلك مما يتعرض من
أسباب الضعف والفقير .

وقد سبقت الدعوة الحمدية جميع الدعوات الصالحة في تحديد البر وتنظيمه ،
وفي تعين واجبات الأفراد والأمة والدولة في هذا الشأن . وهي من هذه الناحية
ذات نظام اجتماعي شامل يستحق من أهل الرأي والنظر في جميع الملل
عنياته ودرستها .

وهذه الحرب التي قامت بين النظم الفاشية والشيوعية والديمقراطية ،
داعية إلى المسارعة في بيان القواعد الإسلامية ، والسنن الحمدية ، لعل في ذلك
هدى ونوراً بما اختلف الناس فيه .

وقد يدّينا كيف حارب الإسلام الفساد الاجتماعي بالدعوة والرأي العام ،
وكيف يحمل من التكافل والروح الجماعية أساساً دينياً لا تستقيم السبيل إلى

الله إلا به ، ولا يَتَمَّ إِعْانَ الفرد ، وَلَا تُؤْدِي الْأُمَّةُ واجبها ، والدولة أُمّاتها
إلا بالعمل المتواصل على تَسْكينه في النفوس ، وجعله نظاماً من نُظم الحياة .

ولننظر الآت كيف هالج الإسلام مشكلة الفقر وهي أعظم آفات
المجتمع البشري .

لم يجعل الإسلام الفقر سبباً لازدراه صاحبه ، بل جعل أقرب الناس إلى
الله أتقاه ؛ فالفقير على حاجته قد يكون في نظر الإسلام أعلى من أي رجل
آخر مهما كان ماله وجاهه ، وبهذا ابتدأ الموساة الأولى للفقير .

ثم نظر في حال الفقير ؛ فإذا أن يكون هذا الفقير عاجزاً عن الكسب
لعلة به ، وإنما أن يكون عاجزاً عن الكسب لفقد الوسيلة إلى العمل .

فأما الذي يعجز لعلة لا علاج لها فقد جعل موساته حقاً على المجتمع
لاتبرعاً وتطوعاً . قال الله تعالى « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم »
فكان بذلك كرامته الإنسانية .

وأما الذي يعجز لفقد الوسيلة إلى العمل فقد أوجب على الدولة إيجاد
الوسيلة لتسكينه . وقد قرئ الإسلام السؤال ودعا المسلم للترفع عنه ؛ فاليد
العلية خير من اليد الشفلى . وقد أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم سائلة
درهماً وأمره أن يشتري به فأساً وحبلاً ويختطب ، ولا يتعرض لذل السؤال .

والأصل في الإسلام هو العمل والتكتسب ، وقد حض عليه مجتمع
الوسائل ، حتى لقد فضلَه على الانقطاع لعبادة الله ، ولكن كذلك أنصف
المجتمع بإلزام الدولة أن تعين على إيجاد العمل لمن لا يجدُه ، وأن تخْمِنَ من
يعجز عنه .

وقد أراد الإسلام أن يجعل مستوى المعيشة متناسقاً ومتقارباً بين أتباعه ،
خارب الترف في أعلى المجتمع ، وطارد البوس في أسفله ، وأخذ لذلك وسائلين :

نظرة الإسلام
مال مشكلة الفقر

الفقر أمة والنفر
لفقد الوسيلة

طاردة الترف
والبوس

وسيلة الضمير وهي أقوالها، ووسيلة القانون؛ بجعل الحياة السعيدة الخالدة لاتُنال إلا بالإنفاق على المستحقين من الأهل والأقربين والمساكين، ولا ينال متعتها المسرفون الذين جعلوا شهواتهم في هذه الحياة أهدافهم.

جمل ضمير المسلم لا يستريح إذا طمِّنَ ولبسَ وغَطَّى، وجاره ومن حواله قد انفأوه الضمير عجزوا عن القوَّةِ، وحضنه حضاً قويًا على البذل والقناعة والحدُّ من شهواته في سبيل إغاثة الملهوفين والحتاجين، حتى لقد أمر أن يطعم السيدُ الخادمَ مما يطعم، ويسْكُسُه مما يَسْكُنُه.

قال المعرور بن سُوَيْدٍ : «رأيت أبا ذرَ رضي الله عنه عليه حلةً وعلى غلامه اشتراكية أفراد مثلها، فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله عليه وسلم يقول : «مَا أخوانكم وخلوكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكفوهم من العمل ما يغذِّيُهم فإن كفتوهم فأعينوهم عليه» .

ولم يكتف الإسلام بإيقاظ الضمير لهذا ، بل جعل للدولة أن تقتضي من فضله مال الفرد مقدار لا يستهان بها لتكلف بوسائلها هي أيضا حاجات الفقراء والمساكين .

وفي الحقيقة حين يحارب الإسلام الترف والاكتتاز والربا ، ويقول : عمارية الترف «والذين يَكْنِزُونَ الذهب والفضة ولا يُنفِقُونَها في سبيل الله فبئسُهم بعذاب أليم . يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم فشُكُرُوا بها جباهُمْ وجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ . هذا ما كنَزْتُمْ لأفسركم فذُوقُوا ما كنْتُمْ تَكْنِزُونَ» وحين يقول : «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كَمَا يَقُومُ الذِّي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ» وحين يقول : «يَمْحَقُ اللَّهُ الرُّبَا وَرُبِّي الصَّدَقَاتِ» . وحين يقتضي الزكاة على الأموال المكنوزة ويحرِّم الربا ، إنما يريد بذلك كلَّه أن يرفع مستوى الطبقات الفقيرة ، ويَخْفِضَ من مستوى المُترَفِّين ؛ ليجعل حياة الجميع سعيدةً متناسقة .

فُخِرِيم التُّرْفِ يوجِهُ الأَمْوَالَ إِلَى إِنْتَاجِ أَكْثَرَ فَائِدَةً لِلْجَمِيعِ ، وَتُحْرِمُ
كُنْزِهَا يُوجِبُ تَدَاوِلَهَا ، وَتَدَاوِلُهَا مِنْ غَيْرِ رِبَآ يُؤْدِي إِلَى الْمَشَارِكَةِ فِيهَا . وَإِذَا مِنْ
يَجِدُ النَّاسُ فِي التُّرْفِ لَذَّتِهِمْ وَجَاهَهُمْ ، وَجَدُوهَا فِي الإِحْسَانِ وَالْبَرِّ . وَإِذَا مِنْ يَجِدُوا
فِي السَّكَنِ ضَمَانًا لَّهُمْ ، وَجَدُوهُ فِي ضَمَانِهِ الْمُجَتَمِعِ الْإِسْلَامِيِّ التَّكَافِلُ الَّذِي لَمْ يَهْمِلْ
أَحَدًا وَلَمْ يَخْتَرِقْ أَحَدًا ، وَإِذَا مِنْ يَجِدُوهُ فِي الرِّبَآ وَجَدُوهُ فِي لَذَّةِ السَّكَنِ
وَالْمَشَارِكَةِ مَعَ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ .

هَذَا الْإِسْلَامُ الَّذِي حَارَبَ آفَةَ الْفَقْرِ بِإِيقَاظِ الضَّمِيرِ وَبِالنَّتَرْيِعِ ، جَعَلَ الْعَمَلَ
أُسُّ الْمَقَاصِدِ ، فَأَمَرَ بِالسَّمْعِ وَفَضَّلَهُ عَلَى الْاِنْقِطَاعِ لِلْعِبَادَةِ ، وَأَمَرَ بِالْجِدْ وَالْإِتْقَانِ .
وَذَلِكَ لَا شَكَ أَفْنَى الْوَسَائِلُ لِحَارِبِ الْفَقْرِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ جَزَاءَ الْعَمَلِ مَقْصُورًا
عَلَى هَذِهِ الْحَيَاةِ ، بَلْ وَعْدَ بِهِ فِي الْآخِرَةِ .

وَالْإِسْلَامُ يَدْفَعُ الْفَقْرَ بِالدُّعَوَةِ إِلَى الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ ، وَيَقاومُ بِالْحِجَّةِ وَالْحَدُودِ
الشَّرُورَ وَالرَّذَائِلِ . فَلَوْ أَنْ وَسَائِلَهُ اسْتُخْدِمَتْ فِي رَدْعَ أَرْبَابِ الشَّرُورِ وَالْأَثَامِ ،
وَفِي الدُّعَوَةِ لِلْفَضْيَلَةِ وَالْخَيْرِ ، لَتَمَسَّكَتِ الْأُسْرَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَأَدْرَكَ كُلُّ عَضُوٍّ
فِيهَا وَاجِبَهُ ، وَكَبَحَ مِنْ نَزَعَاتِهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَمْضَى الْأَسْلَاحِ فِي مَقَاوِمةِ
الْفَقْرِ ؛ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْفَقْرِ هُوَ الْإِسْرَافُ فِي الشَّهْوَاتِ ، وَارْتِكَابُ الْأَثَامِ
كَتْعَاطِي الْمَخْوَرِ وَالْمَخْدَرَاتِ ، وَإِهَالِ صَحَّةِ الْبَدْنِ وَالْأَوْامِرِ الْدِينِيَّةِ الَّتِي مِنْ شَأنِهَا
تَقْوِيمُ الْأَرْوَاحِ وَالْأَبْدَانِ . وَلَوْ أَتَخَذَنَا وَسَائِلُ الْإِسْلَامِ فِي التَّرَاحمِ وَالتَّعَاطُفِ ،
وَمِبَادِئِهِ فِي الْأُخْوَةِ وَالْتَّعَوْنَ ، وَأَيْقَظَنَا ضَمِيرَ الْأُمَّةِ الْدِينِيِّ فِي هَذِهِ النَّاحِيَّةِ ،
لَطَعَنَّا الْفَقْرَ طَعْنَةً تُعْجِزُهُ عَنْ أَنْ يَدْخُلَ أَكْثَرَ الْبَيْوْتِ .

وَلَوْ قَامَتِ الدُّولَةُ بِوَاجِبِهَا فِي كَفَالَةِ الْمُتَخَلِّفِينَ مِنْ إِخْوَانِنَا لِمَا يُصِيبُهُمْ فِي
أَنفُسِهِمْ أَوْ أَبْدَانِهِمْ ، أَوْ لِمَا يُصِيبُهُمْ مِنْ انْقِطَاعِ السَّبِيلِ مَعَ رَغْبَتِهِمْ فِي الْعَمَلِ ،
وَذَلِكَ بِأَنْ تَكُونَ سِيَاسَتُهَا قَائِمَةً عَلَى أَسَاسِ التَّكَافِلِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ فِي

قوله : « المؤمن لله من كالبُنيان يشد بعضه ببعض » فوزعَت الصدقة على من لا سبيل له غير الصدقة ، ووزعَت العمل على الناس بقصد الخير العام ، ولو على سبيل الإجبار على عمل معين لقادره عليه ، لقاتلته هي أيضا الفقر بوسائلها الفعالة .

وقد جعل الإسلام في هذا سلطات واسعة لولي الأمر ، فله في سبيل الإصلاح العام أن يحدث أقضية بقدر ما يحدث من المشكلات ، وله أن يكثف الأحوال لتسير وفق الفرض الأساسي للإسلام ، وهو الإحسان .

وقد قرر الإسلام في وضوح وعزم مبدأ المساواة ، وهو أعظم المبادئ في مقاومة الشرور الاجتماعية وأخذها الفقر ، وجعل هذه المساواة مستقرة في ضمير المسلم ، وما زال تصرّفاته في العبادة والمعاملة والأدب .

ومن فضل الدعوة الحمدية على البشر أنها تُغضّن في الاستعلاء والترفع على الناس ، حتى ليكاد المسلم أن يُفرِّ من مجرد انخاطر الذي يخطُر بذهنه بأنه أفضَّل من غيره ، والمسلم الصادق لا يضمِّر في نفسه أنه خير من خادمه مع سيطرته عليه .

والله تعالى يشتد على الرسول نفسه وبماته بالقرآن ، لأنَّه تصدَّى لقوم من رؤوس العرب يرجو من وراء إعانتهم إعان أقوام يتبعونهم ، وتلقى بهم عن

رجل فقير ضعيف جاء راغباً في الإعان فقال :

« عَيْسَ وَتَوَلَّ أَنْ جَاءَهُ الْأَغْمَى ، وَمَا يُذْرِيكَ لِمَلَكُ يَرْكَى ، أَوْ يَدْكُرُ فَتَنْعَهُ الذَّكْرِى . أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدِّى . وَمَا عَلَيْكَ الْأَيْرَكَى ، وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلْهَى » .

ولست تجد في أي تشريع احتفالاً بالقراء واعتباً بشأنهم مثل ما جاءت به الدعوة الحمدية إذ تحضُّ المسلمين على رياضة أنفسهم على احترام الغير وتقديره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا أَخْيَرًا

منهم ، ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيراً منهم ، ولا تلمزوا أنفسكم ،
ولا تنأوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيغان » .

ومعنى رسمخ هذا المعنى في أذهان الملوك والأمراء والحكام والعامرة والفقراة
والأغنياء والملائكة والعمال كما أرادته الدعوة الحمديّة ، استحالات الفرقه الاجتماعية
وما يشيرها من حسد وبغض ، وما يتربّط عليها من خلاف وشّر ثم قتال
وحرب ، وما يكون من تسلط الأقوياء على المستضعفين ، أو ما يكون من
ظهور المستضعفين واستذلالهم لمن كانوا أقوىاء .

نعم قد يقال : إن مبدأ المساواة شائع الآن في أوروبا وأمريكا ، ومؤيد
بشرائع وقوانين ، ولكنه لم ينبع من القتال وال الحرب والفساد . وهو قول
ظاهر في الحق ، وباطل من قبله الباطل ؛ فإن الأنانية والمادية لم تبلغا في
عهد من المهد ما بلغته في عهد المساواة القاعدة على القوانين الحديثة في الغرب ،
ولم تصل القطيعة والأثرة حتى في العهد الاقطاعي إلى ما وصلت إليه اليوم ، ولم
تسقط روح الشرّ عافيه من غل وحسد سيطرتها في السنوات المائة الأخيرة ،
مع شيوع حق المساواة في التصويت لانتخاب الهيئات البلدية والعامرة ، ولم
ينتظم الناس في مجموعات الطوائف والحرف ليتزعموا غيرهم من الطوائف
كما انتظموا في القرن الحالي ، والكل يتحدث بحق المساواة .

والسبب في ذلك ، أن التسلیم بحق المساواة في الدعوة الحمديّة مقررون
بالعقيدة والإيغان ، فهو في صميم قلب المؤمن ، وهو المسيطر على ضميره ، فلا
خداع فيه ولا نفاق .

« إن المنافقين في الذرك الأسفلي من النار » .

هذا فضلا عن أن النظام الاجتماعي والإسلامي ليس قائمًا على تنازع
السلطات ، ولا على استقرار الأمر كنتيجة لهذا النزاع ، ولا على توازن القوى
حتى يفُسَد باختلال هذا التوازن ، وإنما يقوم على التكافل بين أهل الملة ، وعلى

الروح الجماعية وعلى المقصود الأسمى للوجود ، وهو السكال الروحي للفرد والأمة ، وعلى أن جميع الأفعال عمادها النية وقصدُها رضاه الله .

فالنظام الاجتماعي في الدعوة المحمدية يحمل كفالة الحق في ضمير الفرد وضمير الجماعة وسلطنة الدولة ، ويعلن الجماعة كلما إذا صناع الحق بينها .

ولا يخلُ أحداً فيها من مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر .

الأشكال والظاهر ابتدأ بـ
والأشكال والمظاهر في النظام الحمدي لا قيمة لها إلا بقدر ما تصلح
غاية في الحكم من العمل وتوّكّد من حسن النية في ذلك العمل .

فلم يعن المسلمين بطرائق الحكم ولا يكتونه ملوكاً أو جهورياً أو
أو توفراتياً أو دينقراطياً ، وإنما عنوان كل العناية بتحقيق الغاية من الحكم ،
وهي التكافل الاجتماعي ، وأن يكون الناس سواسية ، لا فضل لأحدهم
ولا لأخيه لهم إلا بالثني والعافية ، ولا خير في أحدهم ولا خير فيهم جميعاً إن
لم تكن الغاية من حياتهم هي الخير العام .

وكل نظام يحقق الغاية من الدعوة الحمديّة ، وهي مصلحة الكافة وضمان
حقوق الأفراد ، فهو نظام إسلامي .

إذا كانت المساواة على النظام الغربي لا تجده من الآثار والمآدبة والشموات
والطوى ، ولا تمنع زراعة الطبقات ، ولا حرب الأجناس ، فإنها صورة لاحقيقة؛
والإسلام يريد الحقائق لا الصور «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر
إلى قلوبكم » .

ظاهر إذاً أن مبدأ المساواة بالمعنى الإسلامي هو من أكبر دعams البر
وأفتاث الأسلحة بآفة الفقر .

وقد دعا الإسلام إلى البر بكل وسيلة ، ودعا إليه بالترغيب والترهيب ،
ودعا إليه بقوة القانون والدولة ، فقال تعالى : « يتحقق الله الرّبّا ويرثي المصدقات »

وقال : «لَن تَنَالُوا الْبَرَّ حَتَّى تُفْعِلُوا مَا تُحِبُّونَ» وقال : «أَرَأَيْتَ النَّذِي يُكَذِّبُ
بِالدِّينِ . فَذَلِكَ النَّذِي يَدْعُ الْيَتَمَ ، وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ» وقال : «كُلَا
بَل لَا تُكْرِمُوْنَ الْيَتَمَ وَلَا تَحَاضُرُوْنَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ» .

وكتاب الله وحياة رسوله يفيضان بفضل الإنفاق في سبيل الله ، واتخاذ
الدنيا مطيةً للآخرة . ولم يكتف صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بأن تكون
دعوته موجهة بكل قوتها للبر بالفقراء والمساكين والضعفاء والمصابين
والمحوزين ، بل جعل البر بهم حقاً مفروضاً لا سبيلاً إلى المماطلة فيه : حتى إن
العرب لما ارتدت عن دفع الزكاة عَقِبَ وفاة الرسول ، وَنَصَحَ الخليفةُ الأوَّلُ
بأن يداريهم ، وقد تفاقم الشر ، قال رضي الله عنه : «وَالله لو مَنَعْنَاهُ عِقَالَ بَعِيرٍ
كَانُوا يَؤْذُونَهُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَاتَلُهُمْ عَلَيْهِ» . أى أنه يوجه كل
قوى الدولة لقتال قوم يَمْنَعُونَ حقَّ الفقير فيما قيمته قيمة جبل يُعْقَلُ به بعير ا
حقوق الفقراء في الدولة الإسلامية مصونة ، وليس لأحد أن يَمْنَأُ بها ،
 فهي حق الله في ماله وكسبه وملكته . وقد يثبت الشريعة الزكاة وأنواعها
وكيفية أدائها ، كما يثبت مستحقها وما لهم وما عليهم بتفصيل دقيق .
وكان من أثر الدعوة الحمدية للبر والإحسان تلك الأوقاف المحبوبة على
الخير في المشرق والمغرب ، وكان من أثرها أن تظهرت نفوس المسلمين ، حتى
جَسَسُوا من أهلًا كَبَرُوا على القبط والكلاب والحيوانات . ومن أمثلة هذا أن
نور الدين محمود وقف أرضًا في دمشق لتكون مأوى لـحيوان الهرم ، يرعى
فيها حتى يَمُوت

وتاريخ المسلمين في كل أوطانهم يفيض بالبر والعطف والرحمة بالبؤساء
والغرباء ، وما الْكَرَمُ الذي كان به فَخْرُ الْبَيْوَاتِ وَالْأَسْرِ وَالشَّعُوبِ إِلَّا أَثْرُّ مِنْ
آثار روح البر والإحسان الإسلامي .

ولم يكن البر في الدعوة الحمدية خاصاً بأهل الجنس أو الدين ، ولكنه البر بغير الدين

كان عاماً للمساكين من البشر ، فما منع اختلاف في الدين دون البر قال تعالى :
 « لَا يَنْهَا كُمُّ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يَقُلُّوْكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبْرُوْهُمْ وَلَمْ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » ، « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةِ قَلْوَبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ » .

ولتنظيم البر في العصر الحاضر يجب أن يقوم على نفس الأسس والوسائل التي جاءت بها الدعوة الحمدية ، لأنها أفعال وأدوات ، ولكن يجب كذلك أن تتصرف وتحتهد كنحق المقصود والغاية ، وأن ننظر في عصرنا ، وموارد التراث فيه ، ومصادر الغنى ، وحالات الناس لنكفل الخير للجماعة ونُرضي الله سبحانه وتعالى ، حتى يعود لظهور يمننا من كانوا يأبون أن يشعرون بالوجوب أداء الزكاة عليهم باتفاق أموالهم كلها ، حتى قبل بعضهم : كم يجب من الزكاة في ماتي درهم ؟ فقال : أما على العوام بحكم الشرع خمسة دراهم ، وأماماً نحن فيجب علينا بذلك الجميع .

لهذا المعنى تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجمع ما له ، وعمر رضي الله عنه بشطر ما له .

ولا عجب فإن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . وروح الدعوة الحمدية واضحة في أن الزكاة وحدها لا تُبرئ أموال المسلمين من حقوق المحتاجين فيها ، فا دام هناك عمل للبر والصدقة فهي واجبة ، وحق المسلم على المسلم لا ينتهي بأداء الزكاة .

يجب إذاً أن نستلهem من شريعة الإسلام الهداي ، وأن نستوحى من روح الدعوة الحمدية نظاماً للبر تقوم عليه الدولة ، لتوازن بين التراثات وال حاجات ، وتقيم التكافل الاجتماعي ، ونفضي على حرب الطبقات « فَنَّ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

العَدْلُ وَالْحُسْنَةُ

صور جاهلية — العالم بين الفرس والروماني — تحطيم القبور وإزالة
النوارق — مبادئ في السياسة وعقلاني في الدين — خلقة يبيع في الأسواق
— خلقة يابس المرض — بغير العدالة الدولية — ميزان الخلقة — ميزان
الشرفية — كعالة الحربات جميعها — الدفاع عن الحربات

تحدث في هذا الفصل عن مبدأين أساسين لا يبدونهما لصلاح حال المجتمع
وتوجيه الحياة في طريق الخير العام ، وهما : الحرية والعدالة .

وكان الناس قبل الإسلام يعيشون إما على نظام القبيلة ، كحال في بلاد صور جاهلية
العرب ، وإما رعايا الدول وأمراء ، كما كان الأمر حول شبه الجزيرة العربية في
ملك الرومان والفرس والأحباش . وقد كان لكل أرض حال ونظام حسب
ظروفها لانتظامه مبادئ جامدة ، وأصول ثابتة مسلم بها : في البلاد العربية
تسود مبادئ القوة ، وتجلى الأثرة والأنانية ، ويعتز الناس بالفتك
والسلب ، ويفتخر كثير منهم باستباحة حقوق الغير والتسلط على ما في
أيديهم ، ينكرون الإخاء البشري والقوى والجنس ، ويرفضون المساواة
خارج القبيلة مع المولى وغيرهم من العرب ، ويسيئون من العدل الذي
لا يقوم على ما تبيحه القوة ، ويحبون الحرية المطلقة ويتغشونها ، بل
يتوتون موتاً كريعاً في سبيل المتعة بها . على أنها حرية خاصة بهم لا ينتظرون
أحداً بها .

وكان الفرس والرومانيون جيران العرب ، يحقرون العرب ، العالم بين الفرس
ووالرومانيون ولا يعترفون بحق لهم في مساواتهم أو عدفهم ، وكان ملك الفرس يقوم على
رجل له كل الحقوق هو كسرى ، وعلى جماعة لهم من هذه الحقوق ما يمنع كسرى
أو يعطي ، إذ يُسخر له ما في الأرض جميعاً ليكون ملك الناس جميعاً ، وحوله

أعوان وأمراء وجناد يُشيدون العرش ، ويحظون ببعض المتع . إلا أنهم
عرضة في كل لحظة لإباحة أرواحهم وأموالهم وأبنائهم . نعم كانت
إمبراطورية الفارسية ثابتة القواعد ، دائمة الملك ، فقد عاش حكم آل ساسان
أربعة قرون ، ولكنه عاش على نظام عسكري ، وحكم عرق ، لا على مبادئ
العدل والحرية والمساواة والإخاء . وكذلك عاشت (بيزنطة) ألف سنة
ولم تكن عقليتها بأحسن حال من عقلية (المدائن) ، فكان قيصر إمبراطور
المغرب ، بل على دعوه إمبراطور العالم ، وكان كسرى خصيمه في الشرق .
وما كان لعبادة النار أثر يذكر في هذه ، ولا للمسيحية أثر في الأخرى ،
بل كانت مسيحية بيزنطة مما لا يشرف المسيحيين ، بعيدة كل البعد عما جاء به
سيدنا عيسى عليه السلام من إخاء وسلام ورحمة . وبلغ الغرور بسلاميين بيزنطة
أنهم كانوا لا يعترفون لدولة بالوجود المستقل ، فسيادتهم عالمية في نظرهم ،
والناس إما مُعترف بذلك ، وإما جاهل لا يدرى أنه في نطاق هذه السيادة .
ومن أظرف ما يُروى أن سفير شارلaman في القرن التاسع كان في حضرة
إمبراطور في بيزنطة ، فذكر له أن سيده شارلaman مشغول بحرب السكسون
 وأن هؤلاء السكسون برابرة دائم الشغب . فقاطعه الإمبراطور قائلاً : منْ
هؤلاء الهمج الذين لم أسمع باسمهم ، ولا قيمة لهم ليتبعوا سيدك كل هذا
التعب ؟ إني قد وهبت إياهم ، وبذلك أرحت سيدك منهم . فلما رجع سفير
شارلaman حدث سيده بما وَهَبَهُ الإمبراطور ، فقال شارلaman : لو وهبتك حذاء
بدل السكسون لأنك به على سفرك الشاق الطويل !

كذلك كان العالم في تصور قيصر وكسرى ، وفي مخالب الفوضى القبلية
حين جاءت الدعوة الحمدية تذكر الناس بأنهم من آدم وآدم من تراب
« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذرى وأنهى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن
أكرمكم عند الله أتقاكم » .

نَعْلَمُ الْقِبُودَ
وَإِزَالَةَ الْفَوَارِقَ

وَكَذَلِكَ كَانَ الْعَالَمُ لَا يَبْعَثُ (عُمَرَ) مَقْوِضًّا مُلْكَ قِيَصَرَ وَكَسْرَى إِلَى وَالِيهِ
يُوَلِّهُ لِاسْتَكْبَارِ ابْنَهُ عَلَى قَبْطِي مُسِيَّحِي وَيَقُولُ لَهُ «يَا هُمْ وَمَنْ تَعْبَدُونَمِنَ النَّاسِ
وَقَدْ وَلَدُوكُمْ أَمْهَاتُهُمْ أَحْرَارًا».

جاءَتِ الدُّعَوَةُ الْمُحْمَدِيَّةُ بِالظَّرِيفِ الْفَرِيبِ مِنْ الدُّعَوَةِ إِلَى الْمُعْدَلِ
وَالْمُسَاوَةِ وَالْحُرْبَيَّةِ.

فَأَصْبَحَتِ الشَّرِيعَةُ يَنْبُوعَ الْحَرَبَاتِ وَالْحَقَائِقِ، تَحْدِدُ الْحُقُوقَ وَالْوَاجِبَاتَ
لِلْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ. فَقَامَ الْمُسْتَضْعَفُونَ وَسَخَّرُ الْعَلَفَةَ الْمُتَجَبِّرِونَ وَقَالُوا
مَا قَالَ أَسْلَافُهُمْ مِنْ قَبْلِهِ «إِنْ زَرَكَ أَتَبْعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْسَى»
وَمَا دَرَوْنَا أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يَقْوِضَ عَالَمَ الْأُثْرَةِ وَالْأَنْاثَةِ وَالْفَلَمِ وَالْأَسْتِيَادَ
وَأَنْ يُحْقِّقَ الْحَقُّ، وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ. وَأَنَّ الشَّرِيعَةَ مَبَادِيٌّ وَاضْحَى كُرْبَيْةَ قَنْطَنْظَمَ
مَا بَيْنَ النَّاسِ، أَوْحَى بِهَا الْعِلْمَ الْخَيْرَ إِلَى أَفْضَلِ رِجْلٍ عَرَفَهُ الْبَشَرُ فِي تَارِيَخِهِمْ
الطَّوَيْلِ، هِيَ الْمَبَادِيُّ الَّتِي أَفْرَتَ الْعَدْلَةَ وَالْحُرْبَيَّةَ فِي ضَمَائرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعَلَتِهَا
جزِئًا لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ عِقِيدَتِهِمْ وَصَرْمِيمَ نَفْوسِهِمْ.

جَعَلَ الْإِسْلَامُ هَذِهِ الْمَبَادِيَّ جُزِئًا مِنِ الْمَقِيَّدةِ لَا يَنْفَضِّمُ مِنْهَا وَبِذَلِكَ ثَبَّتَهَا
وَخَلَدَهَا وَصَانَهَا مِنْ عَبْثِ التَّحَايَلِ وَالرَّيَاءِ وَالتَّظَاهَرِ وَالدَّاعَوَى الْمُفَرَّضَةِ
أَوْ الْمَوْقُوتَةِ.

فَالْمُسْلِمُ لَا يَكُونُ مُسْلِمًا إِذَا شَكَ فِي أَقْلَى إِخْرَانِهِ وَأَعْجَزَهُمْ بِمَعْدَلِهِ فِي
الْحُقُوقِ، فَهُمَا فِي حُضُورِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَبْدَانٌ، أَكْرَمَهُمَا أَنْقَاهُمَا.

هَذِهِ الْعَدْلَةُ هِيَ الَّتِي جَعَلَتِ الصَّدَقَةَ عَلَى مَنْ يَسْتَحْقُهَا، حَقًّا فِي أَمْوَالِ مَنْ
يَقْدِرُ عَلَيْهَا لَا مِنَّةَ فِي رَقْبَةِ مَسْتَحْقِيَّها.

وَكَانَتِ هَذِهِ الْعَدْلَةُ وَالْمُسَاوَةُ وَاضْحَى فِي الْمَهْدِ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلِ، وَقَتَّ
خَلِيلَةَ يَبْعَثُ فِي
الْأَسْوَاقِ
سِيَادَةَ الْمَقِيَّدةِ وَعَلَّكُمَا النَّفَوْسُ؛ فَهُوَ الَّتِي جَعَلَتِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، وَقَدْ اتَّخَذَ
لِلْخَلَافَةِ رَجُلًا يَخْرُجُ إِلَى السُّوقِ عَقِبَ الْبَيْعَةِ لَهُ لِيَعْمَلَ كَمَا يَعْمَلُ أَيُّ فَرْدٍ مِنْ

الناس فيها لِكَبْرُ قُوَّتِهِ وقوت عياله . فلما كَلَمَ فِي ذَلِكَ ، تشاورُ المُسْلِمُونَ فِي الْأَمْرِ واعتبروه أَجِيرًا لِعَمَلِهِ ، وَمَنْعُوهُ مِنِ الْعَمَلِ ، وَرَتَبُوا لَهُ راتبًا حَدَّدُوهُ بِالْحَاجَةِ ، وَكَانَتْ فِي عِرْفِهِمْ بِضُمْنِ دَرِيَّهُمْ ، لِيَدِتُ الْخَلِيفَةَ لَا يَجْعَلُهُ فِي زِيَّهِ وَمَطْعُمِهِ أَكْثَرُ حُظْوَةَ مِنْ سُوادِ رَعْيَتِهِ .

خليفة يابس المرقع
وَجَاءَ بَعْدِهِ حُمَرُ وَالْمَقِيَّدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ فِي أَعْزَمِ أَيَّامِهَا ، وَأَنْكَنَ سُلْطَانَهَا ،
فَكَانَ خَلِيفَةً مُخْتَارًا مِنَ الشَّعْبِ ، غَلَبَ الْفَرْسُ وَالرُّومُ وَهُوَ يَرْقَعُ ثُوبَهُ يَدِهِ
وَيَخْصِفُ حَذَاءَهُ بِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَخْطُرْ بِيَدِهِ وَلَا يَبَالْ بِالْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ تَبَرَّعَ عَنْهُمْ
بِشَيْءٍ غَيْرِ مَا أَعْطَاهُمْ مِنْ حَقِّ الْأَمْرِ وَأَلْزَمَهُمْ مِنْ حَقِّ الطَّاعَةِ مَا دَامَ
وَلِيَا لِلْأَمْرِ .

كانت العدالة والمساواة عقيدة لا تصنعا يتكلفها الناس أو يُلزِمُونَها بِقَانُونِ
رَادِعٍ ، فَكَانَتْ حَقِيقَةً نَفْسِيَّةً تَعْمَلُ فِي الظَّاهِرِ وَالْخَفَاءِ لِإِقَامَةِ مُجَمِّعٍ صَالِحٍ
مُسْتَقِرٍّ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَالَ شُوقِي بْنُ رَحْمَةَ اللَّهِ فِي مدحِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغَنِيِّ فَالْكُلُّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ سَوَاءٌ
فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مَلَةً مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفَقَرَاءُ
الْإِشْتَرَاكِيُّونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ لَوْلَا دَعَاؤِي الْقَوْمُ وَالْفُلَوَادُ
دَاوِيْتَ مُتَّدِدًا وَدَاؤُونَا طَفَرَةً وَأَخْفَثَ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءَ
وَالْبَرَّ عَنْدَكَ ذَمَّةٌ وَفِرِضَةٌ لَامْنَأَةٌ مَمْنُونَةٌ وَجِبَاءٌ

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ الشَّرِيعَةَ قَرَرَتْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ أَخْوَ الْمُؤْمِنِ ، وَأَنَّهُ فِي مَشْرِقِ
الْأَرْضِ أَوْ مَغْرِبِهَا لَهُ مِنَ الْحَقِّ مَا لِلْأَبْيَلِ لِنُكَرَانِهِ . لَهُ الْبَرَّ ، وَلَهُ النَّصْرَةُ وَالْحَمْيَةُ ،
وَلَهُ الْوَلَاةُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْتَّصْنِيفُ . لَهُ هَذَا كَلِمَةُ عَقْتَضَى الْعَقِيَّدَةُ وَالشَّرِيعَةُ لَا نَزَاعَ
وَلَا جُدَالٌ ، فَلَهُ النَّصْفُ غَابُ الْحَاكِمُ أَمْ قَامَ ، وُجِدَ الْقَانُونُ أَمْ اخْتَفَى ؛ لَأَنَّهَا

حق يؤذيه من ضميره يقتضي إعانته . هذا العدل قضى على القومية والمذهبية والوطنية ، وجعل المساواة فوق كل اعتبار ، فلالمسلم ما للمسلم في كل زمان ومكان .

وقد سبق الإسلام كل نظم العدالة الحديثة . حين قال : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وقال « يا أيها الذين آمنوا كُونوا فوَّادِين بالقِسْط شُهَدَاء لله ، ولو على أنفُسكم أو الوالدين والأقربين » وقال : « ولا يجْزِمْنَكُمْ شَنَآنُ قومٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوِيَّةِ » .

بِلِ الْعَدْلَةِ
الْوَلَيَّةِ

وقال « وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » .

وقال « وإذا قُلْتُمْ فاعدِلُوا وَلَا كَانَ ذَاقُرْبَيِّ » .

وفي الحديث القدسي « يا عبادي إني حرمتُ الظلمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُه
يَنْكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا » .

بِلِ الْمِيزَانِ
بِلِ الْعَدْلِ
أَلَّا تَطْغُوا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ » .

فالإسلام قد جعل العدل فوق كل شيء ، فهو يَرِتُّ بِالْقِسْطَاسِ
المستقيم بين الكافر والمسلم ، والمدُون والمُؤْمِن والمُعاَهد ، فهم جميعاً في نظره
أمام العدالة سواء .

« ولا يجْزِمْنَكُمْ شَنَآنُ قومٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوِيَّةِ » .

والشريعة الإسلامية في هذا الباب تستحق من جميع الناس ، آمنوا بها
أم لم يؤمنوا ، نظرة صادقة ؛ فإنها لا تزال سابقة في زمتنا على ما به من تقدم
الحضارة العالمية في هذا الشأن .

انظر إلى أقوال بعض آئمة المسلمين قبل مئات السنين . يقول ابن القيم :

« إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسلاً وأنزل كتبه ليقوم الناسُ بِالْقِسْطِ وهو
العدل الذي قامَتْ بِه الأرضُ والسموات ، فإذا ظهرت أُمارات العدُل وأُسْفَرَ

بِلِ الْفَرِيْدَةِ

وَجْهُهُ بِأَيْ طَرِيقٍ كَانَ قَمَ شَرْعُ اللَّهِ وَدِينِهِ» . وَيَقُولُ الْإِمَامُ الشَّاطِئُ «إِنَّ أَحْكَامَ الشَّرِيعَةِ مَا شُرِعَتْ إِلَّا لِمُصْنَاعَةِ النَّاسِ ، وَحِينَما وُجِدَتْ الْمُصْلَحَةُ قَمَ شَرْعُ اللَّهِ» .

فَأَعْلَمُ الْمُسْلِمِينَ مُتَفَقُونَ عَلَى أَنَّ الْمَعْدُلَ هُوَ غَايَةُ الشَّرِيعَةِ ، وَإِنَّمَا تَقْيِيدُ الْأَحْكَامَ بِالْمَعْدُلِ الَّذِي يَرِيدُهُ اللَّهُ قَبْلَ أَنْ تَقْيِيدَ بَشَرًا آخَرَ .

وَأَمَّا الْحُرْبَةُ فِي الْإِسْلَامِ فَهِيَ مِنْ أَقْدَسِ الْحَقُوقِ: الْحُرْبَةُ السِّيَاسِيَّةُ، وَالْحُرْبَةُ الْفُكُرِيَّةُ، وَالْحُرْبَةُ الْدِينِيَّةُ، وَالْحُرْبَةُ الْمَدِينَةُ، كُلُّهَا كَفَلَهَا الْإِسْلَامُ، وَخَطَّابُهَا خُطُوطٌ لَا تَرَالُ الْمُضَارَّةُ الْحَدِيثَةُ مُتَخَلَّفَةٌ عَنْهَا.

وَلَا يَرَالُ التَّارِيخُ بِحَدَّتِنَا بِأَمْثَالِهِ مِنْهَا وَقَعَتْ فِي مُجَالِسِ الْخَلَافَةِ وَالْأَمْرَاءِ حَتَّى
بَعْدَ أَنْ صَارَ الْحُكْمُ فِي الْإِسْلَامِ مُكْلِّفًا عَضُوضًا ، فَكَانَ النَّاسُ فِي أَيَّامِ عُمَرَ بْنِ
عَبْدِ الْعَزِيزِ يَتَكَلَّمُونَ فِي حُضُورِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ يَتِيهِ لِلْمَلِكِ وَالْخَلَافَةِ ، وَكَذَلِكَ
رُوِيَ عَنْ مُجَالِسِ الْمُؤْمِنِينَ مَا كَانَ يَجْرِي فِيهَا مِنْ تِقْاضٍ حَوْلَ يَتِيَّةِ الْخَلَافَةِ
وَأَحْقِيقِيَّتِهِ بِهَا .

وَهُذَا دِعْبَلُ بْنُ عَلَى الْغُزَاعِيُّ الشَّاعِرُ، هُجَا جَمَاعَةً مِنَ الْخَلَافَةِ الْعَبَاسِيَّةِ
وَاحْدًا بَعْدَ آخَرَ وَهُمْ فِي عَنْفُو اَنْ سُلْطَانَهُمْ، وَاتَّصَرَّ لِخَصُومِهِمِ الْعَلَوَيَّيْنَ دُونَ أَنْ
تُصَادَّرَ حَرِيَّتُهُ أَوْ يَنَالَهُ أَحَدٌ . وَلِمَا بَوَيَّعَ الإِبْرَاهِيمَ بْنَ الْمُهَدَّى فِي الْعَرَاقِ وَخَلَعَ
الْمُأْمَنَ فِي غَيْبَتِهِ قَالَ دِعْبَلُ :

نَعَّقَ ابْنُ شَكْلَةَ بِالْعَرَاقِ وَأَهْلِهِ فَهُمَا إِلَيْهِ كُلُّ أَخْرَقَ مَائِقَ
أَنَّهُ يَكُونُ! - وَلَا يَكُونُ - وَلِمَ يَكُونُ يَرِثُ الْخَلَافَةَ فَاسِقٌ عَنْ فَاسِقٍ
وَمَا أَظَنَ أَنْ مِثْلَ هَذِهِ الْحُرْبَةِ سُمِحَّ بِهَا فِي عَهْدِ مَلَكٍ مِنَ الْمُلُوكِ فِي زَمَنٍ
مِنَ الْأَزْمَانِ الْحَاضِرَةِ أَوِ الْمَاضِيَّةِ . وَتَقْدِيسُ الْإِسْلَامِ لِلْحُرْبَةِ هُوَ الَّذِي جَعَلَ مِنْ
الْمُسْلِمِينَ فِي أَحْسَنِ أَيَّامِهِمْ ، وَخُصُوصًا الْمَهَدَّى الْعَرَبِيُّ لَفُرُّهُ مِنْ ظَهُورِ الدُّعَوةِ ،

فَوْمَا يَسْعُونَ فِي مُلْكِهِمْ بَيْنَ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبِ مِنَ الْصِّينِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ جَمِيعَ
الْمَلَلِ وَالنَّحْلِ تَعِيشُ فِي جَوَارِهِمْ وَأَمْنِهِمْ .

بَلْ أَقَامَ الْإِسْلَامُ بِشَرْعِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حُمَّةً لِأَرْبَابِ الْعَقَائِدِ الْمُخَالِفَةِ لِهِمْ ،
وَأَلْزَمَ أَهْلَهُ أَنْ يَقْاتِلُوا الصِّيَانَةَ حُرْيَةَ الْمَقِيَّدَةِ وَقُدُّسَيَّةَ أَمَّا كَنْ الْعِبَادَةَ لِمَنْ دَخَلُوا
فِي عَهْدِهِمْ وَجَوَارِهِمْ مِنَ الْمُخَالِفِينَ فِي الدِّينِ .

تَشَبَّعَتْ نُفُوسُ الْمُسْلِمِينَ بِعِنْدِ الْحُرْيَةِ ، فَلَمْ يَضْطُهِدُوا بِعَقْتَضِي شَرِيعَتِهِمْ ،
وَلَا إِرْضَاهُ لِعَقِيدَتِهِمْ رَجْلاً نَظَرَ فِي السَّكُونَ وَاسْتَبْطَطَ لِنَفْسِهِ نَظَرَيَّةَ مِنَ
النَّظَرَيَّاتِ ، أَوْ ادَّعَى رَأْيًا مِنَ الْأَرَاءِ ، فَكَانَتِ الْحُرْيَةُ الْعَلَمِيَّةُ مَكْفُولَةً لِلصَّابِرِيِّ
وَالْمَجْوُسِيِّ وَالنَّصَارَى وَالْيَهُودِيِّ ، يَقُولُ وَيَكْتُبُ مَا يَشَاءُ . كَذَلِكَ كَانَ الْمُسْلِمُونَ
أَحْرَارًا فِي هَذَا لَا تَعْرِضُهُمْ شَرِيعَتُهُمْ . وَلَا أَعْرِفُ أَنْ حُرْيَةَ الرَّأْيِ وَالْعَقِيَّةِ
وَالْعِلْمِ قَدْ اعْتَرَضَهَا مُعْتَرِضُونَ فِي الدُّولَ الْإِسْلَامِيَّةِ ، إِلَّا خُشْبَةُ الْفَتْنَةِ ، أَوْ حِيثُ
كَانَ سَبِيلًا فِي فَتْنَةِ أَوْ عَرَضَتْ سَلَامَةَ الدُّولَةِ لِخَطَرِ .

وَكَانَ أَمْرَاءُ الْمُسْلِمِينَ وَحُكَّامُهُمْ عَلَى وَجْهِ الْعَوْمَمِ لَا يَعْبُأُونَ فِي سِيَاسَتِهِمْ
بِالنَّظَرِ إِلَى الْأَفْكَارِ وَالْأَرَاءِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ وَالْأَبْحَاثِ الْعَلَمِيَّةِ إِلَّا يَقْدِرُ أَثْرُهَا
الْمُبَاشِرُ السَّرِيعُ عَلَى سُلْطَانِهِمْ : خَافُونَ الْمُسْلِمِونَ وَغَيْرُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْكَلَامِ ، وَفِي
نَظَرَيَّاتِ عَلَمِيَّةٍ وَدِينِيَّةٍ فِي الْمَصْوَرِ الْوَسْطَى بِحُرْيَةٍ لَمْ تَنْسَعْ لَهَا صُدُورُ الْأُورَبِيِّينَ
وَالْأَمْرِيَّكِيِّينَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

تَلَكَ بَعْضُ الْمَبَادِيِّ الْعَامَةِ الْمُتَفَقَّعَ عَلَى ضَرُورَتِهَا وَفَضْلَاهَا ، وَالَّتِي بِهَا يَصْلُحُ
الْمَجَمِعُ ، أَقَامُهَا الْإِسْلَامُ فِي ضَمَائرِ النَّاسِ ، وَنَاضَلَ عَنْهَا وَجَاهَهَا بِسُلْطَانِهِ ، لَأَنَّهُ
يَعْلَمُ آثَارَهَا الصَّالِحةَ فِي إِقَامَةِ مَجَمِعٍ صَالِحٍ .

الدفاع عن
الحربيات

واسع الضرر على إنسانية الأمة، وفروا بالآلاف من المهاجرين جاءوا بهم كل المحن والآلام على العالم

حملهم على ملايين الأمواج والآلية - يطلبون العودة إلى بلدهم في سفينتين فالآن
في 25 - 1922 - 1923 - 1924 - 1925 - يطالبون بـ 100 مليون دولار

ويعملوا بـ 100 مليون دولار في سفنهم - يطلبون العودة إلى بلدهم في سفينتين فالآن
في 25 - 1922 - 1923 - 1924 - 1925 - يطالبون بـ 100 مليون دولار

٣

في العلاقات الدولية

الدُّولَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْأُولَى وَعِلَاقَاتُهَا

من تاريخ علاقات المسلمين بالناهضين للإسلام — أول معايدة « دولية » بين المسلمين واليهود والوثنيين — تهديد قديم لعصبة الأمم — الإذن بالمربي الدافعية — حرب للافران السامية — تنظيم علاقات الفرزخين

ابتدأت الدعوة إلى الإسلام سرًا ، فلما جُهُر بها اشتدت المخصومة ، وترتب على ذلك اضطهاد المسلمين اضطهاداً تفتقَّد فيه جميع أنواع الأذى ، فأشار الرسول على أنصاره المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة فهاجروا إليها . وبهذه الهجرة ابتدأت أولى الصلاتِ الدولية ، وبقيَّ هو عكَّة في مَنْعَةِ من قومه ، يدعو إلى سُبْيلِ رَبِّه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلم تستطع قريش صبراً على دعوه ضدَّ آلهتها ، بل ضد حياتها الاجتماعية والاقتصادية ، فتشاورت في قتله ، وفاوضت بني هاشم في ذلك على أن تدفع إليهم ما يرضيهم دِيَّةً له فأخْبَرُوا ، فتحالف أهل مكة على قطعية بني هاشم ، وكتبوا بذلك صحيفَة علقواها في الكعبة ، فلما جاء بنو هاشم ومعهم بنو المطلب إلى شعبٍ من شعابِ مكة واعتصموا فيه ضد أصحاب الصحيفة الذين تعاهدوا على أن يقاطعوا مُحَمَّداً وَمَنْ ينْعِهُ منهم ، فلا يزوجوه ولا يعاملوه ولا يُؤْتُوا كلامهم ، واشتهدَ الْكَرْبَلَةُ عن دافعها عن الرسول من آمنوا به أو نصروه عصبيةً وأنفقةً ، ودام هذا الحال سنين ، فلما خرجوا من الشَّعْبِ ذهب الرسول إلى (الطائف) مستنجدا طالبا حماية بعض زعمائهم ، ليُفْسِدُ في دعوته فرجع مَهِيَّبَ الجناح ، وقد ردَّ على أشنع صورة ، يتبعه الصغار ، وهو يمشي دائِيَ القدمين ، يقْمُّونه كلَّا قعد ، فلا يستريح إلى ظل ولا يأوي إلى كهف ، حتى دخل مكة في حماية أحد المشركين ، يسخرُ منه أهلهَا ويُبَكِّي حاله أتباعه المستضعفون .

وجاءت فترة من المدْهُوَة ظنَّ فيها المهاجرون المستضعفون من الرجال والنساء والولدان أن مكة تُؤْتُوا لهم فرجعوا ، واشتهدَ الْكَرْبَلَةُ مرة أخرى ،

وأصرّهم الرسول بالهجرة الثانية إلى الحبشة، ولَقُوا بلاه شديداً حتى في مَهْجَرِهِ، فقد أوفدتُ قريش رُسُلَّها، وعلى رأسهم عمرو بن العاص (فاتح مصر فيما بعد) يحمل المهدى إِلَى النجاشى وأهل الحبشة لِيُغْرُوْهُم على تسلیم المهاجرين إِلَيْهِمْ، فدافع المسلمون عن أنفسهم بالحجّة وَتَسْكُوا بِحُقْقِ الْجُوارِ لِلْمُتَجَبِّى^(١)، وأسسوا بذلك أول علاقة دولية بين الأمة الحمدية والدولة الحبسية.

واستمرّت قريش تَكْيِيدُ المستضعفين في مكة حتى استقرَّ رأيهَا على قتل محمد وتوزيع مسؤولية قتله على بظونها ، فتعجز بنو هاشم عن المطالبة بثأره . وفي الليلة التي تمَّ فيها التآمر على قتل النبي خَرَجَ من مكة ومعه رفقُه أبو بكر ، فلما أحسَّ القوم بذلك تبعوها ، وكانوا مختلفين بِغَارِ ثور ، فضلوا ثم خابوا في إدرا كهما .

ووصلَ المدينة فوجدها من سبقه من المهاجرين ومن بايعوه من الأنصار ، وما ليث أن عقدَ أولَ معاہدة دولية بين المسلمين واليهود والمشركين ، وهي من نفس العقود الدولية وأمّتها وأحقها بالنظر والتقدير من الناس كافة ، وأولاًها بأن تكون نِزَاراً للمسالمين في أصْول العلاقات الدولية بينهم وبين مختلفهم من أهل الأديان الأخرى . هذا فضلاً على أن عَقدَها ابتدأت به الدولة الإسلامية حيَّاتها ، وابتدأ الاعتراف بالمسالمين كدولة .

هذه الوثيقة هي عَقدُ حُسْنِ جِوارٍ وَخَالَفِ دِفاعٍ ، وتعاون ضدَّ العدوان ، قُصدَ بها صيانة مجموعه من دُوَّيَّلاتٍ ، كل منها يتمتع في نطاق الميثاق بسيادته الخاصة على قومه ، وبحرَّية الدعوة لِدينه .

ويتساَفَلُ الموقون عليهَا على نُصرة بعضِهم بعضاً ، وحماية عقائدهم من يریدُ أو طامِهم أو جاعتهم بسوء . وهم بذلك يكفلون حرية العقيدة وحرية الدعوة لأعضاء الميثاق على تباهٍ معتقداتهم . وإِلَيْكُمْ الميثاق^(٢) :

(١) نَذَارٌ من كتاب « الوثائق السياسية في العهد النبوى والخلافة الراشدة » للدكتور محمد حيدر الله الجيدى أبادى أستاذ الحقوق الدولية بالجامعة العثمانية ببغداد أيام دكتور أبادى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- (١) هُذَا كِتَابٌ مِّنْ مُّحَمَّدٍ النَّبِيِّ [رَسُولِ اللَّهِ] بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قَرِيشٍ وَ[أَهْلِ] يَثْرَبٍ وَمَنْ تَبَعَهُمْ فَلْحِقْهُمْ وَجَاهَهُمْ مَعَهُمْ .
- (٢) أَنْهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِّنْ دُونِ النَّاسِ .
- (٣) الْمَهَاجِرُونَ مِنْ قَرِيشٍ عَلَى رَبِّعِهِمْ^(١) يَتَعَاقَلُونَ بَيْنَهُمْ وَهُمْ يَغْدُونَ عَلَيْهِمْ^(٢) بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .
- (٤) وَبْنُو عَوْفٍ عَلَى رَبِّعِهِمْ ، يَتَعَاقَلُونَ^(٣) ، مَعَالِمُهُمُ الْأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .
- (٥) وَبْنُو الْخَارِثَ [مِنَ الْخَزَرَاجِ] عَلَى رَبِّعِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَالِمُهُمُ الْأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .
- (٦) وَبْنُو سَاعِدَةَ عَلَى رَبِّعِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَالِمُهُمُ الْأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .
- (٧) وَبْنُو جُحْشٍ عَلَى رَبِّعِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَالِمُهُمُ الْأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .
- (٨) وَبْنُو النَّجَارِ عَلَى رَبِّعِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَالِمُهُمُ الْأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .
- (٩) وَبْنُو حَمْرَوْنَ بْنِ عَوْفٍ عَلَى رَبِّعِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَالِمُهُمُ الْأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .
- (١٠) وَبْنُو النَّبِيِّ عَلَى رَبِّعِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَالِمُهُمُ الْأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .
- (١١) وَبْنُو الْأَوْسَ عَلَى رَبِّعِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَالِمُهُمُ الْأُولَى ، وَكُلُّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقَسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .

(١) أَسْمَمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ . (٢) أَسْبِمُ .

(٣) يَأْخُذُونَ دِيَاتَ الْقَتْلِ وَيَعْطُونَهَا . وَأَصْلُهُ مِنَ الْمَقْلَلِ وَهُوَ رِبْطٌ لَابْلِ الْمَدِينَةِ لَدُفْعَتِهَا لِأَهْلِ الْقَبْلَةِ .

(١٢) وأن المؤمنين لا يتركون مفترحاً^(١) ينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

(١٢ ب) وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

(١٣) وأن المؤمنين المتقيين [أيديهم] على [كل] من يبغى منهم أو ابتغى دسعة^(٢) ظلم أو إثماً أو عدواً أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جيئاً ولو كان ولد أحدهم.

(١٤) ولا يقتل مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن.

(١٥) وأن ذمة الله واحدة يُحْبِرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ، وأن المؤمنين بعضهم موالٍ بعض دون الناس.

(١٦) وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتَنَاصِرٍ عليهم.

(١٧) وأن سليم المؤمنين واحدة لا يُسَالُمُ مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواه وعدل بينهم.

(١٨) وأن كل غازية غزت معنا يعقوب^(٣) بعضها بعضاً.

(١٩) وأن المؤمنين يُبَيِّنُونَ^(٤) بعضهم عن بعض عانا دماءهم في سبيل الله.

(٢٠) وأن المؤمنين المتقيين على أحسن هدى وأقومه.

(٢٠ ب) وأنه لا يُحْبِرُ مشرك مالاً قريش ولا نفساً، ولا يحول دونه

على مؤمن

(٢١) وأنه من اعتَبَطَ^(٥) مؤمناً قتلاً عن ينتهِ فإنه قَوْدٌ^(٦) إلا أن يرضى ولـ المقتول [بالعقل]، وأن المؤمنين عليه كافة ولا يخل لهم إلا قيام عليه.

(٢٢) وأنه لا يخل لمؤمن أقر عاف في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر

(١) هو من أئمة الذين والفرج فأزال فرجه.

(٢) الدفع المدفع . والمعنى: طلب دفعاً على سبيل الظلم أو ابتغي عطبة على سبيل القلم .

(٣) أي يكون الفزو بينهم توباً يعقب بعضهم بعضاً فيه .

(٤) من آيات العذاب بالقتل إذا قتله به .

(٥) قتله بلا جنابة أو جريرة توجب قتله .

(٦) فإن القاتل يأخذ به ويقتل .

أَن يَنْصُرْ مُحَدِّثًا أَوْ يُؤْوِيهِ ، وَأَنَّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لِعْنَةَ اللَّهِ وَغَضْبَهِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صِرْفٌ وَلَا عَدْلٌ .

(٢٣) وَأَنْكُمْ مِمَّا اخْتَفَتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ مَرْدَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ .

(٢٤) وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفَقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِّبِينَ .

(٢٥) وَأَنَّ يَهُودَ بْنَى عَوْفَ أُمَّةً مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينَهُمْ وَالْمُسْلِمِينَ دِينَهُمْ
مَوَالِيهِمْ وَأَنفُسِهِمْ إِلَّا مِنْ ظَلَمٍ أَوْ أَثْمٍ فَإِنَّهُ لَا يُؤْتَيْنُ^(١) إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ .

(٢٦) وَأَنَّ لِيَهُودَ بْنَى النَّجَارَ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بْنَى عَوْفَ .

(٢٧) وَأَنَّ لِيَهُودَ بْنَى الْخَارِثَ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بْنَى عَوْفَ .

(٢٨) وَأَنَّ لِيَهُودَ بْنَى سَاعِدَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بْنَى عَوْفَ .

(٢٩) وَأَنَّ لِيَهُودَ بْنَى جُثْمَ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بْنَى عَوْفَ .

(٣٠) وَأَنَّ لِيَهُودَ بْنَى الْأُوسَ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بْنَى عَوْفَ .

(٣١) وَأَنَّ لِيَهُودَ بْنَى ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بْنَى عَوْفَ إِلَّا مِنْ ظَلَمٍ وَأَثْمٍ فَإِنَّهُ
لَا يُؤْتَيْنُ^(١) إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ .

(٣٢) وَأَنَّ جَفَنَةَ بَطَنَ مِنْ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ

(٣٣) وَأَنَّ لِبَنِي الشُّطَيْبَةِ مِثْلَ مَا لِيَهُودَ بْنَى عَوْفَ وَأَنَّ الْبَرَّ دُونَ الْإِثْمِ .

(٣٤) وَأَنَّ مَوَالِيَ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ .

(٣٥) وَأَنَّ بَطَانَةَ يَهُودَ كَأَنْفُسِهِمْ .

(٣٦) وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا يَأْذِنَ مُحَمَّدًا .

(٣٦ب) وَأَنَّهُ لَا يَنْجَزُ عَلَى ثَارِ جُرْحٍ ، وَأَنَّهُ مَنْ فَتَّكَ فِيْنَسَهُ وَأَهْلَ
بَيْتِهِ إِلَّا مِنْ ظَلَمٍ ، وَأَنَّهُ عَلَى أَبْرَهُ هَذَا .

(٣٧) وَأَنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتِهِمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتِهِمْ وَأَنَّ يَنْهِمُ النَّصْرَ عَلَى
مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصِّحِيفَةِ ، وَأَنَّ يَنْهِمُ النَّصْحَ وَالنَّصِيحَةَ وَالْبَرَّ دُونَ الْإِثْمِ .

(٣٧ب) وَأَنَّهُ لَا يَأْتِمُ اسْرَهُ وَبَخِيلَهُ ، وَأَنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ .

(١) بِهِلْكَ وَبِقَدْ

- (٣٨) وأنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا حُمَارِينَ .
- (٣٩) وأنَّ يَثْرَبَ حَرَامٌ جُوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ .
- (٤٠) وأنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرُ مُضَارٍ وَلَا آثِمٌ .
- (٤١) وأنَّهُ لَا تُجَارُ حِرْمَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا .
- (٤٢) وأنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ تُخَافُ فَسَادُهُ فَإِنَّ مَرَدَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَنْقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ .
- (٤٣) وأنَّهُ لَا تُجَارُ قَرِيشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا .
- (٤٤) وأنَّ يَنْهِمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهِمَ يَثْرَبَ .
- (٤٥) وَإِذَا دَعُوا إِلَى صَلْحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيُلْبِسُونَهُ فَإِنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ وَيُلْبِسُونَهُ وَأَنَّهُمْ إِذَا دَعُوا إِلَى مُثْلِ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَنْ حَارَبَ فِي الدِّينِ .
- (٤٦ ب) عَلَى كُلِّ أَنْاسٍ حِصْنَهُمْ مِنْ جَانِبِهِمُ الَّذِي قَبَلُهُمْ .
- (٤٦) وأنَّ يَهُودَ الْأُوْسَنَ مَوْالِيهِمْ وَأَنْفُسَهُمْ عَلَى مُثْلِ مَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مَعَ الْبَرِّ الْمُحْضِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ، وَأَنَّ الْبَرِّ دُونَ الْإِثْمِ لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدِقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبْرَهُ .
- (٤٧) وأنَّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ أَوْ آثِمٍ ، وَأَنَّهُ مَنْ خَرَجَ أَمِينًا وَمَنْ قَدِدَ أَمِينًا بِالْمَدِينَةِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَآثَمَ ، وَأَنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ رَأَى وَأَنَّهُ مَنْ خَرَجَ وَمَنْ حَرَمَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .
- ***

فِي هَذَا الْمِيثَاقِ وَيُضَعُ أَسَاسُ الدُّولَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَأَصْبِحُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُسْلِمُونَ رَعَايَا دُسْتُورِ الدُّولَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

هَذِهِ الدُّولَةُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَعَصَبَاتِهِمْ، أَسِيَادِهِمْ وَمَوَالِيَ أَمَّةٍ وَاحِدَةٍ دُونَ النَّاسِ

هَذِهِ الْأَمَّةُ تَعَاقدُ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مَعَ أُمَّمَ أُخْرَى مِنْ دِيَانَاتِ أُخْرَى ،

فَيَنْشَأُ فِي أُولَئِكَ مِيثَاقٌ « جَمِيعَةُ أُمَّةٍ » أَسَاسُهُ النَّصْرُ لِلْمُظْلُومِ وَالتَّصْحِيحُ

وَالنَّصِيبَةُ ، وَالْبَرِّ دُونَ الْإِثْمِ ، وَحِرْمَةُ الْأُوْطَانِ الْمُشْتَرَكَةُ وَحِرْمَةُ مَنْ يَدْخُلُ

فِي الْمِيثَاقِ وَيَقْبِلُ جُوَارِهِ ، عَلَى أَنْ تَصَانَ عَقَائِدُ الْمُتَعَاقدِينَ وَشَعَارُهُمْ وَحِرْمَةُهُمْ

في الدعوة لدينهم مهما تباهت هذه الأديان؛ فهو ميثاق من الأمم الإسلامية واليهودية بل والوثنية، لما في شرب وقتلذ من الوثنين الداخلين مع طوائف الميثاق المكوتين لأطراف العقد. ولو كان في المدينة حيث ذكر مسيحيون لنص عليهم الميثاق.

ولقد سبق الإسلام بهذا الميثاق عهداً «عصبة الأمم» الحديثة بأكثر من ثلاثة عشر قرناً، وهذا التحالف ابتدأ به رد الفعل لاضطهاد وظلم دام أربع عشرة سنة، لم تكن من عظمة حسنة، ولا لينٍ ولا فُرْقَةٍ ولا راجمٍ ولا هجرة.

سلطت قريش ومن معها جميع أنواع الأذى والظلم، فأصابت المسلمين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ومزقتهم وشتتهم في الأرض، وهو يأتون الرد، ويدعون إلى تحكيم العقل، وبناظرون ليتبين الرشد من الغي، لا يدفعون قوة بقوة، ولا يلجمون إلى عنف.

فاما بلغ السيلُ الْبَيْ جاء أَمْرُ اللهِ وَأَذْنَ بالقتال وأحلَّتُ الحربُ للدفاع عن النفس وعن الوطن وعن حرمة العقيدة، ونزل حكم الله في هذه الآية الجليلة.

«أَذْنَ لِلَّذِينَ يَقَاوِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِ لَقَدِيرٌ». الذين أخرجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. ولو لا دفعُ اللهِ الناس بعضَهم ببعضٍ لهدمت صوامعٍ وبيعٍ وصلواتٍ ومساجدٍ يذكُرُ فيها اسمُ الله كثيراً، ولينصرَنَ اللهُ مَنْ يَنْتَهِرُ إِنَّ اللَّهَ أَقْوَى عَنِ النَّزَلِ. الذين إن مكثاًهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر».

وضع الرسول الأساس المتن للدولة العالمية وللعلاقات الدولية في الميثاق الذي ذكرنا على أساس الحرية للمشترين فيه والاستقلال.

ثم نزل حكم الله بإباحة الحرب لأغراض سامية محدودة، منها ما هو سلبيٌّ، وهو دفع العاديات ومنع الظلم، ومنها ما هو إيجابيٌّ وهو الخير العام أو الصالح العام فقال تعالى:

«الَّذِينَ إِنْ مَكَثُوا هُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ النَّكَرِ».

الإذن بالحرب
الدفاعية

حرب الاغرام
السامية

فتبيّن الواجب بعد النصر ، وحدّد المقصود منه ، فليس توسيعًا في الملك كاً تفعل الدول المستعمرة ، وليس تعجيزًا للآخرين وإنها كما هم ليضعفوا عن المُزاجة في العيش ، ويطردوا من الأسواق وميادين التجارة ، ولا لوضع اليد على موارد الثروات وكنوز الأرض وخامات الصناعة ليستأثروا بها ، ولا علوًّا واستكباراً في الدنيا ، لكن تكون أمة أر بي من أمة ، وجنّس أعلى من جنس ، ولكن لغايةٍ واضحة محدودة ، هي أن يقيموا الصلاة ويؤثّروا الزكاة ويأمرّوا بالمعروف وينهّوا عن المنكر .

وما حاول الأوروبيون والأمريكيون بعد أن أكلّتهم الحرب الماضية أن يبنّوا الحالات التي تكون الحرب فيها مشروعة ، وأن يحدّدوا أغراضها ، ويسطروا على شهواتهم ، فعقدوا بذلك المواثيق في عصبة الأمم وفي ميثاق (كيلوج) ، استبشرنا وقلنا إن سفن محمد صلى الله عليه وسلم قد أخذت تسود التفكير العالمي . وإن الترجو أن تكون الحرب الأخيرة خاتمة الضلال ، وأن يجد الناس في قواعد العلاقات الدولية التي سنتها الشريعة الحمدية هدىً ومحرّجاً مما هم فيه . فيشاق محمد مع اليهود والمرشكين في المدينة هو أول عهد دولي في سبيل صيانة السلم على أساس المذفعة العامة والحرارة الجماعي .

ومشروعية الحرب لدفع الظلم وضمان الحرية ، وتحديد الغرض منها بالغیر العام، هما أيضاً الأساس الصالح الذي يجب أن تبني عليه العلاقات الدولية في المستقبل .
أنت الشريعة الحمدية قبل ثلاثة عشر قرناً بنظام كامل من عهود التحالف والتكافل والتحكيم ، وجعلت الحرب ضدّ المعتدين زاجرًا أو تأدّيباً لا تخوّأ وتعدّيها « وإن جنحوا للسلّم فاجتنب لها وتوكل على الله » « وأن تحكم بينهم بما أنزل الله » « فقاتلوا التي تبغى حتى تفني إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوها بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحبّ المُقسطين » .

وسينتبين في الفصول التالية هدى الإسلام في سبيل التنظيم الدولي وإقرار السلام الدائم على أساس المعهود المقدسة الصالحة .

الحرب المشروعة

تحديد أسباب الحرب وأغراضها - الحرب الدفاعية هي المباحة - وصايا
وتحذيرات إذا وقعت الحرب - الإسلام دين عدل - فريضة الجهاد على المسلم
والسلمة - الحرب المجرامية غير مباحة - الحرب لأغراض مادية غير
مشروعة - ضرورة تقدر بقدرتها - القصف والتلويح ظالم للنفس .

أشعرنا إلى ما كان من اضطهاد وظلم للمسلمين استلزم الإذن بالقتال ، وقد
أصبحوا في مئنة بالهجرة إلى المدينة وبالميثاق الذي عقدوه مع جيرانهم من
أهل الملل والنحل الأخرى .

والآن لتنظر في الحرب من الوجهة الإسلامية : أسبابها وملايئتها
وأغراضها ؛ فإن ذلك مما يعين على تصور حالة قد يكون فيها العلاج لداء العالم
الحاضر ، ويفتح الأذهان إلى الهدى والتبصر .

أذن بالقتال في هذه الآية الكريمة « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ،
 وإن الله على نصرهم قدير ». الذين أخرجوا من ديارهم بغیر حق إلا أن يقولوا
ربنا الله . ولو لا دفع الله الناس بعضهم بعضهم لمدّمت صوامع وبيع وصلوات
ومساجد مذكورة فيها اسم الله كثيرا . ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي
عزيز . الذين إن مكثاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا
بالمعرفة ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور . »

فالإسلام حين أباح الحرب قد علل هذه الإباحة ، وحدد المقاصد
والأغراض منها : فهي دفع الظلم ، واحترام حق الإقامة ، والحرمة في الوطن ،
ومنع الفتنة في الدين ، وكفالة حرمة العقيدة للناس جميعا .

وهذه الحرمة للناس جميعا واضحة من تعديد أماكن العبادة لمتطلبات مختلفة ،
من صوامع وبيع للنصارى وصلوات اليهود ، ومساجد المسلمين ؛ فقد أباح

الحرب لصيانتها من عدوان المعتدين . كذلك يقول تعالى :

« وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ . إِنَّ أَنَّهُمْ أَفَلَاعُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » .

في هذه الآية الجليلة تعلو الدعوة المحمدية على جميع الدعوات ؛ لتحديدتها الفرض من الحرب برد الطغیان ، وإسقاط مشروعية الحرب ب مجرد أن ينتهي المعتدي من اسرافه وإعانته في فتنة الناس ، وعندئذ لا يتجدد القتال وتستمر الحرب إلا على ظالم ، يصر على الظلم ، ومن يُكْرِهُونَ الناس على ترك دينهم . والفتنة والإكراه سلب الناس حريةِهم في دينهم أبغض إلى الله حتى من إزهاق النفوس « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتْلٌ فِيهِ . قُلْ قِتْلٌ فِيهِ كَبِيرٌ . وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِخْرَاجٌ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرٌ عَنِ اللَّهِ ، وَالْفَتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلَا يَرَوْنَ يَقَاتِلُوكُمْ حَتَّى يَرْدُو نَفْسَكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَاعُوْا » .

وإذا تقضينا آيات الكتاب الكريم في القتال ، ورجعنا إلى ظروف التغزيل ، وتبعدنا الحوادث في حياة الرسول وحربه ورسلياه ، حربا حربا وسرية سرية ما خالجنا شك في أن الحرب المشروعة في الإسلام هي الحرب الدفاعية . ولا يسمح المقام باستقصاء وتفصيل للاحوادث ؛ ففي كتب السنة والكتاب الكريم وكتب السيرة من البيان والتفصيل ما يعين الباحث على الاطمئنان لما ذكرنا من أغراض الحرب المشروعة الإسلامية ، ومن التزام الإسلام جانب الدفاع . وما جاء من قتال الشركين حيث وجدوا ، والإغلاق عليهم ، والعمود لهم كل مرصد ، والتنكيل بهم من خلفهم ، وشد الوثاق ، هو ما كلفنا به بعد وقوع الحرب ، فهو نتيجة لها لا سبب لإعلانها .

فأقوله تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبَئْسُ الْمَصِيرُ » . « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَةً كَمَا يَقَاتِلُوكُمْ كَافَةً » .

«فَقَاتَلُوا أَئِمَّةَ الْكُفَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُمَانُ لَهُمْ لِعَلَمِهِمْ يَتَّهِمُونَ . أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكْثُرُوا أَيْمَانَهُمْ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ، وَهُمْ يَدْعُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً أَتَخْشَوْهُمْ ، فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَاتِلُوهُمْ يُعَذَّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيُخَزِّنُهُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشَفِّعُ صَدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَيُذَهِّبُ غَيْظَ قَلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» . «وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» . «وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِيقُتُمُوهُمْ وَأَخْرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ» . «اْنْفِرُوا خِفَافًا وَتِقَالًا وَجَاهُدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفَسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» . «بِأَيْمَانِهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائَةً يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الظَّالِمِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْهَمُونَ» . «وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كُلَّاً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كُلَّاً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» .

هذه الأقوال إنما هي آيات توحي إلى القارئ بنفسها أن حالة الحرب قائمة، وأنها تحرِّض على الاستمرار فيها والصبر عليها والترغيب في الوصول بها إلى خاتمة يُطمئن إليها، من الأمان والسلام للمؤمنين، والحصول على ثبات واستقرار للدين، ومنع من الفتنة والارتداد بضغط المشركين وقهريهم، وأهل في أن ينتهي المعذبون عملاً بهم عليه.

ومن مزايا الشريعة الحمدية الجليلة أنها شريعة عملية تواجه الحقائق البشرية والإسلام بين
والفطرية، وتحاكي المضلات بالحل العملي؛ فـ «فَإِنْ دَامَتْ الْمَوْعِدَةُ حَسَنَةً لَا تَرْدُ
الظُّلْمُ وَالْاعْتِدَاءُ ، وَمَا دَامَ أَعْدَاءُ الإِسْلَامِ لَا يَرْضَوْنَ حَسَنَ الْجُوارِ وَالْمَهْدَ الْقَائِمِ
عَلَى الْإِنْصَافِ وَحْرِيَةِ الْعِقِيدَةِ ، وَمَا دَامَ أَهْلُ الشَّرِّ ذُوِّي سُلْطَانٍ خَطِيرٍ ، فَإِنَّ
الْحَرْبَ وَاقِعَةٌ بَيْنَ النَّاسِ ؛ فَلَمْ يَقْفِيَ الإِسْلَامُ أَمَامَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ مَكْتُوفَ الْيَدِينَ
بِلَّ وَاجْهَهُمَا بِالْحَزْمِ وَالْعَزْمِ الَّذِيْنَ لَا زَمَانَ لِرَسُولِهِ فِي دُعَوَتِهِ طَوْلَ حِيَاتِهِ ، فَأَمَرَ
بِالاستعداد لها: «وَأَعِدُّوْهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْجَيْلِ تُرْهِبُوْنَ

بِهِ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ فَجَعَلَ الْمَذَهَّبَ نَفْسَهَا لِلإِرْهَابِ الَّذِي قَدْ يَمْنَعُ الْحَرْبَ
وَيَحْفَظُ السَّلَامَ .

وَحِينَ لَمْ يَقُلْ الْمُسَافِرُينَ سَبِيلًا إِلَّا الْحَرْبُ ، وَأَصْبَحَ حَقَّهُمْ فِي ذَلِكَ
وَاضْطِرَارًا ، أَبْيَحَ الْقِتَالَ وَكَانَ السَّلَامُ هِيَ الْمَقْصِدُ الْأَسْنَى لَهُ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى « إِنَّ
إِنْهَاوًا فَلَا عُدُوًّا إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى « وَإِنْ جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَاجْنِحْ
لَهُ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » .

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ (شُوقِي) فِي هَذَا الْمَعْنَى :

وَالْحَرْبُ فِي حَقِّ لِدِيكَ شَرِيعَةٌ وَمِنَ الشَّمُومِ النَّاجِعَاتِ دَوَاهُ

فَإِنْ قَامَتِ الْحَرْبُ الدَّفَاعِيَّةُ الْمُشْرُوَّةُ وَقَدْ اسْتَحْكَمَتِ أَسْبَابُهَا ، وَجَبَ الْقِتَالُ
فِي رِبْعَةِ الْجِهَادِ
عَلَى النَّاسِ كَافَّةً ، وَأَصْبَحَتْ فِرِيقَةُ الْجِهَادِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تُؤْدِيُ مِنْ
عَلِيِّ السَّلَامِ
وَالسَّلَامُ
صَمِيمَ الْوِجْدَانِ وَفَقَّ أَوْاصِرَ الْقِيَادَةِ الإِسْلَامِيَّةِ الْمُعْتَلَةِ فِي شَخْصٍ وَلِيَ الْأَمْرِ ،
وَعِنْدَئِذٍ تَنْجِلِي الْهَمَّ الْعَالِيَّةُ الَّتِي يَرِيدُهَا الإِسْلَامُ ، فَيَحْرُمُ النُّكُوصُ وَالْفَرَارُ
وَيُطَلَّبُ الصَّبْرُ وَالْمَصَابِرُ وَالْفِداءُ وَالْاسْتِبَالُ وَبَذْلُ الْأَرْوَاحِ وَالْأُمُوَالِ بِسَخَاءٍ ،
وَهَجْرُ الْمَنَازِلِ وَالْأُوْطَانِ فِي حَالَةِ اسْتِيلَاءِ الْعَدُوِّ عَلَيْهَا .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُؤْلِمُوهُ الْأَذْبَارَ .
وَمُنْ يُؤْلِمُهُمْ يَوْمَئِذٍ دُرْبَهُ إِلَّا مُتَحَرِّرٌ فَإِنَّهُمْ فِي هَذِهِ فَقَدْ بَاءَ بِغُضْبِ
مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَئْسُ الْمَصِيرُ » .

وَلَا يَكْافِلُ الْإِسْلَامُ النَّاسَ بِقِتَالِ عَنِيفٍ يَسْتَحْقُونَ عَلَى الْفَرَارِ مِنْهُ لِعْنَةِ اللَّهِ
وَغُضْبِهِ وَعِذَابِهِ إِلَّا إِذَا كَانَ هَذَا الْقِتَالُ حَقَّا مُشْرُوْعًا ، دَفَاعًا عَنْ أَقْدَسِ مَا يَدِينُ
لَهُ الْمُؤْمِنُ . وَهُوَ فِي هَذَا التَّكْلِيفِ يَأْمُرُ الْمُؤْمِنَ ، بِالصَّبْرِ وَالثَّباتِ وَأَلَّا يُوْلِي
الْكُفَّارَ دُرْبَهُ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ يَقْاتِلُ بِنَسْبَةٍ وَاحِدٍ لِعَشْرَةِ ! وَالْتَّكْلِيفُ بِهِذَا هُوَ
الْتَّكْلِيفُ بِالْمُسْتَحِيلِ إِنْ لَمْ يَقْتِنِيْ المُقَاتِلُ ثَمَّا الْاقْتَنَاعُ بِأَنَّهُ يَقْاتِلُ عَنْ حَقٍّ لَا يُعَلَّلُ
لِلشَّكِّ فِيهِ ، هُوَ حَقُّ الدِّفاعِ عَنِ النَّفْسِ وَالْعِقِيدَةِ حَذَّرَ مِنْ يَعْتَدُ عَلَيْهِمَا .

ولَا يَكُن فِي حَرْبٍ الْمُدْوَانُ أَن يُحْمَلَ النَّاسُ عَلَى الصَّابِرِ وَاحِدًا لِعَشْرَةِ ، وَمِنْ
يُعْرَفُونَ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا وَأَضْرَبُوا نَارَ الْحَرْبِ ؛ فَإِنَّمَا عِنْدَنَا لَا يَحْدُوْنَ مِنْ
أَنفُسِهِمْ صَبْرًا ؛ إِذَا لَا دَاعِيٌ لِالْفَدَاءِ بِالنَّفْسِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْمَوْتِ دُونَ الْحَيَاةِ .

فَتِلْكَ الْآيَاتُ الْجَلِيلَةُ الَّتِي تَحْرُّضُ عَلَى الْقَتَالِ وَالْاِسْتِبْسَالِ وَالْاِسْتِهْمَادِ
وَالتَّشْدِيدِ عَلَى الْعُدُوِّ وَمَفَاجَاهَتِهِ وَالْفَلْطَةِ عَلَيْهِ وَالْتَّرْبُصِ لَهُ ، وَسَدَّ جَمِيعَ الْمَسَالِكَ
وَالْمَنَافِذَ فِي وَجْهِهِ ، وَالَّتِي تَدْعُوا إِلَى بَذْلِ الْأَمْوَالِ وَهِيَ النَّفَوْسُ وَهِيَ الْأَوْطَانُ
فِي سَبِيلِ نَصْرِ اللَّهِ ، وَاضْحَجَّةً فِي أَنَّهَا تَحْرُّضُ عَلَى حَرْبٍ دِفَاعِيَّةً مَشْرُوْعَةً
بِشَرْعَةِ الإِسْلَامِ .

وَإِذَا يُظَهَرُ لَنَا مِنْ بَمْجُوعِ آيَاتِ الْكَرِيمِ الْوَارِدَةِ فِي الْقَتَالِ ،
وَمِنْ عَمَلِ النَّبِيِّ نَفْسِهِ فِي سُنْنَتِهِ ، وَمِنْ السِّيرَةِ وَتَارِيخِ حِرْبِهِ ، أَنَّ الإِسْلَامَ
لَا يُبَيِّحُ حَرْبَ الْاعْتِدَاءِ ، وَلَا يُحِلُّ لِلْحَرْبِ لِعَرْضِ الْحَيَاةِ الْدُّنْيَا ؛ فَعِنْدَ اللَّهِ مَعْنَامٌ
كَثِيرٌ . أَمَّا الْفَائِيَاتُ الْأُخْرَى الَّتِي يَقْاتِلُ مِنْ أَجْلِهَا النَّاسُ ، كَسِيَادَةِ عَنْصَرِ عَلَى
عَنْصَرٍ ، أَوْ شَعْبٍ عَلَى شَعْبٍ ، أَوْ اسْتِعْلَاءِ مَلِكٍ عَلَى مَلِكٍ ، أَوْ طَبَقَةٍ مِنَ الطَّبَقَاتِ
الْاِجْتِمَاعِيَّةِ عَلَى طَبَقَةٍ أُخْرَى ، أَوْ تَوْسِيعِ رَقْمَةِ مَمْلَكَةٍ ، أَوْ أَغْرِيَاضِ حَرْبِيَّةٍ
وَاسْتَرَاطِيجِيَّةٍ ، أَوْ الأَغْرِيَاضِ الْاِقْتَصَادِيَّةِ ، أَوْ الْاِسْتِثْنَارِ بِالْمَوَادِ الْخَاصَّةِ وَالْاَسْوَاقِ
الْتِجَارِيَّةِ ، أَوْ تَعْدِينِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْخُضَارَةِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكِ مَا تَعْتَدِنَهُ الدُّولَ وَسَيْلَةُ
لِإِشْعَالِ الْحَرْبِ وَنَفْضِ الْعَهْدِ وَهَدْنَمِ السَّلْمِ الدَّاعِيَةِ ، فَلِيُسَذِّلَ ذَلِكَ كَلَهُ فِي شَيْءٍ مَا
أَبَاحَ الإِسْلَامُ الْقَتَالَ لِأَجْلِهِ ؛ ذَلِكَ لَأَنَّ غَلَيْاتِ الإِسْلَامِ إِنْسَانِيَّةٌ سَاوِيَّةٌ يُعْمَلُ بِهَا
النَّاسُ جَيْعَانًا ، وَنَظَرُهُ غَلُوْيَّةٌ تَقْعُدُ عَلَى الْبَشَرِ جَيْعَانًا كَأُشْرَكَةٍ وَاحِدَةٍ مُتَكَافِلَةٍ . وَاللَّهُ
تَعَالَى لِيَسْ رَبُّ الْمُسْلِمِينَ وَحْدَهُ ، بَلْ رَبُّ الْعَالَمِينَ . . .

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَاْرُفُوا .
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ» «كَلَمَكُمْ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ» «وَلَا تَقُولُوا لِيَنْ
أَنْقِ مَإِيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرْضَ الْحَيَاةِ الْدُّنْيَا» «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ

الْحَرْبِ الْمُجْوَمِيَّةِ
لَا يَبِعُهَا
الْإِسْلَامُ

الْحَرْبُ لِأَغْرِيَاضِ
مَادِيَّةٍ غَيْرِ
مَشْرُوْعَةٍ

الذين لم يقاتلكم في الدين ، ولم يخرج جوكم من دياركم أن تبروهم وتفسروا
إليهم إن الله يحبّ المُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتلوكُمْ فِي الدِّينِ
وأَخْرَجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وظَاهَرَوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلُّهُمْ . وَمَن يَتَوَلُهُمْ
فَأُولَئِكُم هُمُ الظَّالِمُونَ . «إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتلوكُمْ فَإِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ
كُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلٌ» .

فَالإِسْلَامُ عَلَى اسْتِعْدَادِ دَائِمٍ لِعِقَدِ اتِّفَاقَاتٍ مُنْوَعَةٍ مَعَ جِيرَانِهِ وَالْأَمْمَ الْأُخْرَى
مُضْرورةً بِنَدْرَهَا تَكْفِلُ دَوَامَ السَّلْمِ ، وَلَا تَكْافِلُ هَذِهِ الْأَمْمُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَهَا رَغْبَةٌ
حَقِيقِيَّةٌ فِي السَّلْمِ ، وَنِيَّةٌ صَادِقَةٌ لِلوفَاءِ بِالْعِهْدِ ، وَهُوَ مَعَ هَذِهِ الرَّغْبَةِ الْأَكْيَدَةُ
فِي دَوَامِ السَّلْمِ لَا يَسْتَعْجِلُ الْحَرْبَ وَلَا يَيْغَرِّبُ بِهَا ، بَلْ يَقِيمُ حُجَّتَهُ وَيُسْطِعُهُ
لِمُنَازِعِهِ وَلِمُنْذِرِهِ ، وَيَضْعُمُ أُمَّامَهُ الْمُخَارِجَ مِنْ مَأْزَقِهِ ، فَإِذَا عَانَدَ وَأَبَى إِلَى قِتَالِهِ
وَأَصْرَرَ عَلَى عُدُوانِهِ ، كَانَ الْحَرْبُ ، وَكَانَ ذَلِكَ التَّحْرِيَضُ عَلَيْهَا وَالْاسْتِبَالُ
وَالْفَتْكُ عَنِ اعْتِدَى ، وَالصَّبْرُ وَالْمُصَابَرَةُ وَالْبَذْلُ وَالتَّضْحِيَّةُ وَالْمُهْجَرَةُ وَكُلُّ
مَا يَنْطُوِي عَلَيْهِ الْفِدَاءُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ مَمَاجَاتٌ بِهِ الْآيَاتُ الْجَلِيلَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا
بَعْضَهَا ، وَالَّتِي يَتَخَذُّهَا بَعْضُ النَّاسِ ، وَخُصُومُ الإِسْلَامِ وسِيلَةٌ لِتَصْوِيرِ الدُّعَوَةِ
الْمُحْمَدِيَّةِ بِأَنَّهَا دُعَوةٌ دَمَوْيَّةٌ جَعَلَتِ الْحَرْبَ عَنْصُرًا دَائِمًا لِقَهْرِ النَّاسِ وَاستِباحَةِ
أُمَوَّالِهِمْ وَأَنْقَسْهُمْ .

فَالدُّعَوَةُ الْمُحْمَدِيَّةُ وَاضْحَى النَّهْجُ مُسْتَقِيمُهُ ، ابْتَدَأَتْ بِتَحرِيمِ الْقِتَالِ ، فَلَمَّا
ظُلِمَ أَهْلُهَا وَاسْتَحْالَ ظُهُورُهَا بِغَيْرِ دَفْعَ القُوَّةِ بِالْقُوَّةِ ، أَبَاحَتْهُ ، فَلَمَّا أَذَنَتْ بِهِ
أَمْرَتْ بِأَنْ يَكُونَ عَلَى أَكْمَلِ وجْهِ يَؤْدِي لِلنَّصْرِ ، فَلَمَّا كَانَ لَهَا النَّصْرُ نَادَتْ بِأَنْ
«لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ» .

وَهِيَ دُعَوَةٌ مُوقَّةٌ تُواجهُ الْحَقَّ بِالْحَقِّ وَبِالصَّرَاحَةِ وَالْإِخْلَاصِ . فَإِذَا مَأْهُلُ
الشَّرِّ لَا يَرِيدُونَ إِلَّا شُرًّاً فَإِنَّمَا يَظْلِمُ النَّفْسُ أَنْ يَصْبِرَ النَّاسُ عَلَى الضَّيْمِ ، وَأَنْ
يُسْتَضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ .

«إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ، قَالُوا فِيمَا كُنْتُمْ؟ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ. قَالُوا أَمْ تَكُنُ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَمَهاجِرُوا فِيهَا؟ فَأَوْلَئِكَ مَا وَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا. إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلَدَانِ لَا يُسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأَوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ».

فَكَانَ الدُّعَوَةُ الْمَحْمَدِيَّةُ بَعْضَتْ أَتَبَاعَهَا فِي الْمَدْوَانِ إِذْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»، أَمْرَتْ كَذَلِكَ بِالْمُهْجَرَةِ عَنِ الْأَوْطَانِ، بَلْ بِالْاسْتِهْمَادِ وَالْمَوْتِ دُونَ قَبْوُلِ الذَّلِّ وَالْهُوَانِ.

الحرب لنصرة المظلوم

مبدأ شريف في الجاهلية والإسلام — قصة حلف الفضول — حلف من غرب فيه دائمًا — لا تحالف في الإنم والمدوان — وصايا فرآنية بالعدالة المثالية — حرب أخرى مشروعة — حلف جاهلي آخر يحدد بروح إسلامية — المسيحية والعرب — اختلاف المسلمين فيما — الحرب العادلة عند بعض المسلمين — لجوء المسلمين إلى شيء بالنظرية الإسلامية .

مَا يَشْرِفُ الدُّعَوَةُ الْمَهْمِدِيَّةُ أَنَّهَا أَبَاحَتِ الْقِتَالَ ، بَلْ جَعَلَتِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ
لِرَدِّ الظَّالِمِ وَدَفَعَ الْمَدْوَانَ عَنِ الْمُضْعِفِ ، سَوَاءً أَكَانَ فَرْدًا أَمْ جَمَاعَةً ، رَغْبَةً مِنْهَا
فِي إِقَامَةِ صَرْحِ الْعَدْلِ الَّذِي يَرِيدُهُ اللَّهُ عَلَى الْأَرْضِ .

وَقَدْ جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَدِّ الظَّالِمِ ، كَمَا جَلَسَ لِذَلِكَ خَلْفَهُ
مِنْ بَعْدِهِ ، وَيَدِهِ سُلْطَانُ الدُّولَةِ لَقَهُ الْمُعْتَدِي وَدَفَعَ الظُّلْمَ .

وَأَفَرَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (حَلْفُ الْفَضُولِ) ، وَهُوَ ذَلِكُ الْحَلْفُ الَّذِي عَقَدَ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ ، وَقَالَ لَوْ دُعِيْتُ إِلَيْهِ فِي إِسْلَامٍ لَأَجْبَرُ .

وَسَبَبَ ذَلِكُ الْحَلْفُ أَنْ رَجُلًا مِنَ الْمَنِ قَدِمَ مَكَّةَ بِضَاعَةً ، فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ
رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَهْمٍ ، قَبِيلَ إِنَهِ الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ ، وَامْتَنَعَ بِسُلْطَانِهِ عَنِ الْيَدِ فَدَفَعَ
لِلرَّجُلِ ثُمَّ بِضَاعَتِهِ ، أَوْ يَرُدُّ إِلَيْهِ مَا لَهُ ، فَقَامَ الرَّجُلُ بِجُوارِ الْكَعْبَةِ وَصَرَخَ
بِأَعْلَى صَوْتِهِ :

بِالْقُصْيِّ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتِهِ بِيَطْنِ مَكَّةَ نَافِي الدَّارِ وَالْفَرِّ

فَقَامَ نَفْرٌ مِنْ قَرِيشٍ وَرَدَوْا عَلَيْهِ مَا لَهُ ، ثُمَّ اجْتَمَعَ بَنُو هَاطِمٍ وَالْمَطَّلِبِ
وَأَسْدٌ بْنُ عَبْدِ الْعَزِّيِّ وَزُهْرَةُ ابْنِ كَلَابٍ وَتَيمُّ بْنُ مُرَّةَ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
جُدْعَانَ وَتَحَالَفُوا عَلَى رَدِّ الظَّالِمِ وَإِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظُّلْمِ . وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمْ ، وَسَنَّهُ وَقَتَّلَذْ خَمْسًا وَعِشْرُونَ سَنَةً ، وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ

حِلْفَ الْفَضُولِ يَقُولُ «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَذْعَانَ حِلْفَ الْفَضُولِ، أَمَّا لِوَدُعْتُ إِلَيْهِ فِي الإِسْلَامِ لَأَجْبَرَ، وَمَا أَجْبَرَ أَنْ لَيْ بِهِ مُخْرَ اللَّنَّ وَأَنَّى تَقْضِيَتُهُ، وَمَا يَرِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شَدَّةً».

فَإِذَا قَدْ أَفْرَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِلْفًا تَعَاهَدَ فِيهِ طَائِفَةٌ مِّنَ النَّاسِ عَلَى الْقَتْالِ لِنَصْرَةِ الْمُظْلُومِ وَقَالَ إِنَّهُ يَفْضُلُهُ عَلَى خَيْرٍ مَا فِي دُنْيَا.

وَبِذَكْرِ أَصْبَحَتِ الدُّولَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِكَافَةً شَرِعاً بِرْدَ الْمُظْلُومِ، بَلْ وَالْقَتْالِ لِنَصْرَةِ الْمُظْلُومِ.

وَنُسْطَبِيعُ إِذَا أَنْ تَقْرَرَ أَنَّ الْإِسْلَامَ الَّذِي أَبْاحَ الْحَرْبَ لِلْأَسْبَابِ الْوَارِدَةِ فِي الْآيَةِ الْجَلِيلَةِ: «أَذْنَ لِلَّذِينَ يَقْاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِ لَقَدِيرٌ». وَمَا بَعْدَهَا — وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ — يَبْيَحُ الْقَتْالَ كَذَلِكَ لِنَصْرَةِ الْمُظْلُومِ فَرِداً أَوْ جَمِيعاً، مُسْلِمًا أَوْ غَيْرَ مُسْلِمٍ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي نَزَّهَهُ اللَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ضَلَالَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْذِ صِبَّاهُ قَدْ اشْتَرَكَ فِي حِلْفِ الْفَضُولِ قَبْلَ بَعْثَتِهِ، وَأَفْرَقَهُ فِي الْإِسْلَامِ، وَقَالَ إِنَّ الْإِسْلَامَ لَا يَرِيدُهُ إِلَّا شَدَّةً.

فَكَانَ الْحَرْبُ تَقْعُدُ الدِّفاعَ عَنِ النَّفْسِ مِنْ مُظْلُومٍ ضَدَّ ظَالِمٍ، إِنْهَا تَقْعُدُ كَذَلِكَ مِنْ قَوْيَى عَلَى قَوْيٍ لِنَصْرَةِ مُظْلُومٍ لَا يَنْتَمِي لِأَحْدَهُمْ. وَإِذَا يَحُوزُ لِدُولَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ أَنْ تَتَحَالَّفَ مَعَ دُولَةٍ أَوْ دُولَيْ أُخْرَى لِدُفْعِ الْاعْتِدَادِ وَالْظُّلْمِ عَنِ الْمُظْلُومِينَ.

فَازْتِبَاطُ مِصْرَ كَدُولَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ فِي مِيشَاقِ (هِيَثِةِ الْأَمْمِ الْمُتَحَدَّةِ) مِثْلًا لَا يَضُرُّ فِيهِ مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّرِعِيَّةِ. وَمَنْ قَسَّى حَسَنَتْ النَّيَّةَ وَكَانَ المِيشَاقُ قَاعًا عَلَى حُبِّ الْخَيْرِ وَالْمُعْدُلِ وَالْإِنْصَافِ وَحِمَايَةِ الْمُظْلُومِ وَمَنْعِ الْاعْتِدَادِ بِالْقُوَّةِ إِنَّهُ يَكُونُ مِيشَاقًا مُرْغُوبًا فِيهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، حَكْمُهُ حَكْمُ حِلْفِ الْفَضُولِ الَّذِي لَا يَرِيدُهُ

حَلْفٌ مَرْغُوبٌ
فِيهِ دَائِماً

الإسلام إلاً توثيقاً وشدةً ، والذى كان من أحب الأشياء إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما إذا كانت المواثيق للتعاون على الظلم ولقهر المغلوبين واستباحة المستضعفين ، فإن الإسلام يعدها تعاوناً على الإثم والمدعوان الذي ينهى عنه ، وبعداً عن التقوى والبر الذي يدعوه إليه . قال تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تماوِّلُوا على الإثم والمدعوان ». والأعمال في الإسلام كلها مرجعها النية فهي التي تصلحها أو تفسدُها ، والعبرة فيها بما تقصدُ إليه من خير ، وما تريده من العدل الذي هو أساس نظم الأخلاق كلها . يقول تعالى « والسماء رفعتها ووضعَ الميزان » ويقول تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا فوَّادين بالقسط شهداء الله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » إلى آخر الآيات التي ذكرناها في فصل سابق .

فكتاب الله وسنة رسوله وأئمة المسلمين متفقون على أن العدل هو غاية الشرعية . وعليه فإن القتال لنصرة المظلوم من عباد الله هو أمر يستحق ثواب الله ، وللدولة المسلمة أن تعلن الحرب وهي في حدود الشرعية ما دام مقصدها الإنصاف ودفع الظلم عن الغير .

وفي نظري أن هذه هي الحالة الوحيدة التي تكون فيها الحرب مشروعة ولو لم تكن دفاعية بالنسبة بجماعة المسلمين الذين هم في مسْنَة بقوتهم عن أن يعتدي عليهم .

وعلى هذا الأساس يجوز للدولة الإسلامية كما قلنا أن تشارك في ميثاق كيشاك (هيئات الأمم المتحدة) أو ميثاق (كيلوج) مثلاً متى ثبت لها أن ذلك يقيم العدل بين الناس ، كما أن لها أن تدعوا إلى ميثاق أو حلف لردع المظالم وإنصاف المستضعفين .

وليس لها بالطبع أن تقاتل أو تشارك في قتال تُدعى إليه ما لم تتبين

بِكِيفيَّةٍ لَا مُحْلٌ لِّرِيبٍ فِيهَا أَنْهَا تَقَاتِلُ دُفَاعًا عَنِ النَّفْسِ ، أَوْ دَفْعًا لِّظْلِمٍ بَيْنِ يَعْمَلْ

عَلَى مُسْتَضْرِخٍ مُسْتَضْعِفٍ لَا يَكُونُ الْعَدْلُ وَالْإِنْصَافُ إِلَّا بِإِغْاثَتِهِ وَنَصْرَتِهِ ،

كَالْحَالَةِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا فِي حَلْفِ الْفُضُولِ .

وَإِلَيْكُمْ حِلْفًا آخَرَ عُقْدَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَجُددَةً فِي الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ بَيْنُ فِي إِبَاحةِ
حَلْفِ جَاهِلِيَّةٍ آخَرَ
بِمُسْدِدِ بِرْوَحِ
إِسْلَامِيَّةٍ

الْحَرْبِ لِنَصْرَةِ الْمُظْلُومِ ، وَبَيْنُ فِي مُنْعِ التَّعَاوُنِ عَلَى الْبَاطِلِ وَالْأَعْتَدَاءِ .

فِي هَذِهِ الْجُهْدِيَّةِ بَيْنَ قَرِيشٍ وَالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ الشَّرْطُ
الرَّابِعُ مِنْ شُرُوطِ الْمَهْدَنَةِ « أَنْ مَنْ دَخَلَ فِي عَهْدِ قَرِيشٍ دَخَلَ فِيهِ ، وَمَنْ دَخَلَ
فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ دَخَلَ فِيهِ » وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الشَّرْطِ تَحَالَّفَ بَنُو بَكْرٍ مَعَ قَرِيشٍ ،
وَتَحَالَّفَ خُزَاعَةً مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكَانَتْ قَبْلَهُ خُزَاعَةُ حَلِيفَةً فِي
الْجَاهِلِيَّةِ لِعَبْدِ الْمَطَّالِبِ جَدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَرَادَتْ خُزَاعَةُ أَنْ يَكُونَ
مِيَاثِيقُهَا مَعَ الرَّسُولِ مُحَمَّدًا كَمَا كَانَ مَعَ آبَائِهِ .

وَهَذَا نَصُّ مُحَافَفَتِهَا مَعَ عَبْدِ الْمَطَّالِبِ « بَاشِكُ اللَّهُمَّ هَذَا حَلْفُ عَبْدِ الْمَطَّالِبِ
ابْنِ هَاشِمٍ لِّخُزَاعَةٍ حِلْفًا جَامِعًا غَيْرَ مُفْرَقٍ ، الْأَشْيَاخُ عَلَى الْأَشْيَاخِ ، وَالْأَصْغَرُ
عَلَى الْأَصْغَرِ ، وَالشَّاهِدُ عَلَى الْغَائِبِ ، وَقَدْ تَعاهَدوْنَا وَتَعاهَدوْنَا أَوْ كَدَ عَهْدٍ وَأَوْتَقَ
عَقْدًا لَا يُنْقَضُ وَلَا يُنْكَثُ مَا قَامَ الْأَخْشَبَانِ (جَبَلَانَ بَنَكَهُ) وَاعْتَمَرَ عَكْ إِنْسَانٍ .
وَإِنْ عَبْدَ الْمَطَّالِبَ وَوَلَدَهُ وَرَجَالَ خُزَاعَةَ مَتَضَافِرُونَ يَتَعَاوَنُونَ ، وَعَلَى عَبْدِ الْمَطَّالِبِ
النَّصْرَةُ لَهُمْ ، وَعَلَى خُزَاعَةِ النَّصْرَةِ لِعَبْدِ الْمَطَّالِبِ وَوَلَدِهِ عَلَى جَمِيعِ الْعَرَبِ فِي شَرْقٍ
وَغَربٍ وَحَرْبٍ وَسَهْلٍ ، وَجَعْلَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ شَهِيدًا وَكَفِيلًا وَكَيْلًا » .

فَأَقْرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُصُوصَ هَذِهِ الْمُحَافَفَةِ وَجَدَّدَ عَهْدَهَا ؛ غَيْرُ
أَنَّهُ زَادَ فِيهَا شَرْطَيْنِ : الْأَوْلُ الْأَيْمَنُ خُزَاعَةً إِذَا كَانُوا ظَالِمِينَ ، وَالثَّانِي أَنْ
يَنْصُرَ خُزَاعَةً إِذَا ظَلَمُوهَا ، وَبَعْدَ أَنْ زَادَ هَذِينِ الشَّرْطَيْنِ كَتَبَتْ نُسْخَتَانِ مِنْ
هَذِهِ الْمُعَاہَدَةِ تَسَلَّمَ كُلُّ طَرَفٍ نُسْخَةً مِنْهَا .

لَمْ تَكُنْ خُزَاعَةً وَقَبَّذِيْ قدْ أَسْلَمَتْ بَلْ كَانَتْ لَا تَرَالٌ عَلَى شَرْكَهَا ، وَكُلُّ

ما بينها وبينَ الرسولِ هو تلك العدالةُ الجاهليةُ التي كانت مع جده ، وكان أسماؤها تحالفًا على الحقِّ والباطلِ . فشرّطَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم في هذه المحالفات يدلُّ على عدةِ أشياءٍ .

أولاً — أنه لا يقرُّ المحالفات على أساسِ تعاونِ غير معيّنٍ قد يجرُّه إلى باطل ، وهو الذي بعثه الله لإقامةِ العدلِ ، بل اشترط فيها صراحةً الآئمَّةِ خزاعةَ حليفَةَ إذا كانت ظالمةً .

ثانياً — أنه لا يتعنّى عن نصرةِ مظلومٍ ولو كان مشركاً .

ثالثاً — أنه تعهدَ بنصرةِ هذا المظلومِ ولو أنه مشركٌ مخالفٌ في الدينِ .

رابعاً — أن أساسَ الحربِ المشروعة هي الحربُ الدفاعيةُ ، سواءً كانت هذه الحربُ دفاعاً عن النفس أم دفاعاً عن طرف ثالث يستحقُ النصرة ، وهي مباحةٌ في حالة عدم الالتزام بها وواجبةٌ في حالة الملاسنة حالة خُزاعةً ، إذا كانت نصرةِ معاهديِّ مظلومٍ .

لقد حاولت بعضُ الأديانِ الأخرى قبل الإسلام أن تخففَ من ويلاتِ الحربِ ، وأن تضمنَ من يشرّها وأن تحذرُ منها ، حاولت محاولاتٍ صادقةٍ ولكن مع الأسف قد طفت طبيعةُ الشرِّ .

جاءت المسيحيةُ بتحريمِها للحربَ بتاتاً بقولِ السيدِ المسيحِ عليه السلام السجنة وال الحرب في إنجيلِ متى «أَمَا أنا فأُقُولُ لَكُمْ لَا تقاوموا الشَّرَّ بالشَّرِّ ، بل من لظمك على خذك الأعنِّ خوْلٌ له الآخرَ أيضاً ، ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه ميلينَ» .

ويستندُ كذلكُ أنصارُ الرأي القائل بتحريمِ الحربِ تحريماً مطلقاً إلى قولِ المسيحِ عليه السلام للقديس بطرس «أَعْدُ سيفك إلى مكانه؛ لأنَّ كُلَّ

الذين يأخذون السيف بالسيف، يهلكون» وعلى هذا تكون المسيحية تحرّم.
الحرب بل التسلیح أيضا.

ولكن المسيحيين اختلفوا فيما بعد؛ فبينما كان رجال الكنيسة الفريدة
في القرون الأولى للمسيحية يقاومون بكل سلطانهم الحرب حتى ولو كانت
دفاعاً عن النفس، فإن رجال الكنيسة الشرقية في بيزنطة قد خلطوا بين
شخص الإمبراطور سيد العالم وبين الرئاسة الدينية، فجاءوا في ذاته سلطان
الله وسلطان الدولة، وسارت بيزنطة في طريق مخالف تماماً لرأي رجال
الكنيسة الفريدة، فلم تكتف بتحليل الحرب التي حرمتها المسيح، ولا هي
أخذت طريقاً وسطياً فأحالتها للدفاع عن النفس أو نصرة المظلوم كما فعلت
الشريعة الحمدية، ولكنها رضيت أن يكون حق إعلان الحرب حقاً
مطلقاً للإمبراطور، لا يحده إلا المصلحة التي يراها ذلك الإمبراطور جامعاً
كل السلطات.

لقد كان ظهور المسيحية في العصور الأولى خيراً وبركةً على البشر،
فقاومت أصول الشر في قومنا أتباع المسيح، وصانت دماء غزيرةً كان يُريقها
السلب والنهب والعدوان والطغيان. ولا شك أن المسيحية استمرت طويلاً
تكافح إلى أن نسي الناس دين المسيح ودعوه، وأقاموا من شهواهم
وأغراضهم ومصالحهم كل الأسباب لحروب الطغيان التي اكتوى البشر
بنارها في الشرق والغرب طول المصور الوسطى وما بعدها إلى يومنا هذا.

ولقد بذل رجال من المسيحيين حياتهم في سبيل المساكِ بتحريم الحرب
بل تحريم صناعة الجندية، وبذل آخرون جهوداً جباراً في سبيل التوفيق بين
نص الإنجيل وضرورات الدولة، فخرجوا بالتفريق بين الحرب المباحة وال الحرب
المنوعة، وأثاروا البحث فيما هي الحرب العادلة؟ فددوها بأن يعلّمها الأمير،

الخلاف
المسيحيين

الحرب العادلة
عند بعض
المسيحيين

وأن تكون عادلة ، واشترطوا فيمن يعندها أن يكون سليم النية صادقا بلا طمع ولا وحشية .

والحرب في نظر هؤلاء المصلحين من المسيحيين تعتبر وسيلة لتنفيذ حكم عادل قضى به قاض ، فلا تبعتها الأنانية وإنما يحدوها العدل وتلبسها الرحمة .
ولا يسمح المقام بسرد النظريات المسيحية وتطورها ، فيمكن للراغبين في التفصيل الرجوع إليها في مراجعتها .

ولكنا نستخلص من ذلك الجدل وتلك الأبحاث ، بعد أن دامت أكثر من ألف سنة ، أنها اهتدت إلى مبادئ هي أشبه شيء بالقواعد الإسلامية للحرب المشروعة وال الحرب العادلة التي أشرنا إليها في هذا الفصل وما قبله .

وفي اعتقادى أن القواعد الإسلامية هي الأسس الصحيحة التي جمعت بين ما يقتضيه إقامة صرح العدل العالمي ، وما يقتضيه الرحمة والأخوة البشرية ، وما يقتضيه الإنفاق وكبح أهواء التفوس الشريرة ، وما يقتضيه صون الدماء وإقامة السلم الدائمة على حرمة مقدسة .

لذلك فإني أدعو ذوى البصيرة والنظر لاستمداد الشريعة الحمدية في وضع نظام للعلاقات الدولية والسلم العالمي : فعلى ضوء المبادئ السامية العملية التي دعا إليها محمد صلى الله عليه وسلم يمكن تجديده ميثاق جامعة الأمم ، ويعكس اجتناب اتخاذ الحرب وسيلة لتحقيق الأغراض والمطامع البشرية .
« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

ولتكن روح هذه الآية الكريمة روح الميثاق الدولي :
وإن طائفتان من المؤمنين اقتتاوا فأصلحوا بينهما ، فإن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتَلُوهُنَّا لَتَقُولُوا إِنَّمَا أَمْرُ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوهُنَّا بِالْمُدْلُولِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » .

ولا شك أن هذا النظام للمؤمنين يمكن أن يكون نظاماً للناس جميعاً،
ويكون للدول الإسلامية أن تتعاهد عليه، وأن تقاتل لاحترامه ورد من
ينتهك حرمته.

«وبعد» فالحرب لنصرة المظلوم لا يراد بها أغراض دنيوية ولا تحقيق مطامع دولية، ولا شفاه حسداً أو حقد، وإنما تقع الحرب لتحقيق الحق ودفع الباطل. وهي حالة ظاهرة التدخل بين طرفين آخرين والاعتداء على أحدهما لنصرة الآخر، إلا أن حقيقتها الدفاع، لأن المقصود منها رد العداوة عن مستضعف. وإذا اعتبرنا أن التكافل البشري سبب القرآن، وأن العدل أساسه، فاتجاهه بين المعتدى وبين نقض أساس القرآن هي دفاع عن القرآن نفسه، وهو على هذه الصورة دفاع حتى عن المعتدى ينتفعه من شر نفسه. وإذا قيل إن هذا يأذن بالتدخل المستمر في شئون الغير، والتدخل اعتداء من الدولة الإسلامية، وقيل إن الدولة غرضها نفسها، وليس لها أن تقيم من نفسها شرطياً عالمياً، فلنا إن هذه هي الحالة الوحيدة في نظرنا، وهي مبررة، وإن العالم يحسن من أعمق نفسه الحاجة إلى من ينصف المستضعف، وإن الدول الأوروبية بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً من حلف الفوضول وحلف خزانة، حاولت أن تقيم في ميثاق عصبة الأمم عهداً مما لا لما أراده الإسلام من نصرة المظلوم، فأقررت مبدأ التدخل الإيجاري للسلامة الاجتماعية، ولا إحقاق الحق وإزهاق الباطل. والعبرة في الأفعال بالنية، فهي التي تصلح الأفعال أو تفسدها. ولا شك في حسن نية الدولة الإسلامية ما دام الاعتداء على التدخل الذي يجرؤ إلى الحرب هو ما يوصى به الضمير، وتستلزم منه العقيدة من غرض سامي يقصد به وجه الله وحده وإحقاق الحق.

نصرة المظلوم
ضرب من
التكافل

أدب الحرب

الحرب والرق والقضاء عليهم تدريجياً — أدب عام وأدب خاص —
بين الإنذار والبالغة — حماية حقوق المستأنن المتدو — من مساحة
النهاء — وائل بن عطاء والخوارج — مسألة غير الحاربين — الغارات
المصرية على الأتنيف — فرار إلى وسايا الرقة في الأديان — التغريب
الداهري — حوادث ونحوها — نظرات في أحكام الأسر والاستراق —
حادثة بي قريطة ونحوها بعض طرائفها — لا قيل بسبب الفرك أو السكر
وحده — احترام النفس البشرية لا يُعرف الشخصين — آداب أخرى للحرب

أجازت الدعوة الخمدة الحرب في أضيق نطاق كاً تقاضت عن الرق لأنه
الحرب والرق
كان أيضاً نظاماً عالياً، وعملت تدريجياً على منع الحرب ومنع الرق بأساليبها
والقضاء عليهم
تدريجياً
المختلفة، وجعلت القاعدة العامة بالنسبة للأسير الفتن أو النساء، فصار تشريعها
العام بالنسبة للأسير مائماً للرق . وبالخصوص بجميع الوسائل على تحرير
الرقيق، وتحصيص سهم من الزكاة لفك الرقاب ، وبالإحسان إليه وفقاً
لآداب خاصة تستلزمها الشريعة ويستلزمها الوراء ، قاومت الدعوة الخمدة
الرق مقاومة كانت بالتدريج أفعال في هيئة الضمير البشري للقضاء عليه من
المفاجأة بالتحريم البات .

كذلك الحرب ، جاءت الدعوة الخمدة والقتال نظام عام متصل في
نفوس البشر وفي حياتهم الاجتماعية ، فلم يبدأ الإسلام بتحريمها ، ولكنه
حصرها في دفع العدوان ونصرة المظلوم خدد أغراضها ، ثم أمر بوقفها مجرد
جنوح الخصم إلى السلم ، وأنهها بالمهود والموافق التي لها حرمة الإيذان ،
حتى جعل حق الميثاق فوق حق صلة الإسلام ، فأحاط الحرب بحدود ونظم
وأسباب وأغراض وعهود وعرف في أثناء القتال ، مما يقلل وقوتها ويخفف

من ويلها . ولو أن المسلمين وفقو في هذه كا وفقت الدعوة الحمدية في مقاومة الرق لشمل العالم سلام دائم كا شمله اليوم النفور من الرق . وإنما نرجو أن تدرك هدفها في مصر الآتى ، وقد طنى شر الحرب إلى درجة غير مسبوقة .
ولا يزال أمام العالم مجال إذا اهتدى بهدى الإسلام .

أدب عام وأدب خاص الإنذار اهتمامها بالنزاع الذى تنوى الحرب من أجله ! عرفت الدعوة الحمدية الحرب شرًا واقعًا متأصلة فأحاطتها بأدب عام من تعين غرضها ، وحضرها في دفع العدوان وحماية حرية العقيدة ، وإنماها بالمهود المصنونة العادلة ، وإحاطتها كذلك بأدب خاص في أثناء الحرب فسما ، وفيما يجب أن يكون بين المتحاربين من عزف يرعونه ؟ ففي وقع بين المسلمين وغيرهم ما يستوجب الحرب ، وجب على المسلمين أن ينذرُوا عدوهم بذمته ، ويُنهِلوه للردة والتفاه إن أراد . وقد قال بعض الفقهاء إن هذه المهمة التي تعقب ما يسمى اليوم بالإذنار النهائي يجب أن تكون كافية ليُخبر العدو بها أطراف أهل ودولته ، وهو أدب يتفق مع القانون الدولي الحديث . ولكن بعض الدول في هذا العصر تختار المبالغة بالحرب والهجوم على الخصم من غير إذنار ، بل قد بلغ من احتياط بعضها لتمكن من تمام المواجهة للدولة الأخرى أن تظاهرة بالرغبة في دوام السلم ، وأكثر من ذلك أن تحظى غضبها وظهور عدم اهتمامها بالنزاع الذى تنوى الحرب من أجله !

أفقن أهل الحضارة الحمدية في الحديمة إلى درجة غير مسبوقة في تاريخ الأمم ، حتى صاروا يعتقدون عهوداً المقصود منها تفويض المعاهد وطمأناته ، حتى تكون مباغته وأخذها على غرفة كاملة .

ذلك أدب جديد ، أو سوء أدبٍ جديد في الحروب ، ليس أبغض إلى الإسلام منه ، والشريعة الحمدية تأبه روحًا وفعلًا ، وتعد فاعله آنما مستحقًا غضب الله .

والشريعة الإسلامية بعد أن تُنذرَ أَنْهُمْ بِالحرب ، وبعد أن تقطع الحجّة ،
 لا تلْجأُ إلَى مِثْلِ مَا تلْجأُ إِلَيْهِ الدُّولَ فِي الْعَهْدِ الْحَاضِرِ مِنْ مُفاجَأَةِ الْمُسْتَأْمِنِينَ فِي
 دِيَارِهِمْ مِنْ رِعَايَا الدُّولَةِ أَوِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي أَعْلَمْتُ عَلَيْهَا الْحَرْبَ ؛ فَلَمْ يُسْتَأْمِنْ فِي الشَّرِيعَةِ
 الإِسْلَامِيَّةِ حُقُوقَ لَا يَعْكُنُ الْعُدُوَانُ عَلَيْهَا الْجُرْدَ وَقَوْعَ الْحَرْبِ بَيْنَ قَوْمَهُ
 وَالْقَوْمِ الَّذِينَ يَنْزِلُونَ دِيَارَهُمْ ، أَوْ يَقْعُدُونَ فِي مُتَنَاقُولِ سُلْطَانِهِمْ ، فَلَا يَحُوزُ الْاعْتِدَاءُ
 عَلَيْهِ عَصَادِرَةِ مَالِهِ ، أَوِ الْإِضْرَارُ بِعَمَلِهِ أَوْ شَخْصِهِ ، وَلَهُ كُفَالَةٌ كُلُّ ذَلِكَ حَقٌّ
 يُسْهِيْلُهُ الْمُوْدَدُ إِلَى وَطَنِهِ الْأَصْلِيِّ وَيَدْخُلُ فِي حَمَاهَةِ قَوْمِهِ . عِنْدَئِذٍ وَعِنْدَئِذٍ
 فَقْطَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا يَجْرِي عَلَى الْمُحَارِبِينَ ، وَذَلِكَ بِنَعْنَقِ الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى
 (وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلُغْنَهُ مَا مَأْمَنَهُ)
 وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حِرْصِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى احْتِرَامِ حَقِّ الْمَقِيمِ فِي دِيَارِهِمْ وَالنَّازِلِ بِهَا عَنْ
 رِضَاِهِمْ قَبْلَ الْحَرْبِ أَوْ حَتَّى أَنْتَهَا الْحَرْبُ ، أَنْ قَرَرَ فَقَهَّاً مِنْ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى
 الْإِمَامِ إِذَا وَقَتَ لِلْمُسْتَأْمِنِ مَدَةً أَلَا يَجْعَلُ هَذِهِ الْمَدَةَ قَلِيلَةً كَالْشَّهْرِ أَوِ الشَّهْرَيْنِ ،
 فَإِنْ فِي ذَلِكَ إِلْحَاقُ الْعُسْرِ بِهِ ، خَصْوَصًا إِذَا كَانَتْ لِهِ مَعَامَلَاتٍ يَحْتَاجُ فِي اقْتِضَائِهَا
 إِلَى زَمْنٍ طَوِيلٍ . . .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِنْصَافِهِمْ هَذَا الْأَجْنبِيُّ الْمَقِيمِ فِي دِيَارِهِمْ ، وَالَّذِي يَقْاتِلُونَ أَهْلَهُ
 وَدُولَتَهُ ، أَنْ أَبْاحِوا لَهُ التَّمَتعُ بِكَامِلِ حُرْبِهِ ، كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِهِ حَرْبٌ ،
 مَا دَامَ خَاصِّاً لِأَحْكَامِهِمْ ، مُسْتَقِبِاً فِي سِيرَهِ وَعَمَلِهِ وَلَمْ يَرَكُنْ إِلَى أَذْانِهِمْ بِحَالٍ
 مِنَ الْأَحْوَالِ .

أَقَامَ الْإِسْلَامُ هَذَا الْأَدْبُرَ مَعَ الْمُسْتَأْمِنِ فِي حَالَةِ الْحَرْبِ عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ
 وَالْإِنْصَافِ . وَمَا الْحَرْبُ فِي جُلُّهَا إِلَّا تَأْتِيْجٌ مُبَاشِرَةً لِفَقْدَانِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ .

وَمِنْ أَظْرَفِ مَا قَرَأْتُهُ مَا يَدْلُلُ عَلَى مَقْدَارِ مَا لِلْمُسْتَأْمِنِ مِنْ حَرْمَةٍ ، مَارُوِيٌّ
 لِبَلْفَارِينَ وَأَصْلَى
 ابْنِ عَطَاءٍ
 وَالْخَوارِجِ

منْ أَنَّ وَاصِلَ بْنَ عَطَاءٍ (زَعِيمَ الْمُعَذَّلَةِ) وَقَعَ هُوَ وَبَعْضُ أَصْحَابِهِ فِي أَيْدِي الْخُوارِجِ ،

وَمَكَاهُو مَعْلُومٌ مِنْ أَشَدِ الْمُسْلِمِينَ تَمَسَّكًا بِأَهَادِبِ الدِّينِ وَتَمَصِّبًا فِي آرَاهِمَ ،
نَفْعِي وَأَصْحَابِهِ شَرِّمَ ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ : دُعُونِي وَإِنَّا هُوَ كَانُوا قَدْ أَشْرَفُوا
عَلَى الْعَطَبِ ، قَالُوا : شَأْنَكَ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا : مَا أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ ؟
قَالَ : مُشْرِكُونَ مُسْتَجِيرُونَ لَيَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ وَيَعْرُفُوا حَدُودَهُ . قَالُوا :
قَدْ أَجْرَنَاكُمْ . فَجَعَلُوا يَعْلَمُونَهُ أَحْكَامَهُمْ ، ثُمَّ قَالُوا : امْضُوا مُصَاحِبِيْنَ فَإِنَّكُمْ
إِخْوَانَنَا . قَالَ وَاصِلَ : لَيْسَ ذَلِكَ لَكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارِكَ وَتَعَالَى يَقُولُ : « وَإِنْ
أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكُمْ فَاجْرِئُوهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغُهُ مَأْمَنَهُ »
فَأَبْلَغُوْنَا مَأْمَنَنَا . فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ثُمَّ قَالُوا : ذَلِكَ لَكُمْ . فَسَارُوا بِأَجْمِيعِهِمْ
حَتَّى بَلَغُوْهُمُ الْمَأْمَنَ .

تَلَكَ الْقَصَّةَ تَدْلِيْلٌ عَلَى أَنَّ الْحُرْمَةَ الَّتِي لِلْمُسْتَأْمَنِ كَانَتْ فِي نَظَرِ بَعْضِ أَنْصَارِ
الدُّعْوَةِ الْمُحْمَدِيَّةِ أَعْظَمُ مِنَ الْحُرْمَةِ الَّتِي لِلْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ ، حَتَّى إِنْ أَحَدُ عَلَمَاءِ
الْمُسْلِمِينَ وَجَدَ فِيهَا خَلَاصًا لِنَفْسِهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ يَدِ مُسْلِمِينَ أَشْرَارٌ يَقْطَعُوْنَ
طَرِيقَ السَّابِلَةِ وَيَمْصُوْنَ إِلَيْهِمْ .

وَمِنَ الْقَوَاعِدِ الْأَسَاسِيَّةِ الَّتِي بُنِيَ عَلَيْهَا أَدْبُرُ الْحَرْبِ فِي الدُّعْوَةِ الْمُحْمَدِيَّةِ
ذَلِكَ الْمَبْدُأُ السَّافِيُّ ، وَهُوَ الْامْتِنَاعُ عَنِ الْحَارِبَةِ غَيْرِ الْحَارِبَيْنِ وَقَصْدِهِمُ الْأَذْيَى ؛
فَهُوَ لَا يُجِيزُ قَتْلَ الشَّيْخِ أَوِ الصَّبِيِّ أَوِ الْمَرْأَةِ أَوِ الْمَجَزَّةِ ، أَوِ مِنْ اتَّقَطَعُوا لِلْعِبَادَةِ
أَوِ الْعِلْمِ وَامْتَنَعُوا بِذَلِكَ عَنِ اِنْ يَشْتَرِكُوا فِي الْقَتْلِ ، أَوِ الْعَامَةُ مِنَ الْعِثَنَاعِ
وَالْزَّرَاعِ وَالْتَّجَارِ الَّذِينَ لَا يَقْاتَلُونَ ، أَوِ بِعِبَارَةِ أَعْمَّ ، تَلَكَ الْعَبِيقَاتُ الَّتِي نَطَاقَ
عَلَيْهَا الْيَوْمُ : الْمَدِيْنَيْنِ .

هُؤُلَاءِ الْمَدِيْنَيْنِ لَا يَجُوزُ قَتْلُهُمْ ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حِرْصِ الشَّرِيعَةِ عَلَى تَجْنِيْبِهِمْ
وَيُنْهَا الْحَرْبُ وَإِبْعَادُ شَرِّهَا عَنْهُمْ ، وَحَصْرُ الْفَرْدِ فِي الْقَوَاتِ الْمُقَاتَلَةِ أَنَّ
الْفَقِيْهَاءَ قَالُوا بِوقْفِ الْقَتْلِ إِذَا وَقَعَ بَيْنَ صَفَوْفِ الْمُقَاتَلَيْنَ مِنْ لَا يَجُوزُ قَتْلُهُ ،
وَكَانَ هَلَاكَهُ مَحْقِقاً بِالْاسْتِمرَارِ فِي الْقَتْلِ .

وَأَينْ هَذَا الْأَدْبُ وَنُبَلُّ الْفِرْوَسِيَّةِ مَا نَحْنُ فِيهِ وَمَا صَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ فِي الْحَرْبِ
الْأُخْرَى وَالَّتِي قَبْلَهَا مِنْ إِلَقَاءِ الْقَنَابِلِ عَلَى غَيْرِهِ ، تَصِيبُ النِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ
وَالْزَّرَاعَ وَالصَّنَاعَ وَالشَّيْوخَ وَالْمَجَزَةَ فَتُنَسِّفُ بَهُمُ الْأَرْضَ نَسْفًا ، أَوْ تُحْرِّرُهُمْ
وَدِيَارَهُمْ حَرْقًا؟! اِنْ هَذَا الْأَدْبُ وَنُبَلُّ الْفِرْوَسِيَّةِ مَا نَحْنُ لِوَلَاتِنَقْدِيَّةِ طَهْراً
أَيْنَ تَلَكَ الْحُرْمَةُ لِلنَّفُوسِ الْبَشَرِيَّةِ؟ وَأَيْنَ تَلَكَ النَّظَرَةُ لِلْحَرْبِ عَلَى أَنْهَا
حَكِيمٌ لِلسيفِ بَيْنَ حَامِيلِهِ وَحَدْمِهِ مِنْ هَذَا الْأَدْبِ الْحَدِيثِ الَّذِي لَا يُشَبِّهُهُ مِنْ
قُرْبٍ إِلَّا مَا قِيلَ عَنِ الْمَغْوُلِ أَيَّامَ (جَنْكِيزْخَانَ) وَمِنْ بَعْدِهِ ، مَمَّا لَا يُزَالُ مِثْلًا
فِي الْغَابِرِيَّنَ لِأَقْسَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ وَحْشِيَّةُ الْهَمْجُونَ فِي قَتْلِ غَيْرِ الْمَهَارِيَّنَ ، وَتَخْرِيبِ
الْمَدَنِ وَالْقَرَى؟!

لَيْسَ لِمَا يَأْتِيهِ الْيَوْمَ الْمُتَحَضَرُونَ يَغَارُهُمُ الْجَوَيْهُ ، أَوْ مَدْفَعَيْهِمُ الْأَرْضِيَّةُ
شَبِيهُ فِي السُّوءِ وَالْقَسْوَةِ إِلَّا مَا كَانَ أَيَّامَ ذَلِكَ الْطَاغِيَّةِ الْمَغْوُلِيَّ قَبْلَ سَبْعَةِ قَرْوَنَ ،
بَلْ إِنْ مَا يَحْدُثُ الْيَوْمَ مِنْ اسْتِبَاحَةٍ كَامِلَةٍ لِكُلِّ الْحُرْمَاتِ بِالْغَارَاتِ الْجَوَيْهِ مِنْقَطِعٍ
الْنَّظِيرِ . وَالشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تَحْرِمُهُ وَتَأْبَاهُ فِي سَاهَانَهَا وَضَعْفَهَا غَالِبَةً
أَوْ مَغْلُوبَةً . وَإِنْ أَبَاحَ الْفَقَهَاءُ الرَّدُّ عَلَى أَعْمَالِ التَّخْرِيبِ وَالتَّقْتِيلِ غَيْرِ الْمَبَاحةِ
عَثَلَهَا مَنْ أَبْتَدَأَ بِهَا الْخُصُمُ ، مَسْتَدِينَ عَلَى قَوْلِهِ تَعْمَلُ « فَنَ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا
عَلَيْهِ عَثَلٌ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » وَقَوْلِهِ « وَجَزَاهُ سَيِّئَةُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا فَنَ عَفَّا وَأَصْلَحَ
فَأَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ » فَهُمْ مِنْفَقُونَ عَلَى تَحْرِيمِ الْاِبْتِدَاءِ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ . وَوَاضِعُونَ مِنْ
نَصِ الْآيَةِ وَرُوحُهَا أَنَّ الْمَقْصُودَ الرُّذُبُ بِالْمَثَلِ لِإِنْذَارِ الْخُصُمِ وَإِقْنَاعِهِ بِالْعَدُولِ عَمَّا
اقْتَرَفَ مِنْ لَأْمَمْ . وَقَوْلُهُ « فَنَ عَفَّا وَأَصْلَحَ فَأَجْرَهُ عَلَى اللَّهِ » هُوَ تَوْكِيدٌ كَذَلِكَ
لِرَغْبَةِ الشَّارِعِ فِي أَلَا يُحَكَّبَ عَلَى أَعْمَالِ الْمُدْوَانِ الْخَالِفَةِ لِلرَّحْمَةِ وَالْأَدْبِ إِلَّا إِذَا
قَضَتِ الْفَرِودَةُ الْقَصْوَى .

أَيْنَ هَذَا الْمَرْفُ الدُّولِيُّ وَالْأَدْبُ الْحَرْبِيُّ الَّذِي تَرِيدُ تَبْيَانَهُ الدُّعَوَةُ الْمُهَمَّدِيَّةُ ،
فَتَجْمِلُهُ جَزْءًا مِنْ الْعِقِيدَةِ وَالْإِعْانَ مَا تَفْعَلُهُ الدُّولَ الْيَوْمَ مِنْ التَّعْوِيلِ عَلَى وَسَائِلِ

قتل المدينين وتخريب الماء وحرق الناس وأموالهم ونعرات الأرض لتخضع
خصوصها ونجبرهم على إلقاء السلاح !

بل أين هذا مما فعلته بعض دول الحضارة الحديثة من استخدام الأسلحة
الجوية بقنايلها ومدافعها الرشاشة لقتال بَدُو لا يملكون من وسائل الحرب
غيرَ بنادق من بقية القرن الماضي ، وتسلط هذه المدفع الرشاشة على بيوت من
الشعر ، وعلى الساعة من الإبل والغنم في صراعها !

حقاً لقد آن أن يفزع الناس إلى عقائدهم ... إلى ما جاء به موسى وعيسى
ومحمد ، لتكون للحرب حرماتٌ وآدابٌ تخفف من ويلها ، وقد كان المهج
يعرفون بعضها ويرعونه .

وأين ما نحن فيه مع شديد الأسف والحزن مما وصلت إليه الدعوة الحمدية
من الآداب في الحرب ، وتقريرها أن ليس المقصود من الحرب التكبيل
والتخريب ، بل أن تكون كلة الله هي العليا ، وكلة الله لا تكون إلا حقاً وعدلاً
 وإنصافاً شاملًا للناس جميعاً !

هذا المبدأ مبدأ الرفق والرجم حَرَمَ على المسلمين في حروبهم أن يلتجأوا
للهز عدوهم بتجويع الأمة المغاربة ، أو منع أسباب الحياة من قوت أو دواء
أو لباس من الوصول إلى غير المغاربين منها .

ولقد بلغت القسوة في الحروب الحديثة أن الجيوش إذا انسحبت من أرض
دمرت مأهولها ، ولو كان في ذلك هلاك أهلها فضلاً عن أعدائها ، وهو عمل
لا تبيحه الشريعة الحمدية بحال من الأحوال ، فهي فوق أنها لا يمكنها أن
تصور الاعتداء على ممتلكات أهلها من ترکيم الجيوش الإسلامية وراءها ،
ممنوعة قطعاً بدينه من أن تخرب الزرع أو تقطع الشجر أو تخرب المدنين
المقيمين وسائل العيش في الأرض التي صارت ساحة للمجيوش المتقدمة والمتأخرة .
ولا خلاف بين المسلمين في أنه يجوز في الحرب قتل المشركين الذي كر ان

النارات العصرية
على الآمنين

فرار إلى أخلاق
الرقة في الأدبان

النفي في النافذ

البالغين المقاتلين ، وكذلك لا خلاف بينهم في أنه لا يجوز قتل صبيانهم ،
ولا قتل نسائهم مالم تقاتل المرأة أو الصبي^(١) ، وإن اختلفوا فيما عدا هؤلاء .
والنَّهْج الواضح هو أنه لا يصح القصد بأذى لمن ليس شأنه القتال من نسائهم
اليوم المدنيين ، ولا تخريب العمار وحرق الزرع وقطع الشجر

روى رَبَاحُ بْنُ رَبِيعَةَ : أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ
غَزَاها ، فَرَأَى رَسُولَ اللَّهِ وَأَصْحَابَهُ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةً ، فَوَقَفَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ قَالَ
«مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتِقَاتِلَ اَهْلَهَا» ، ثُمَّ نَظَرَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ وَقَالَ لِأَحْدَمْ «إِنَّ الْحَقَّ
بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فَلَا يَقْتُلُنَّ ذُرْبَيْةَ وَلَا عَسِيفَةَ (أَجِيرَا) وَلَا امْرَأَةَ» .

وروى مالك عن أبي بكر الصديق أنه قال «ستجدون قوماً زعموا أنهم
جَسَسُوا أنفسهم لله ، فدعوهُمْ وما جَسَسُوا أنفسهم له ، ولا تَقْتُلُنَّ امرأةً وَلَا صَبِيًّا
وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا» .

وقال زيد بن وهب ، «أَتَانَا كِتَابٌ عَمَرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَفِيهِ «لَا تَغْلُوا
وَلَا تَمْدِرُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيَدًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي الْفَلَاحِينَ» ، وَرَوَى كَذَلِكَ عَنْ حُمَرَ
أَنَّهُ قَالَ «لَا تَقْتُلُوا هَرِمًا وَلَا امْرَأَةً وَلَا وَلِيدًا وَتَوَقُّوا قَتْلَهُمْ إِذَا التَّقَ الزَّحْفَانَ
وَعِنْدَ شَنَّ الْفَارَاتِ» . وَيَقُولُ الْإِمَامُ ابْنُ رُشْدٍ «إِنَّهُ ثَبَّتَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لَا تَقْطَعُنَّ شَجَرًا ، وَلَا تَخْرِبُنَّ عَمِيرًا» . وَلَا يَحُوزُ لِأَبِي بَكْرٍ
أَنْ يَخَالِفَ رَسُولَ اللَّهِ مَعَ عِلْمِهِ بِفَعْلِهِ مِنْ قَطْعِ نَخْلٍ بَنِي النَّضِيرِ . وَالْفَقَهَاءُ يَفْسِرُونَ
ذَلِكَ بِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ حَادَثَةَ بَنِي النَّضِيرِ الَّتِي تَشِيرُ إِلَيْهَا
سُورَةُ الْحُسْنَرِ كَانَتْ خَاصَّةً بَنِي النَّضِيرِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا يُعْرَفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ أَنَّهُ
قَتَلَ حِيَوانًا ، وَالْمُسْلِمُونَ مُتَفَقُونَ عَلَى تَحْرِيمِ الْمُنْتَلَةِ ؛ وَلِمَا يَذَكُرُ الْكِتَابُ الْكَرِيمُ
حَادَثَةَ بَنِي النَّضِيرِ فِي سُورَةِ الْحُسْنَرِ بِتَفْصِيلٍ غَيْرِ الإِشَارَةِ إِلَيْهَا فِي سِيَاقِ الْقِصَّةِ
وَالْمَوْعِظَةِ ، كَمَا لَمْ يُشَرِّ إلى حَادَثَةِ بَنِي قُرَيْظَةَ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْمَعْظَةِ كَذَلِكَ بِهَذِهِ

(١) انظر بداية المجندة ونهاية المتنصه للإمام ابن رشد .

الآية في سورة الأحزاب : « وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيمِهِمْ وَقَدْفَ فِي قَلْبِهِمِ الرُّغْبَ فَرِيقًا تَقْتَلُونَ وَتَأْسِرُونَ فِرِيقًا . وَأُوْرَثُكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضَالِمْ تَطْشُوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا » .

وليس في القرآن الكريم نص واحد على قتل الأسير ، ولا على استرقاقه ،
ولم يرُو عن رسول الله أنه استرق أسيرا ، والنصل الصريح هو تخدير الإمام
بين أمرتين لا ثالث لها : المن والفساد . يقول تعالى : « حَتَّى إِذَا أَنْخَشْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ ، فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْ زَارَهَا » .
ويقول الإمام ابن رشد رواية عن الحسن بن محمد التميمي ، إن إجماع الصحابة
على أنه لا يجوز قتل الأسير .

فالتشريع العام إذاً هو أنه لا يجوز قتل المدينين ، ولا قتل المحاربين بعد
تسليمهم ؛ وما شد عن ذلك في الماضي ، أو ما يشد عنه في المستقبل من عمل
الإمام المسلم العادل ، إنما يكون لظروف وأسباب خاصة تقتضي تخصيصاً
في الحكم . وحادية بن فريطة تحيط بها أسباب معلومة وأسباب بجهلها . أما
المعلوم فهو أنهم خانوا عهدهم واستغلوا اغتراف كرب وقع المسلمين لما حضرت
الأحزاب المدينة ، وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الخناجر ، فنقضوا
عهدهم ، وطعنوا المسلمين من خلفهم .

وسبب آخر ، هو أنهم نزلوا على حكم سيد الأولين سعد بن معاذ ، وهم
من مواليه فحكم عليهم بما حكم ؛ فهم سلموا على شرط ، وكان الشرط عليهم
وقيل كذلك ، إن ما حكم به عليهم من القتل جاء موافقاً لشريعة اليهود ، وإن
سعداً حكم عليهم بشرعيتهم . والحادث في جملته يشعر بعمور يكتنفه ، مما
يدعونا إلى الظن بوجود أسباب أخرى مجھولة لنا .

وما يبرر به بعض الفقهاء قتل المشركين أو من في حكمهم بعلة الكفر
أو الشرك وحدتها ، لا يستقيم في نظرنا مع نصوص الكتاب الكريم وروحه

نظرة في
أحكام الأسر
والاسترقاق

حادية بن فريطة
ونصوص بعض
ظروفها

لا قوله
الشرك أو الكفر
وحدهما

فِي مَوْضِعِ الْقَتْلِ، وَلَا مَعْ عَمَلِ النَّبِيِّ وَالْمُسْلِمِينَ فِي فَتْحِهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنَ
الْمُجْرَةِ إِلَى نِهايَةِ أَيَامِ الْخُلُفَاءِ الرَّاشِدِينَ

وَالْقُولُ بِالْقَتْلِ لِعَلَّةِ الْكُفَّارِ لَا يُسْتَقِيمُ فِي دِينٍ يَجْعَلُ لِقَتْلِ رَجُلٍ مُشْرِكٍ
أَدْلَةُ الْعُقُولِ
مِنْ قَوْمٍ لَهُمْ مِيَثَاقٌ مَا لَمْ يُؤْمِنُوا مِنْ حَقٍّ . يَقُولُ تَعَالَى « وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ يَنْكِمُ
وَيَنْهَمُ مِيَثَاقُ فِدِيَّةِ مُسْلِمٍ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رِقْبَةِ مُؤْمِنَةٍ » . بَلْ مِيزَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِ
مِنْ قَوْمٍ لَيْسَ لَهُمْ مِيَثَاقٌ .

وَلَوْ كَانَ الْقَتْلُ لِعَلَّةِ الْكُفَّارِ أَصْلًا كَا يَقُولُ بَعْضُ الْفَقِيهَاءِ لِقَتْلَ النَّبِيِّ مُشْرِكِي
مَكَّةَ أَثْنَاءِ فَتْحِهَا ، وَلِقَتْلِ مُشْرِكِي هَوَازِنَ بَعْدَ (خَنْبِنَ) ، وَلِمَا حَالَفَ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَزَاعَةً وَهِيَ مُشْرِكَةٌ ، وَلِكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي فَتْحِهِمْ مِنَ
الْهَنْدِ إِلَى فَرْنَسَا وَبَاهَةِ عَلَى الْعَالَمِ ، مَا تَرَكُوا عَلَى ظَهُورِهِ هَذِهِ السَّاحَةُ مِنَ الْكُفَّارِ حَتَّىٰ.
وَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ حَوَادِثٌ كَثِيرَةٌ فِي الْعُقُولِ وَالرَّاجِحَةُ مَعَ خُصُومِ أَشْدَاءِ
وَمَعَ قَتْلَةِ أَعْزَزِ أَصْحَابِهِ وَأَهْلِهِ . وَيُكَفَّىُ أَنْ تَقْرَئَ وَافِي كِتَابِ السِّيَرَةِ مَعَالِمَهُ بَعْدَ
فَتْحِ مَكَّةَ لِعَكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهَلٍ وَصَفْوَانَ بْنِ أَمِيَّةَ ، وَهَا عَدُوَانِ وَابْنَانِ
عَدُوِنِ لَهُ ، وَعَفْوَهُ عَنْ وَحْشِيٍّ قَاتِلِ عَمِهِ حَزَّةَ ، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا عَبْدًا حَبَشِيًّا لَا فِي
الْعِيرِ وَلَا فِي التَّفِيرِ ، وَصَفْحَةُ عَنْ أَبِي سَفِيَّانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِّبِ ، بَعْدَ
أَنْ أَسْرَفَ فِي خُصُومَتِهِ وَهَجَوْهُ . فَهَذِهِ أُمَّةٌ وَاضْعَفَهُ عَلَى الْعَدْلِ الَّذِي يَأْبَى قَتْلُ
الْمُدْنِينِ ، أَوْ قَتْلُ الْأَسْرَى ، أَوْ مَنْ جَنَحَ إِلَى السَّلْمِ .

رُفِعَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ إِحْدَى الْوَقَعَاتِ أَنْ صِيَّةَ قُتِلُوا بَيْنَ
الصَّفَوْفَ ، فَحَرَّزَ حُزْنًا شَدِيدًا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَا يَحْرُزُ نَكَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ صِيَّةٌ
لِلْمُشْرِكِينَ؟ فَنَفَضَبَ النَّبِيُّ وَقَالَ مَا مَعْنَاهُ : إِنْ هُؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنْكُمْ ، إِنَّهُمْ عَلَى الْفِطْرَةِ
أَوْ لَسْمُ أَبْنَاءِ الْمُشْرِكِينَ؟ فَإِيَاكُمْ وَقَتْلُ الْأَوْلَادِ! إِيَاكُمْ وَقَتْلُ الْأَوْلَادِ!

وَرَوَى الْبَخَارِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : مَرَرْتُ بِنَا جَنَازَةً فَقَامَ لَهَا النَّبِيُّ

وَقُمْنَا، فَقْلَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّهَا جَنَازَةٌ يَهُودِيٌّ. فَقَالَ «أَوْ لَيْسَتْ نَفْسًا! إِذَا
رَأَيْتَ الْجَنَازَةَ فَقُومُوا».

فَهَذَا احْتِرَامٌ لِلنَّفْسِ الْبَشِّرِيَّةِ لَا يَعْرِفُ التَّخْصِيصُونَ، وَلَا يَعْكُنُ أَنْ يُحِبِّزَ
قَتْلَ غَيْرِ الْمُحَارِّبِينَ، أَوْ قَتْلَ الْأَسْرَى لِعَلَّةِ الْكُفْرِ وَحْدَهَا.

فَنَحْنُ مُطَمِّثُونَ عَامَ الْأَطْمِشَانَ لِمَا ذَكَرْنَا مِنْ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْمُدْنِيَّينَ وَنَجْوِيعِهِمْ
وَمِنْ تَحْرِيمِ تَخْرِيبِ الْهَارِ وَالْأَرْزَعِ وَالشَّجَرِ، وَقَتْلِ الْأَسْرَى، وَتَحْرِيمِ الْمُشَّلَّةِ
وَالْإِجْهَازِ عَلَى الْجَرْحِيِّ.

وَنَفْتَقَدْ أَنَّ الْوَسَائِلَ الْحَدِيثَةَ مِنَ الْغَارَاتِ الْجَوْيَةِ وَمَا يَرْتَبُ عَلَيْهَا، وَالرَّمايَةُ
بِالْمَدْفِعَيَّةِ عَلَى غَيْرِ هَدِيٍّ وَمِنْ غَيْرِ إِنْذَارٍ عَلَى الْمُدْنِيَّينَ أَطْفَالًا وَنِسَاءً، شَيْوَخًا
وَمَرْضَى، زُرَّاعًا وَأَجْرَاءً، فِي الْبَرِّ أَوِ الْبَحْرِ أَوِ الْجَوِّ، لَا تَبِعُهَا الشَّرِيعَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ.

وَقَدْ جَاءَتِ السَّنَةُ وَالْمَرْفُ بِآدَابٍ أُخْرَى كَثِيرَةٍ لِلْحَرْبِ، مِنْ مَجَامِلَةِ رُسُلِ
الْمَدُو وَعَدْمِ التَّعْرُضِ لَهُمْ بِأَذْيٍ، وَمِنِ الْإِحْسَانِ لِلْأَسْرَى عَلَى جَعْلِهِمْ مُسْتَحْقِينَ
لِلْبَرِّ، مُمْتَسِّئِينَ فِي ذَلِكَ مَعَ أَيْتَامِ الْمُسْلِمِينَ وَفَقَرَاهِمْ. يَقُولُ تَعَالَى «وَيُطْعِمُونَ
الظَّعَامَ عَلَى حُجَّهِ مِسْكِينَا وَبَيْتَهَا وَأَسِيرَا». إِنَّا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا تُرِيدُنَا
جَزَاءً وَلَا شُكُورًا».

احترام النفس
البشرية بدون
تخصيص

آداب أخرى
العرب

السلام الدائم

السلام دائم و الحرب طارئة — دفع تهم وأوهام — من أسباب انتساب
السلام — نصوص في تدعيم حياة السلام — روح سلبية واحدة في مكة والمدينة
شهادة الأجانب — شهادة التاريخ

لِيَنْظُرْ فِي أَسَاسِ الْعَلَاقَاتِ الدُّولِيَّةِ فِي نَظَرِ الدُّعُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، هَلْ هُوَ قَائِمٌ
عَلَى فَرْضِ أَنَّ الْحَرْبَ هِيَ الْحَالَةُ الدَّائِمَةُ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ ؟ أَوْ أَنَّهَا
حَالَةٌ عَارِضَةٌ وَالْسَّلَمُ الدَّائِمُ هِيَ أَسَاسُ الْعَلَاقَاتِ الدُّولِيَّةِ ، يَنْقُضُهَا الْعُدُوُانُ
وَالظُّلْمُ وَحْدَهُ ؟

يُظْنَ بِعُضُّ النَّاسِ ، لِمَا صَاحَبَ الدُّعُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ مِنْ دَفْنِ تَهْمَةِ وَأَوْهَامِ
الْفَتُوحَاتِ وَالْحَرُوبِ ، أَنَّهَا دُعْوَةٌ قَامَتْ عَلَى السِّيفِ وَتَقْوِيمِهِ ، وَيُظْنُونَ كَذَلِكَ
أَنَّ الْإِسْلَامَ بِصَفَتِهِ دِينًا وَبِصَفَتِهِ دُولَةً ، فِي حَالَةٍ نَزَاعٍ دَائِمٍ مَعَ مَنْ يَخْالِفُهُ فِي دِيَارِهِ
وَخَارِجَ دِيَارِهِ ، وَأَنَّهُ يُشْبِهُ بَعْضَ الْأَدِيَانِ الْأُخْرَى فِي اخْتِصَاصِهِ بِالْأَيْمَانِ هُوَ لِلْمُسْلِمِينَ
خَاصَّةً ، وَهُوَ مَعْهُمْ دُونَ سُواهُمْ ، أَوْ كَبَعْضِ الْأَدِيَانِ الَّتِي جَاءَتْ فِي أَوَّلِ عَهْدِهَا
بِرْسَالَةِ السَّلَامِ عَلَى أَثْمَلِ مَعَانِيهَا خَرَقَتِ الْحَرْبَ وَأَيْضًا صَنَاعَةَ الْجَنَدِيَّةِ ، ثُمَّ
اَنْقَلَبَ رُؤُسَاؤُهَا الْدِينِيُّونَ وَانْقَلَبَتْ مَوْسَاتُهَا الْلَّاهُوَيَّةُ إِلَى النَّقِيضِ ،
فَإِبْاحَتُ الْحَرْبَ وَبَارَكَتُ الْحَرَابَ وَالْمَدَافِعَ فَضْلًا عَلَى الْجَنَدِيَّةِ ، وَوَصَلَ بِهَا الغَلُوُّ
فِي عَهُودٍ طَوِيلَةٍ إِلَى إِهْدَارِ دَمَاءِ الْمُخَالِفِينَ فِي الدِّينِ ، بَلْ إِهْدَارِ دَمَاءِ الْمُخَالِفِينَ فِي
بعضِ مَظَاهِرِ الدِّينِ وَطَقوسِهِ لِأَهْلِ الطَّائِفَةِ الْوَاحِدَةِ ، بَلْ وَصَلَ الْحَالُ بِهِؤُلَاءِ
الرُّؤُسَاءِ الْدِينِيَّينَ أَنَّهُمْ حَرَمُوا عَلَى الْأَمْرَاءِ مِنْ دِينِهِمْ أَنْ يَهَادِيُوا الْمُخَالِفِيهِمْ فِي
الْمَذَهَبِ فَضْلًا عَلَى الْمُخَالِفِيهِمْ فِي الدِّينِ ، فَعَمِلُوا لِأَنفُسِهِمْ حَقَّ فَسْخِ الْعَقُودِ
وَالْمَوَاثِيقِ وَنَقْضِ الْأَيْمَانِ الَّتِي يَرْتَبِطُ بِهَا أَمِيرٌ أَوْ مَلِكٌ مَعَ مَلِكٍ آخَرَ ،

أو دولة مع دولة ، وإن كان من شأنها أن تصون الدماء وأن تقيم العدل بين طوائف متاحرة ، فلم تكن للمواطنة والآياتان في نظرها حرمة ، لأن المحدث والكافر ، بل المنشق والمخالف في المذهب مهدور الحق ، فلا حرمة لهما معه إذا جازت مفاوضته ومعاهدته .

وبذلك اختل نظام الاجتماع كله ، بل استحال قيام نظام دولي ، لأن زعماء الأديان كانوا يملكون حل الناس من أيمانهم وعهودهم ، وكانوا يفترضون أن الأصل هو الحرب مع المخالف ، وأن السلم عرض ينقض ب مجرد القدرة على نقضه ، وأنه لا ذمة لكافر أو منشق على الإطلاق .

وذلك كله عكس ماجاءت به الدعوة الحمدية ؛ فهي أولاً تدعى إلى الله هو رب العالمين ، ممزوجة عن الغرض والهوى ، خلق الجميع على فطرة واحدة ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهو القاهر فوق عباده ، لا سلطان لهم مع سلطاته يقول « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ». .

هذه الدعوة من شأنها أن تفرض أن حالة السلم بين الناس داعمة ، وأنها هي الأصل ، وأن عدوان بعضهم على بعض هو وحده الذي يزعج هذه السلم ، ويضرم لظى الخصومة ، ولذلك اعتبرت الحرب حالة ضرورة يطلبها من عقالها المدوان والظلم ، ويبعثها التكافل البشري ، فتفع كذلك لنصرة مستضعف مظلوم مستصرخ .

وقد يتناقش فيما سبق كيف كان الإذن بالقتال ، وما هي أسباب الإذن ، كما يتناقش ما هي ماهية الحرب المشروعة ، مما يعين على تفهوم الدعوة الحمدية ، وما يبيّن أن الحرب التي أباحتها الشريعة تقع استثناء لقاعدة العامة ، وهي السلم الداعمة بين البشر .

والإيك أدلة أخرى من الكتاب والسنة ، وما جرى عليه المسلمون .

من أسباب
اضطراب السلام

رسوس في تدمير
حياة السلام

يقول صلى الله عليه وسلم « لا تَمْنُوا لقاء العدو وسَلُوا الله العافية ». فهؤلئك عن الرغبة في الحرب وتجنبها، حتى مع العدو ويسأله أن يديم نعمة السلم.

وفي البخاري أن رجلاً جاء إلى النبي ، فقال : الرجل يقاتل للمفاسد ، والرجل يقاتل للذّكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن في سبيل الله؟ قال صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلة الله هي العليا فهو في سبيل الله ». وهذا واضح في تقضي معظم أسباب الحروب التي قاسى العالم ويلاتها ، وحصرها في الحق والعدل الذي يريد الله ، وواضح في أن الأصل هو السلام . وكان صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، وال Herb قاعدة ، ينقل التراب ، وقد وارى التراب بياض بطنه ، ويحفر مع أنصاره الخندق وينشد :

لَا مُ^(١) لَوْلَا إِنَّا مَا هَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَنَا
إِنَّ الَّذِي هُمْ بَعْنَا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فَتْنَةً أَنْيَنَا

في هذا النشيد تعجلي روح التقوى والتبرأة عن البنية الذي يفعله الخصم والدفاع عن حقه في اختبار دينه الذي يريد الأحزاب أن تفتنه فيه وترده عنه . فلو لا هذا البني لاستمررت السلم التي هي الأصل .

ثم انظروا وتبصروا في هذه الآيات الجليلة بروحها ونطها . يقول تعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْخُلُوا فِي السَّلَامِ كُلَّا وَلَا تَبْعُدُوا اخْطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌ مُّبِينٌ » ، ويقول تعالى « وَإِنْ جَنَحُوا إِلَيْنَا فَاجْنِحْنَاهُمْ وَلَا كُلُّ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » . وإن يريدوا أن يخدعواك فإن حسبتك الله ، ويقول تعالى « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَنْتُ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ لَسْتُ مُؤْمِنًا بِتَنَعُّونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .

(١) بعندهم .

ويقول « لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الدِّينِ لَمْ يَقَاتُلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ». « فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقَاتُلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَإِنْ جَعَلُ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ». بِالْكَوْكَبِ
ثُمَّ انظروا إلى رُوح السلم والمحبة التي تشع من هذه الآيات الجليلة.

يقول تعالى خطاباً لرسوله « فَإِذَا كُنْتَ فَادِعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَنْبَغِي أَهْوَاءِهِمْ ، وَقُلْ آمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ وَأَعْمَالُكُمْ ، لَا حِجَةَ يَبْنَا وَيَبْنَكُمْ ، اللَّهُ يَعْلَمُ يَبْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ». بِالْكَوْكَبِ

« وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأَقْرَبِينَ أَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمُ الْبَلَاغُ ». بِالْكَوْكَبِ

« قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجِعُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ، لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ». بِالْكَوْكَبِ

« وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابَ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ »
ويقول « لِسْكَلَ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ جَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدةً وَلَكُنْ لَيَبْلُوْكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جِمِيعًا ». بِالْكَوْكَبِ
« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأْمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَيْعاً . أَفَأَنْتَ تُسْكِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ! »
(ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ يَشَيرُ إِلَيْهِ وَنَذِيرًا). بِالْكَوْكَبِ

قد يقول بعض الناس ممن آمنوا أو حنلوا : إن الآيات المكية تقِيضُ بهذه الروح ، بينما الآيات المدنية تشتد على الكفار والمنافقين ، وتحض على القتل والفتنة ، وهو قول باطل لأن كتاب الله لا يتجرأ ، وقد سبق أن يتناهى أن الحُضُنَ على الحرب في معظم آيات الحرب هو تحريض على الصبر والاستشهاد والفتنة في حرب واقعية فعلاً ، ولم تنته إلى مستقر من السلم

يُطْمِئِنُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ ، فَهِيَ نَتْيَاجَةُ الْحَرْبِ لَا دُعْوَةُ إِلَيْهَا . وَمَعَ ذَلِكَ فَإِلَيْكُمْ
بَعْضُ الْآيَاتِ الْمَدَّيْنَةِ :

« لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرَّشْدُ مِنَ الْغَيْرِ » .

« قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، إِنَّ تَوْلِوًا فَإِنَّا عَلَيْهِ مَا حَمَلَ وَعَلَيْكُمْ
مَا حَمَلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمَبِينُ » .

وَيَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ « وَلَا تَرَالْ تَطْلِعُ عَلَى خَاتَمَةِ الْمُنْهَمِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفِحْ إِذْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » .

فَالْإِسْلَامُ فِي جَمِيعِ أَدْوَارِ الدُّعَوَةِ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ فِي مَكَانٍ يُعَوَّلُ إِلَيْهِ عَلَى الْحَجَةِ
وَلَمْ يَلْجُأْ لِلْسِيفِ إِلَّا دَفَاعًا ، بَلْ إِنْ تَارِيخَ انتشارِ الدُّعَوَةِ الْمُحْمَدِيَّةِ وَاضْطُرَّ فِي أَنْ
هَذِهِ الدُّعَوَةَ قَدْ اتَّسَرَتْ فِي الْآفَاقِ ، وَانْتَصَرَتْ انتِصَارَاتٍ باهِرَةً فِي الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ فِي أَضْعَافِ أَيَّامِ الدُّوَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، بَلْ فِي الْانْخِطَاطِ الْعَسْكَرِيِّ
وَالْمُسْلِمُونَ سَاعَةً فِي يَدِ بَرَابِرَةِ الْمَشْرِقِ وَمَتْوَحْشِيِّ الْفَرِيجِ فِي الْمَغْرِبِ .

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ السِّيرِ تُوْمَانِسْ أَرْنُوْلِدُ فِي كِتَابِهِ (اِنْتَشَارِ الْإِسْلَام) : إِنَّ الْفَتْحَ
الرُّوحِيِّ الْإِسْلَامِيِّ لَمْ يَتَأْثِرْ بِسَقْوَطِ الدُّوَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَبِضَعْفِ الْقُوَّى
السِّيَاسِيَّةِ ؛ فِي أَيَّامِ هَزِيْتَهِ السِّيَاسِيَّةِ نَالَ أَعْظَمُ اِتْصَارِهِ الرُّوحِيِّ .

وَفِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ حَادِثَانِ عَظِيمَيْنِ يُبَيَّنُ ذَلِكُمْ ؛ خَيْرُ وَضْعِ الْكُفَّارِ
المَتَوْحِشُونَ مِنَ الْمَغْوِلِ وَالْأَتْرَاكِ السُّلْجُوقِيَّينَ أَفْدَاهُمْ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ فِي
الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ غَزَا الْإِسْلَامُ قَلْوَبَهُمْ فَاعْتَنَقُوا ، وَهُمُ الْغَالِبُونَ ، دِينَ
الْمَغْلُوبِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْإِسْلَامِ عَوْنٌ مِنْ سِيفٍ أَوْ سُلْطَانٍ .

وَإِذَا رَجَعْنَا الْبَصَرَ إِلَى صَلْحِ الْخَدِيْبِيَّةِ ، ذَلِكَ الْصَّلْحُ الَّذِي حَزَنَ لِلْمُسْلِمِونَ
لَقَبْوِلِهِمْ شَرْوَطًا مُذَلَّةً ، وَالَّذِي قَرَرَ وَضَعَ السِّيفِ فِي غَمَدِهِ عَشَرَ سَنِينَ ، رَأَيْنَا أَنَّ
أَعْظَمَ فَتْحٍ مَعْنَوِيًّا لِلْإِسْلَامِ كَانَ فِي أَيَّامِ هَدْنَةِ الْخَدِيْبِيَّةِ ، وَفَتْحُ الْخَدِيْبِيَّةِ السُّلْطَانِيِّ
هُوَ الَّذِي هِيَ لِفَتْحِ مَكَةَ وَدُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا .

هذا ولم يذكر المسلمين في إقامة جيش دائم ، ولا اعتبروا الجنديَّة صناعةً
إلا تقليداً لعدوِّهم ، وقد صارت له معهم حدود وثغور لا بد للسلامة من
الرِّباط فيها .

فلم تكن الدعوةُ المحمديةُ في حاجةٍ لنقضِ السُّلْمَ لتعيشَ ، ولا كانت في
في وقتٍ من الأوقاتِ مُؤولةً على الإكراه في الدين لتنشرَ ، ولا رَضِيت بالحربِ
لِعَرَضِ الدِّينِ وَمَنافِعِهَا وَسُلْطانِهَا وَبَسْطِهَا ، ولا اسِيادَ جنسٍ على جنسٍ ،
وَرُجُحَانٍ طبقةً على طبقةٍ .

فالحربُ عند المسلمين طارئةٌ ولِلسلِّمِ الحِيَاةُ الدَّاعِةُ ، ولذلك كله قامَت
العِلَاقَاتُ الدُّولِيَّةُ فِي نَظَرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَسَاسِ سُلْمٍ دَاعِةٍ بَيْنَ الْبَشَرِ يَنْقُضُهَا
الْعُدُوَانُ وَحْدَهُ ، فَعُنِيتَ الدَّعْوَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ كُلَّهُ العِنَابَةُ بِإِقَامَةِ هَذِهِ السُّلْمِ الدَّاعِةِ
عَلَى حِرْمَةِ الْذَّمَّةِ وَحِرْمَةِ الْأَيْمَانِ وَالْمَهْوَدِ .

العُصُودُ وَالْمَوْاثِقُ

السلم والمعاهد ومن لا عهد له — رأى في مسألة التبخير بين الإسلام والجudaية والبيت — السلم بين المؤمنين — الإسلام وطن السلم — لا إلتبسة في الإسلام — عاليه شامة — يسمى بذعنهم أدناه — أخوة النعمه والمهدي — حقوق الذي وواجباته — الغنم أكثراً من المرم — بين النعمه الإسلامية ونظام الحباية الحديثة — الاستعمار الحديث لا يعرفه الإسلام — كفالة الله وشهادته على المهوود — الذي في كفالة الإسلام أيها كان من بلاد المسلمين — عهود الأمان والملافع — من وسايا الراشدين — إلى الأخوة والوفاء — حق واحد للطالب — موجهات الصلح — من حرب سنة ١٨٧٠ إلى حرب سنة ١٩٣٩ — حربة المهوود فوق صلة الدين — عهد يمأدوه وخيالة يفر عهدها — امرأة تُخiper والرسول يفر جوارها — تكرير لفرد — مثل رائع لاحترام كلمة لم تكتب — من يجوز نقض العهد .

أقامت الدعوة الخديوية قواعد العلاقات الدولية بين الناس على افتراض
السلم والمعاهد
ومن لا عهد له
أنهم إما مؤمنون ، وإما معاهدون ، وإما لا عهد لهم . فاما المؤمنون فالخواهم
نائمة ، وأما المعاهدون فيعاملون بمقتضى عهدهم ، وأما من لا عهد له فأمره
يختلف باختلاف حاله ، ومصير العلاقات معه يتبع أحوالاً كثيرة . وعلى
كلّ حال لا يجوز قتاله مفاجأة من غير إنذار ، ولا يكون هذا الإنذار من
غير سبب ، ولا يكون السبب هو الطمع في ملك أو سلطان أو استغلال
خيرات أرضه ، أو تحكم في منافعه وتجارته ، أو استثمار عما عنده من المواد
الخاتمة والمعادن ، أو أغراض عسكرية واستراتيجية ، أو تهذيبه وغدينه كايدجي
أهل الغرب في المصور الأخيرة ، أو كي تكون أمة هي أربى من أمة ، أو جنس
أعلى من جنس ؟ فليست هذه الأسباب صالحة لمواجهته حتى بعد إنذاره الذي
تشترطه القواعد الدولية الإسلامية ، وليس هناك في الحقيقة سبب للخلاف في
نظر الإسلام ينته وين الناس إلا الفتنة ومنع الدعوة .
وقد قررنا سابقاً باطمئنان أن الإسلام حصر أسباب الحرب في كفالة حرب

الدعوة ، فهو يكتفى بضمانتها ليكون في عهد يقرهُ السلم الدائم مع أي طائفه من البشر . وتاريخ الدعوه الحمدية واضح في هذا الشأن ، فليس لازماً كما يظن بعض الناس أن من قضت الظروف بنزاع وخصام معه ملزم بالاختيار بين ثلاثة : الإسلام والجزية والسيف .

وليس هذه الحالات الثلاث التي كانت تفرض على الأعداء آتية في محل المسلمين على سبيل الحصر ، فإننا نجد اتفاقيات وعهوداً وحالات سلم قائمة بين المسلمين وغيرهم أو دول أخرى ليس لها جوار بغير أن يشترط لذلك حالة من الحالات الثلاث . وهذه النظرية نظرية اختيار بين ثلاثة أمور يظنها بعض الناس من القواعد العامة ، لأنها كانت شائعة في العهد الأول من الفتوحات الإسلامية ، بينما الحقيقة أنه قد سبقتها عهود للرسول ولحقتها اتفاقيات وعهود للدولة الإسلامية لم تستلزم إحدى الثلاث . وحق إمام المسلمين وجماعتهم في عقد ما يرون فيه المصلحة من العقود متفق عليه ؛ فصلاح الحديبية مثلاً لم يشترط شيئاً منها ، بل بالعكس كان فيه شرط اعتبره عمر رضي الله عنه إعطاء للدين وإذلال المسلمين قبل مشركيين مغاربيين ، ولم يرض به إلا طاعة وتفويضاً للرسول صلى الله عليه وسلم .

وإذا رجعنا للعهود المتنوعة والبيانات والمحافل التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ، رأينا فيها أمراً واحداً مطرداً ، هو القصد إلى نشر دعوه ، والوصول بهذه الدعوه إلى الظهور ، وألا يتعرض شيوخها وظهورها قوة . وكثيراً ما كان الوصول إلى حالة سلم مستقرة هو الهدف الأساسي لتمكن الدعوه من الحرية اللازمة لظهورها ، فلا يشترط له شيء آخر ، بل يكون شرط الجزية أو الإسلام مؤخراً ومانعاً للتباهم ، فتصدم الدعوه ، ويوجّل انتشارها بالمعنى في هذه الحالة يصبح شرط الجزية أو الإسلام مضرًا ويكون فاسداً ، وعلى ذلك ليس حقيقياً أن إمام المسلمين أو جاعتهم ملزمون بإقامة السلم على

رأي في مسألة
التبني بغير
الإسلام أو الجزية
أو السيف

شَرْطَيِ الإِسْلَامِ أَوِ الْجُزْيَةِ، وَإِلَّا كَانُوا فِي حَالَةِ حَرْبٍ دَائِعَةً مَعَ أَكْثَرِ الْبَشَرِ
وَامْتَنَعَ ظَهُورُ الإِسْلَامِ كَدُعْوَةٍ عَالَمِيةٍ.

فَلَنَا إِنَّ الْعَلَاقَاتِ الدُّولِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَاعَةٌ عَلَى افْتَرَاضِ أَنَّ النَّاسَ مُؤْمِنُونَ
أَوْ مُعَاهَدُونَ أَوْ لَا يَعْهُدُونَ. فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ فَالسَّلَّمُ يَنْهَمُ أَبْدِيَّةً لَا يَنْقُضُهَا إِلَّا الْكُفَّارُ
وَالرَّدُّةُ، فَإِنْ بَغَتْ طَائِفَةٌ عَلَى أَخْرَى فَهُمْ جَمِيعًا عَلَى الْفَتَّةِ الْبَاغِيَّةِ حَتَّى تَنِيَّ إِلَى
أَمْرِ اللَّهِ وَتَقْبِيلِ التَّحْكِيمِ، فَإِذَا قَبَلَهُ كَانَ الْإِنْصَافُ وَالْقِسْطُ، لَا الْغَلْبُ وَالْقُوَّةُ،
هَا الْمِيزَانُ الَّذِي تَوزَّنُ بِهِ شَرَائِطُ الصلَحِ. يَقُولُ تَعَالَى :

« وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلُوا فَأَصْلِحُوهَا يَنْهَمُوا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأَخْرَى فَقَاتَلُوهُ الَّتِي تَبَغِيَ حَتَّى تَنِيَّ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَآتَتْ فَأَصْلِحُوهَا
يَنْهَمُوا بِالْمَعْدُلِ وَأَقْسِطُوهَا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ».

فَالْمُؤْمِنُونَ فِي جَمِيعِ أَمْرَافِ الْأَرْضِ إِخْوَانٌ لَا تَفَرِّقُهُمُ الْأَوْطَانُ وَلَا الْمُصَبَّبَاتُ
وَلَا الْمَذاهِبُ وَلَا الْمَنَافِعُ وَلَا الْخَوْفُ وَلَا الْمُنَمَّةُ وَلَا الْعُبُودِيَّةُ ، وَلَا سَبِبُ مِنَ
الْأَسْبَابِ ، لِلْمُسْلِمِ حَقُّ الْأَخْوَةِ عَلَى الْمُسْلِمِ أَيْنَا حَلَّ وَأَيْنَا كَانَ الدَّارُ ، فَلَا
جَنْسِيَّةَ غَيْرَهُ الْجَنْسِيَّةِ الْمُشَتَّرَكَةِ الَّتِي يَكْفِي لِتَبُوتِهَا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ
عَمَدًا رَسُولُهُ .

فَالْمُسْلِمُ فِي أَيِّ وَطَنٍ مِنْ أَوْطَانِ الْمُسْلِمِينَ وَطَنٌ لَهُ جَمِيعُ حَقُوقِ (الْمُوَاطِنِ)
وَعَلَيْهِ جَمِيعُ الْوَاجِبَاتِ الْمُفْرُوضَةِ عَلَى الْمُوَاطِنِ أَيْنَا وَجَدَ ؛ فَإِنْ فَرَضَ مَثَلًا أَنَّهُ
وُجَدَ مَارًّا إِلَى الْحَجَّ فِي مِصْرٍ وَهُوَ آتٍ مِنَ الْمَغْرِبِ ، أَوْ وُجَدَ فِي الْعَرَاقِ وَهُوَ
قَادِمٌ مِنَ الصَّينِ ، وَكَانَتْ مِصْرُ أَوِ الْعَرَاقُ فِي حَرْبٍ ، وَجَبَ عَلَيْهِ الْجَهَادُ مَعَ
أَهْلِهَا كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ لَوْ كَانَ فِي بَلْدَهُ وَقَدْ هُوَجِتْ . كَمَا أَنَّهُ لَوْ انْقَطَعَ بِهِ السَّبِيلُ ،
أَوْ شَقَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ ، فَلَهُ فِي زَكَّةِ هَذَا الْبَلْدِ فَرِيْضَةٌ ، وَجَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ تَكْفُلُهُ ،
بَلْ لَهُ كَافَةُ مَا لَهُمْ مِنْ حَقُوقٍ . فَالْأَخْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ كَامِلَةٌ بَيْنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَيْضُونِ

والعبد والحرر ، ليس في ذلك أدنى ريب ولا شك لدى أي طائفة من المسلمين
أو أي مذهب من مذاهبهم .

وعلى ذلك فالملايين الأربعينية من المسلمين في الأرض هم إخوان لا يمكن
بفتقضي الشرعية الإسلامية تصور حالة حرب بينهم يخوضونها في سبيل الله
أو الوطن أو الدولة ، فإذا وقع فيها بعضهم فالحكم لكتاب الله ، ولا بد
للمسلمين من التدخل لإنهاء القتال ، ولا تستقر صماً لهم حتى ينتهي على صورة
من صناعة بالقسطنطينية .

ومن هذا يتضح أن الإسلام عالميٌّ ودوليٌّ ، يعني أنه يضع قواعده على
أساس علاقات بشرية عامة ، ومنفعة بشرية مشتركة ، وهو كذلك ينظر بهذه
النظرة العالمية للمخالفين في العقيدة ، فهم في نظره بشر ، وتکاد تكون مسئولية
الفرد في نظامه العالمي كمسئوليَّة الدولة ، فمُهنة الفرد كمُهنة الجماعة ، وحقوق
هذا حقوق هؤلاء ، وللفرد في نظامه شخصية وسيادة تکاد تغایل شخصية
الجماعة وسيادتها .

فتلاً يسمح النظام الإسلامي للفرد أن يُغير ويُؤمن ويُعطي عهداً لفرد
أو جماعة من الناس ، وأمانه وعهده محترم ، لقوله صلى الله عليه وسلم « ذمة
المسلمين واحدة يَسْعَى بها أذناهم » . فإذا تصورنا العالم الإسلامي اليوم وهو
متعد من المشرق إلى المغرب ، وتصورنا أنهم وطائفه وأفراده ، وتصورنا
ما لهؤلاء من العلاقات مع جيرانهم ومواطنهم ، وما بينهم من عهود واتفاقات ،
وعلمنا أن هذه الصلات والموعد مزعنة من المسلمين جميعاً ، أمكن أن تتصور
أن البشرية كلها كادت أن يشملها نطاق واحد من الأمان المشترك .

هذه هي الأخوة الإسلامية ، لها من القوة ما يكفل السلام الدائم بين
أقوامها وأجناسها وأوطانها ومذاهبها . أما ما بين المؤمنين وغيرهم فالمعاهدون
منهم إما أن يكون لهم عهد ذمة ، وإما أن يكون لهم عهد أمان أو تبادل منافع ؛

أخوة الأمة
والهدى

بعض بذاته
أداء

فَأَمَا عَهْدُ الْذَّمَةِ فَهُوَ عَهْدٌ أَبْدِيٌّ لِفَرْدٍ أَوْ جَمَاعَةً فِي دَارِ الْإِسْلَامِ قَبْلِهَا الْمُسْلِمُونَ فِي جُوَارِهِمْ وَأَعْطُوهُمْ هَذَهَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُسْلِمِينَ مَقَابِلَ ضَرِبِيَّةٍ سَنَوِيَّةٍ تَسْعى
الْجَزِيَّةُ . وَهُؤُلَاءِمِ الَّذِينَ سَرِيَ عَلَيْهِمْ لَفْظُ الذَّمَّةِ وَلَوْ أَنَّهُ مَعْ شَدِيدِ الْأَسْفِ
أَصْبَحَ تَقْيِيلًا إِنَّ أَصْلَهُ نَبِيلٌ ، فَالْتَّسْمِيَّةُ جَاءَتْ مِنْ ذَمَّةِ اللَّهِ ، وَهِيَ أَكْبَرُ تَأْكِيدٍ
لِحَقَّهُ فِي أَنْ يَتَمَكَّنَ بِكَامِلِ حِرْيَتِهِ الْدِينِيَّةِ وَالْإِدَارِيَّةِ وَالْسِّيَاسِيَّةِ ، وَأَنْ تُصَانَ لَهُ
هَذِهِ الْحَقُوقُ مَقَابِلَ الْوَلَاءِ وَقَدْرِ يُسِيرٍ مِنَ الْمَالِ يَتَفَقَّعُ عَلَيْهِ لِنَفَقَاتِ الدُّوَلَةِ .

هَذَا الَّذِي الْمَعَاهِدُ هُوَ جَارٌ لِلْمُسْلِمِ يَوْمَهُ وَيَوْمَيْهِ ، لَا يَنْقُصُ مِنْ حَقِّهِ شَيْئًا
وَلَا يَتَدَخُلُ فِي الشَّشُونَ الَّتِي لَهُ يَعْهُدُهُ ، إِنَّ احْتِكَمْ إِلَيْهِ فَعْلَيْهِ الْمَدْلُ الذِّي عَلَيْهِ
الْمُسْلِمِ سَوَاءٌ يَسُوءُهُ . ظُلْمٌ حَرَامٌ ، وَاضْطِهادٌ حَرَامٌ ، وَإِهَاةٌ حَرَامٌ ، وَحَرْمَانٌ
مِنْ حَقِّهِ حَرَامٌ ، لِهِ دِينٌ وَلِلْمُسْلِمِ دِينٌ ، وَعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَنْصُرَهُ وَيَعْنِيهُ وَيَحْوِطَ حِرْيَتَهُ
الْدِينِيَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ وَحَرْيَةِ جَمَاعَتِهِ وَيَكْفِلُهَا بِقُوَّتِهِ ، وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِ إِلَّا الْوَفَاءُ
وَالْامْتِنَاعُ عَمَّا يَضُرُّ الْمُسْلِمِينَ فِي عَقَائِدِهِمْ أَوْ سَلَامَتِهِمْ .

وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى إِدْرَاكِ الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَعَلِمُهُمْ بِهَا مَا فَعَلَ خَالِدُ بْنُ
الْوَلِيدِ مَعَ نَصَارَى (حُصُن) فَإِنَّهُ لَمَا عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُبْطَلُ لَهُ بَدْفُعِ الرُّؤُمِ عَنْهُمْ ، رَدَّ مَا كَانَ
أَخْذَهُ مِنَ الْجَزِيَّةِ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ : إِنَّا أَخْذَنَا هَا جَزِاءَ مَنْعِنِكُمْ وَالْدِفَاعِ عَنْكُمْ وَقَدْ عَزَّزْنَا،
وَكَذَلِكَ فَعَلَ صَلَاحُ الدِّينِ الْأَيُوبِيُّ فِي حِرْوَبِهِ مَعَ الصَّلَيْبِيِّينَ حِيثُ رَدَّ الْجَزِيَّةَ إِلَى
نَصَارَى الشَّامِ حِينَ اضْطُرَّ إِلَى الْاِنْسَحَابِ مِنْهَا ، فَلَمْ تَكُنِ الْجَزِيَّةُ حَقًا تَعْطِيهِ الْقُوَّةُ
لِلْفَالِبِ عَلَى الْمَغْلُوبِ ، وَإِنَّا كَانَتْ مُنْفَعَةً جَزِاءَ مُنْفَعَةٍ ، وَأَجْرًا جَزِاءَ عَمَلٍ .

وَإِذَا فَجَرَدَ الْاِتْقَاقُ وَدَفَعَ الْجَزِيَّةَ يَكْفِلُ لِلْفَرْدِ أَوْ الْجَمَاعَةِ الْمَعَاهِدَةَ مَا لِلْمُسْلِمِ
مِنَ الْحَقُوقِ ، بَلْ لَوْ دَقَّنَا النَّظَرُ بِحَدِّ أَنَّ هَذِهِ الْمَعَاهِدَ بِدَفْعَهِ هَذِهِ الضَّرِبِيَّةِ ، وَهِيَ
رَمْزٌ وَلَا تَهُوَرُ رَضَاهُ ، يَتَمَتَّعُ بِكَافَّةِ الْحَقُوقِ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ كُلُّ التَّكَلِيفَاتِ كَتَكَلِيفِ
الْجَهَادِ وَالزَّكَاةِ ، فَتَبَقِّي ضَرِبِيَّةُ الدَّمِ حَمْلًا عَلَى الْمُسْلِمِ وَحْدَهُ ، وَضَرِبِيَّةُ الزَّكَاةِ حَمْلًا
عَلَيْهِ كَذَلِكَ وَحْدَهُ ، مَعْ جَوَازِ حَقِّ الْمَعَاهِدِ فِي جَمَاعَةِ إِيمَامِ مِنْ هَذِهِ الزَّكَاةِ ، فَإِنَّا
الْمُسْلِمُونَ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينِ .

عَنْ أَكْثَرِ
مِنْ غَرْمِهِ

فإذا أراد المعاهد أن يقاتل في صفوف المسلمين كان له مالهم في الفتيمه .

وإذا نظرنا في عهود الذمة وعهود الحماية لبعض الدول اليوم في بلاد المسلمين وغيرهم ، تبين لنا الفرق العظيم بين عهد يقوم على أساس الأخوة البشرية ، يرعاه دين يدعو إلى عبادة الله رب العالمين ، ويُسُوِّي بين الناس جميعاً فـ كلهم من آدم وآدم من تراب ، لا يكتفت للعنصرية ولا للجنسية ولا للغة ولا للثقافة والأدب والعرف بل للحق الإنساني ، وبين عهد يقيمه الغلبة ويصونه القهر وتحمدوه المنفعة ويدعوه الاستغلال ويصبحه الاحتقار .

فهذا له حرمة من صميم الوجدان والعقيدة ، وذاك له قوة القلب وشموهُ الهوى والامرأة . وقد كان أثرُ الأول الحب ، فدخلت الأكثريَّة المظليَّة من أصحاب عهود الذمة في دين الجماعة الإسلاميَّة راغبة متطوعة ، لأنَّ نظام الإسلام عاليٌّ ، واعتناقها لمبادئه لا ينافي كرامتها الإنسانية ولا عزتها القوميَّة .

وقد بلغ من ذلك أنَّ والي مصر في زمان الخليفة عمر بن عبد العزيز شكا إليه أنَّ نصارى مصر وأهلَ الذمة فيها يتَّركون دينهم ويدخلون في الإسلام فتناقصت إيرادات الجزية ، واستأذنه في منعهم ، فكتب إليه الخليفة بذلك العبارَة النَّيَّرة « قَبَحَ اللَّهُ رَأَيْكَ ! مَا بَعْثَ اللَّهُ مُحَمَّداً جَائِيًّا وَلَكُنْ بَعْثَهُ هَادِيًّا » إذاً كان الهدف المُهديَّة لا الجبائية ، والمساواة لا القهر والتفريق .

ولم تكن عهود الذمة ذات صلة بما يسمونه الاستعمار في هذا العصر ، فهذا المعنى لم يذر بخالد المسلمين في فتوحاتهم ، ولا تعرَّفُهُ الشريعة الإسلامية ، وإنما تعرَّف حق المساواة لصاحب عهد الذمة له ما للمسلم وعليه ماعليه ، وله أن يعيش في حرية تامة بقوائه وعُرْفه ونظمه . له أرضه وله ما تُغْلِّبُ هذه الأرض . له ماعلي ظهرها وما في بطنها ، وليس عليه ضرائب غير الجزية مقابل المائنة وكفالات نظامه الذي يختاره ويقيمه بكمال حريته ، غير مُضمارٍ لمعاهداته من المسلمين . فشتان ما بين النظام الإسلامي من حرية وإنسانية وما في الاستعمار من

بين الذمة
الإسلامية ونظام
الحياة الحديثة

الاستعمار
المسيحي لا يعرَّفُهُ
الإسلام

سلب للحرية، واستباحة لكل ما يملك المغلوب وما ينتزع
 لا قيد في الاستعمار لإرادة الغالب، وقيد الإسلام المسلم بهده، فلا
 كفالة الله وشاده على المهد
 ينقض ولا يتجاوز « وأوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عاهَدْتُمْ ، وَلَا تُنْقضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ
 توْكِيْدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا » .

وكما أن للمسلم حقاً مساوياً لحق كل مسلم آخر في أي وطن من أوطان المسلمين، فإن الذي المعاهد له مثل ذلك، فعهده محترم في مشارق الأرض ومحاربها، لما بين المسلمين من التكافل. وعلى ذلك فالمعاهدون إنما كانوا في سلم داعية لا ينقضها إلا الشك و العداون، وكذلك تتدبر ساحة السلم البشري وتستقر بصفة خالدة بين الأجناس والأديان في ساحة البشرية بهذه المساواة التي عليها الشريعة وتكلفها العهود .

ليست العهود من نوع واحد، ولا هي جميعاً كعهود النعم التي أشرنا إليها؛ فقد تكون عهود أمان، وقد تكون عهود حسن جوار، وقد تكون معاهدات صداقة أو تجارة أو أي نوع من أنواع التعاقد الدولي لإقرار السلم وتبادل المنافع .

فهي جميعاً في نظر الدعوة الحمدية عهود مقدسة هي مواثيق جعل الله عليها شهيداً وكفيلاً، لها حرمة دينية لا تسمح بالخديعة والتدليس والكذب .
 كتب عثمان، رضى الله عنه، إلى عماله وولائه عقب توليه الخلافة
 هذا الكتاب :

« أما بعد ، فإن الله خلقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ ، فَلَا يَقْبِلُ إِلَّا الْحَقُّ . خُذُوا الْحَقَّ
 وَأَعْطُوا الْحَقَّ ، وَالْأَمَانَةَ الْأَمَانَةَ قَوْمًا عَلَيْهَا . لَا تَكُونُو أَوَّلَ مَنْ يُسْتَلِّهَا
 فَتَكُونُو شُرَكَاءَ مَنْ بَعْدَكُمْ . الوفاءُ الوفاءُ لَا تَظْلِمُوا الْيَتَمْ وَلَا الْمَعَاهَدَ ، إِنَّ
 اللَّهَ خَصَّمَ مَنْ ظَلَمَهُمْ » .

و نظام العالم الذي يقوم على مثل هذه الروح ، وبعهود لها مثل هذه
الحرمة ، هو نظام سليم حقيقة ، يستمر ماشاء الله ، وإذا اضطرب فلا يُمْ
خطره ولا يدوم شره . أما ما نحن فيه من عهود تعتقد لتنقض ، وذم مخفورة
وأنارة موفورة ، وأمّا تعالى على أم ، وأقوام تتسامى على أقوام ، فقد
لقينا جزاءه في تلك الحروب العالمية التي لا تُبقي ولا تُذر ، هلك فيها البشر ،
وعم الشر .

فإلى الأخوة البشرية التي تعلو على الجنس والقبيلة ، وإلى الوفاء للصلة
الداعية التي يريدها رب الناس بين الناس : « يا أئمّة الناس اتقوا ربكم الذي
خلقكم من نفس واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منها رجالاً كثيراً ونساء
واتقوا الله الذي تَسأَلُونَ به والأرحام » .

للأخوة
والوفاء

وقد تبين أنه ليس للحرب نتيجةٌ ولا خاتمةٌ برضاهما الله إلا السلام الذي
يستقر على العدل والإنصاف والأخوة البشرية ، وأنه ليس للغَلْبِ إلا حقٌّ
واحد هو منع الظلم . وكل ما يُعتقد من المهدى بنتيجةٍ لاحرب يكون مخالفًا
للروح الإسلامية إنْ أقام ظلمًا أو استبعاداً ، أو أقرَّ استغلالًا واستباحةً
لما هو من حق الإنسان بصفة كونه أخًا في البشرية . يقول تعالى : « ولا تكونوا
كاليٰ تَقْضَتْ غَرَّهَا من بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا يَنْكِمْ أَنْ
تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أُرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ » .

أى لا يجوز أن تقوم عهودكم على الدَّخَلِ ، أى الفساد والعنف الخلقى لكي
تكون أمة هي أربى من أمة ، أى أكثر مالاً ورجالاً وقوة وصولة مما
يجمعها أرجح .

وليس المراد من معاهدات الصلح في نظر الإسلام استدامة حالة الغَلْبِ
الذي تج عن حرب اقتضاها العدوان بدوام الحرمان والإذلال للمغلوب ، بل

الغرض الوصول إلى إقامة العدل الذي يريد الله ويطلبه لأعدائنا وأصدقائنا على السواء . يقول تعالى :

«**وَلَا يَجْرِي مَنْكُمْ شَنَآنٌ قَوْمٌ عَلَى الْأَتَعْدُوا، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**»
ولأن دول الأرض في المصور القديمة والحديثة اهتمت بهذه القرآن في
هذا المعنى لحصر الحرب في أضيق دائرة ، ولذلك معظم الأسباب التي تحرك
الفتنة من صرّقدها ، وثير النار من مكمنها .

وما يقوله اليوم كثير من الساسة وقادة الشعوب ، وما قالوه من قبل من
أن الغرض من حربهم هو إقامة العدل والإنصاف ومنع الطغيان يتفق مع الدعوة
الحمدية ولو أنه لا يستند إلى مثل الإيمان والتدين الذي استند إليه ؛ ففي
الشريعة الحمدية كائنا سابقا لا يجوز الحرب إلا لدفع الظلم والمدعوان ، ولا
تنهي إلا عن الظلم والمدعوان وإقرار العدل والحق الذي يريد الله لا الذي
ترؤقه وتنمّه المطامع والشهوات ، ولا الذي يوجبه الخوف من العودة إلى
الظلم والمدعوان .

ويقول تعالى «**وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدُعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ**» .

فلا تُمْلِي شرائط الصلح عوامل الخوف ولا عوامل الطعم ، لأن الله موجهات الصلح
الذي نصر الحق وأيده بالمؤمنين كفيلاً بالنصر ما دام المراد وجه الله
والبر والعدل .

فلو كانت الدول الأوروبية وغيرها تُقْسِطُ وَتُنْصِفُ ما انتهت حرب سنة ١٩١٤ ،
من حرب سنة ١٨٧٠ بحسب حرب سنة ١٩٣٩ ، ولا انتهت هذه بحسب حرب سنة ١٩٣٩ ،
وكان نرجوا أن تعقب الحرب الأخيرة حالة تسود فيها روح الدعوة الحمدية
أفكار الناس وتستقر مبادئها في نفوس الزعماء والقادة لتكون خاتمة المآسي .
أما الرّياء وابتغاء حسن السمعة والداعوى التي يراد بها الدّخل والغش
فإن تزيد أصحابها إلا وبالاً والعالم إلا شَتَّاناً والحضارة إلا ضعفاً والمعuran إلا

خرابا ، وهي على النقيض تماما مما جاءت به الدعوة الحمديّة . ولست في هذا متهمّ قوما دون قوم ، ولا مدعيا بأن المسلمين الآن أحسن حالا وأصدق قولًا ورأيًا من أهل الملل الأخرى ، فليس هؤلاء وهؤلاء على شيء من روح الدعوة الحمديّة ، ولا صدق الإيمان بعبادتها .

وقد حرم الإسلام الخيانة في العهد سرا أو جهرا كتجريمه الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية ، فلا مجال عنده لإباحة تفضي العهد بالخيانة فيه وقت القوة ، كما أنه لا يرضى العهد الذي عليه القلب والظلم . فهل رأيتم أو سمعتم في الزمن الذي نعيش فيه بمهد عقد وكانت له الحرمة التي يريد لها الإسلام؟ لا ترون وتسمعون كل يوم بالذم المخفورة ، والمهود المباحة متى قدر أحد المتعاقدين على استباحتها ، أو ظن في ذلك فضلا له؟

ما قيمة المهدود والأيمان تعقد لتنقض ويختال في تفسيرها والخلاص منها متى لاحت مصلحة ، أو بدت منفعة من قرب أو بعيد ، أو ضمِنَ قويًا بسلطانه وقدرته العسكرية أن يفسرها كما يشاء أو ينقضها كما يشاء؟

أما ذلك الأدب الحمدي الذي جعل حرمة المهدود فوق حرمة الدين فضلا عن عرض الحياة الدنيا فلساننا نحن ولا غيرنا على شيء منه؛ فقد جعلت الشريعة حق الميثاق فوق حق الدين نفسه؛ فللمشرك من قوم يبنهم وبين المسلمين عهدٌ حق الدينه تدفع إلى أهله ، وليس للمسلم من قوم ليس لهم مع المسلمين ميثاق دية .

حرمة المهدود
فوق صلة الدين

وقد حرم كذلك الشريعة نصرة المسلم للمسلم على من يده ميثاق وهو غير مسلم؛ يقول تعالى « وإن استنصرتم في الدين فعليكم النصر» إلا على قوم يبنكم وينهم ميثاق» .

هذا هو التقديس للعقود والمواثيق ، وهذا هو الوفاء للأعداء الذي يبقى أبئ الدهر للناس فيه الهوى ، هو الأدب العالى في علاقات الدول وعلاقات البشر ، هو الأدب العالى في السلم وال الحرب .

عبد بسادع
وخليله يقر
عهده ١

وقد بلغ من احترام المسلمين للعهد أن أقرّوا عهداً الفرد من المسلمين بل عهد العبد منهم يومئذ به طائفة من المغاربين : كتب أبو عبيدة رضي الله عنه وهو قائد الجيش إلى عمر رضي الله عنه وهو الخليفة أن عبداً أمن أهل بلد بالعراق وسألها رأيه ، فكتب إليه عمر « إن الله عظيم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم ». وقد استمد عمر هذا الرأي من قوله صلى الله عليه وسلم « ويسعى بدمتهم أدنام » .

امرأة تخبر
والرسول يقر
جوارها

وكذلك أقرّ المسلمين أمان المرأة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « قد أجرنا من أجرتِ يا أم هاني ». وإن اختلف المسلمين في قيمة العهد الذي يعطيه العبد أو تعطيه المرأة باسم المسلمين واشترطوا إذن الإمام فإن الجمود متفق على احترام أمان الرجل الحر المسلم .

كرامة الفرد

ولا يخفي ما في هذا المعنى من سموّ عکان الفرد يتناسب مع المسؤولية التي وضعت على عاتقه مما يستلزم أن يكون على الجناب متوفر الكرامة والأدب مع الخصوم وفي الجيش ، فهذه الثقة به وهذا التقدير لحسن تصرفه ياعطاها حق التعاقد نيابة عن المسلمين جميعاً يحدث في نفسه عنزة وتقديرآ للحق يكفل استقامته خيراً من القوانين الزاحرة والعقوبة الرادعة . وتاريخ المسلمين فياض بأمثلة من أدب الحرب أشرت فروسيتهم في الغرب والشرق في الفتوحات الأولى وفي الحروب الصليبية .

مثلاً رائعاً لاحترام
كلة لم تكتب

وقد ضرب صاحب الدعوة الحمدانية بنفسه أعلى مثلاً في التاريخ في هذا الأدب العالي ، وفي الجد في عهوده وجبه الصراحة وبغضنه التحايل والالتواء والشكيد ، حينما كان يفاوض مُهَمَّيل بن عمرو في الحديبية : فييناً كان يكتب عقد المهدنة جاءه ابن مُهَمَّيل نفسه برسم في الأغلال ، وقد ذرف من الأعداء الذين كان يمثلهم أبوه ويتفاوض مع الرسول باسمهم ، وكان هذا ابن من آمنوا

محمد . جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو مستنصرًا وقد انقلبَ إلى المسلمين من أيدى المشركين ، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بيلايهه وقال : « يا محمد لقد لجئت القضية بيتي وبينك » أى فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا . فقال محمد صلى الله عليه وسلم : صدقت . فقال أبو جندل : يا مشرِّع المسلمين أَرْدَى إلى المشركين يفتُنونني في ديني ! فلم يُفْنِ عنه ذلك شيئاً ، ورده رسول الله وفقاً للشروط التي اتفق عليها ولم يكن قد كتبها ، ولكنه كان قد انتهى من المناقشة وقبل الشرط فلم يتحايل ولم يتردد . وإنَّ لا أعلم في تاريخ البشر مثلاً لرعاية الكلمة التي قيلت ولما تُكتب ولما تُمْضَى كهذا الذي ضربه رسول الله في الحديبية على مرأى من خصوصه وعلى كُرْهِه من أنصاره !

أين هذا الأدب وهذا الجدُّ بين الأعداء مما نحن فيه بين الأصدقاء ؟ بين المسلمين أنفسهم وبين المسيحيين أنفسهم وبين هؤلاء وهؤلاء من تحايل ولجاج ! ذلك لأنَّ الدعوة الحمدية تعلم أصحابها أنَّ حسابهم مع الله ، وأنَّه لا يغيب عن الله شيء ؛ فلابد لهم من الصدق في الظاهر والباطن والقوية والضعف ؛ فلو أُنْتَ أدب المهد الدولي في الحرب وفي السلم قام على مبادئها حرمة الإيغال وتقدير العقيدة لاستقر السلم على حرمة العهد وخفت وسائل الحرب وتضاءل شرها .

والشريعة الحمدية لا تبيح نقض العهد للطبع أو تحقيق أفراد من عرض الحياة الدنيا ، أو لاستعباد وظلم ، ولكنها تبيحه للصالح العام حتى خاف المسلمون خيانة المعاهد وتحقق لديهم ختل وسوء قصده ، فمُنْدُثْرٌ يجوز تبذ عهده : « وإنما تخافنَّ من قومٍ خيانة فأنبذ إليهم على سواه إن الله لا يحب الخائبين » ولكن لا يجوز لهم أن يحتالوا في ذلك ، أو يفاجئوا بنقض العهد من غير إنذار وإمهال ، وهو أدب وعرف جاءت به الشريعة قبل أن يقرَّه العرف الدولي

الحديث ، ومع الأسف لم تبق له حرمة في السنين الأخيرة ، وقد جرى عليه المسلمون حتى مع من لا عهد لهم . وقد أوصى النبي والخلفاء الراشدون ^{عَمَّا هُمْ وَأَمْرَاء} جيوشهم بالإذار قبل البدء بالحرب . وفتهاء المسلمين متفقون على أنه يجب إذار العدو حتى يعلم سبب نقض العهد ، وأنه ليس المراد منه سلب مالهم أو قتلهم أو سبيهم ، فربما أجابوا المقصود من غير حرب ، وأن القتال من غير دعوة ^{إِنْ شَاءَ} يستوجب غضب الله . فإذا ساءت ^{رِئَةُ} المعاهد وساء قصده ^{مِنْ بِحُورِ عَنْ} العهد ^{الْمَعْهُودِ} جعلها الله للمؤمنين تأفي عليهم الذلة والهوان والرغبة في السلم الذي يحيل ما تحرمه الشريعة ، أو يقر العدوان والسلطان والقهر . وفي مثل هذه الحالة يقول الله تعالى « فلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأُغْلَوْنَ » .

في أسباب الضرار العالمي

يُنْهَا الْمَهَاجِرُ بِسَقْعٍ وَمَعْرِفَةٍ أَنَّهُ مَهَاجِرٌ فَهُوَ سَقْعٌ مَهَاجِرٌ كَمَا هُوَ
 مَهَاجِرٌ وَبِهِ مَهَاجِرٌ وَلَقَلْبِهِ لَوْلَاتٌ وَمَعْرِفَةٌ أَنَّهُ مَهَاجِرٌ كَمَا هُوَ
 مَهَاجِرٌ فَهُوَ مَهَاجِرٌ وَلَمْ يَقْتَدِرْ بِهِ مَهَاجِرٌ مَلْوَقَةٌ وَسَبَلَةٌ لِيَقْدِمَ إِلَيْهِ
 مَهَاجِرٌ أَوْ يَطَّافَ بِهِ مَهَاجِرٌ طَارِيَّةٌ دَأْلَةٌ وَدَأْلَةٌ نَعْقَةٌ بِبَشَرٍ مُطْرَبٍ جَمِيعَ الْمَهَاجِرِ
 أَوْ قَوْمَهُ يَقْرَبُونَ إِلَيْهِ مَهَاجِرَانِ، بَلْ يَقْرَبُونَ إِلَيْهِ مَهَاجِرَانِ مَهَاجِرَانِ
 أَوْ مَهَاجِرَانِ إِلَيْهِ مَهَاجِرَانِ كَمَلَمَ الْمَكْتَبَاتِ وَالْمَكَانَاتِ لِكَانَ مَهَاجِرَانِ
 مَهَاجِرَانِ يَقْرَبُونَ إِلَيْهِ مَهَاجِرَانِ كَمَلَمَ الْمَكْتَبَاتِ وَالْمَكَانَاتِ لِكَانَ مَهَاجِرَانِ
 مَهَاجِرَانِ مَهَاجِرَانِ، مَنْ يَقْتَلُكَ لِيُلْتَسِّدَ إِلَيْكَ مَهَاجِرَانِ أَوْ مَهَاجِرَانِ شَاهِدَتِكَ
 مَهَاجِرَانِ مَهَاجِرَانِ، يُلْتَسِّدَ إِلَيْكَ مَهَاجِرَانِ عَلَيْكَ مَهَاجِرَانِ، وَالْمَهَاجِرَانِ
 مَهَاجِرَانِ وَمَهَاجِرَانِ بَيْنَ الْأَعْدَادِ حِلْمَنْ فِي بَيْنَ الْأَسْدَادِ أَوْ بَيْنَ
 الْأَسْدَادِ وَبَيْنَ الْمَهَاجِرِ أَنْتَهُمْ وَبَيْنَ هُولَاءِ وَهُولَاءِ مِنْ تَحْمِيلِ
 وَلِلْجَاهِ أَدْلَى لِأَنَّ الدَّجَاهَ الصَّدِيقَ سَمَّ أَصْحَابَ الْمَهَاجِرِ مَعَهُ وَأَنَّهُ
 لَا يَكْبِرُ مِنَ الْهَمْسَةِ وَلَا يَكْبِرُ مِنَ الْمُسْلِكِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَالْقُوَّةِ
 وَالْمُسْتَقْدِمِ أَوْ أَنْتَ الْمُهَوَّدُ الْمُوَرَّثَةُ فِي الْجَزْبِ وَفِي الْمَرْكَمِ عَلَى مَهَاجِرِ
 هَا سَرْمَهَا الْإِعْدَادِ وَتَقْدِيرِكَ الْمُهَاجِرَةِ لِاسْتِغْرِيَ السُّرُّ عَلَى سَرْمَهَا الْمَهَاجِرِ وَجَهْتُ
 وَجَاهَاتُ الْمَهَاجِرِ وَسَاحِلَاتُهَا

وَالشَّرِيعَةُ الْمُهَاجِرَةُ لَا تَسْبِحُ عَنْ أَهْمَمِ الْمَسْعِ أَوْ تَعْتَقِدُ أَنَّ أَهْمَمَ مِنْ
 عَرْسِ الْمَلَكَةِ الْدُنْيَا ، أَوْ الْأَسْبَادِ وَظُلْمِهِ وَلِكَبِيرِهِ الْمَسَاطِ الْعَدُمِ مِنْ
 مِنْ الْمُلْكِينِ فِيَنَهَا الْمَاهِدُ وَتَعْتَقِدُ لِيَسِّرْ حَتَّمَهُ وَسُورَهُ أَهْمَمَهُ ، فَمَنْ تَلَدَّدَ بِحُجَّرِهِ
 بِحُجَّرِهِ وَلَا تَلَدَّدَ مِنْ فَوْقِ حَرَافَهَا لَيْلَهُ الْمُهَاجِرَةِ الْمَاهِدِ عَلَى حَرَافَهَا لَيْلَهُ الْمَاهِدِ
 وَلَكَنْ لَا يَحْجُرُهُمْ أَنْ يَحْتَلُوا فِي ذَلِكَ ، أَوْ يَغْلِبُهُمْ بَعْضُ الْمَهَاجِرَةِ مِنْ صَرْ
 إِلَادَارِيَّا ، وَهُوَ أَدَتْ وَمُرْتَجَبَاتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ فَلَمْ أَنْ يَقْرَأْهُ الْمَرْفَهُ الْمَوْلَى

لما من دوافع عدائية تراكمت وصارت الأعراض المتنفسة التي تؤدي

إلى اضطراب لا ينتهي ولا يهدى **العنف**

تعني التردد والتلاشي والتحول إلى حالة آخر المستحبطة واللامبالاة
غير مهتم بالحياة - عدواني مع مرافقه - يبحث عنه غريبة غريبة
العنف في ذاته (العنف يهدم ذاتي) - أبو بكر العقاد - (أبو بكر العقاد)
- سيد الشهداء - سيد الشهداء - سيد الشهداء - شهيد الشهداء - شهيد الشهداء
العنف الشهيد هو العنف الذي يدعى للذات التي تحيط بالحياة وتحميه وتحفظها
والذي لا يهدى قيمه - (أبو بكر العقاد) - (أبو بكر العقاد) - (أبو بكر العقاد)
العنف شهيد العنف

سلع، تجربة يحيى لها عصبيون، تجربة مواتيات لها معاياز ومتطلبات لها
لذذاتية لها، تجربة لها شعورها، تجربة لها ذوقها، تجربة لها فنونها،
تجربة لها ذكرياتها، تجربة لها حاليها، تجربة لها أحلامها، تجربة لها نفسيتها
العنف ليس نوعاً من العنف، إنما هو معيار وتقدير، قادر على تحديد الفرق بين العقائد
التي لا تجري بها الأحداث وأولئك الذين لا يقدر أنهم يحيطون بما في عندهم، في
في أدوات العنف

في أدوات العنف

في أدوات العنف

في أدوات العنف

ـ رفيقة تذهب بها في سعادتها، فتلاعدها سعادتها، وتهلك سعادتها
ـ أبنة لا تدرك ما هي لسعاتهم لتعمل بذلك، لأنها لا تدرك السعادات
ـ أبناء يهلكونها، يهلكونها لأنهم لا يدركون السعادات

الاستعمار

إثارة الرغبة في بحث شامل — مقاتلون ومحايدون — الأسباب الأساسية
للاشتراك — الاستعمار أو الغرب ! — فرالله هي فرسانه ! — سراب ! —
سب المروب في القرنين الأخيرين — شر على الغالب — شر على المغلوب —
آثاره في الغرب وفي الشرق — محاولات لانتساب المفروج — الشخصية
بالاستعمار لتجاه المضمار — الدعوة الخمودية تتكره — لا حجة على الإسلام
[لا من نصوصه وسنة]

تناولت موضوع العلاقات الدولية من وجهة النظر الإسلامية ، ولست
بإثارة الرغبة في بحث شامل
نواحي عدّة منها ، ورجوت من هذا العرض العاجل في كلمات محدودة أن أثير
الرغبة في القارئين ، سواءً كانوا من الأمة الإسلامية أم الأمم الأخرى ، لبحث
مستفيضٍ فيما جاءت به الدعوة الخمودية ، لمُلْهَمٍ يجدون في أصولها وفروعها ملخصاً
من معنٰي المدنية الحاضرة ، وذلك الانطراب الذي أصاب البشرية بمحرين
شاملتين في مَدَى ربع قرن .

وإذا نظرنا للعالم الحاضر في الحرب الأخيرة ، وقد عمّ الدنيا شرّها ، نجد
ثلاث طوائف : طائفة تقتلان ، وثالثة تعتزلها ولا تسليم من شرها .
فإذا يشكوك منكـوـ منهـ الـ ثـلـاثـ ؟ أـمـاـ الطـائـفةـ الـ تـحـارـبـ تـانـ فـكـانـ كلـ مـنـهـاـ
تدعـىـ عـلـىـ الأـخـرىـ دـعـاؤـىـ لـاـ سـبـيلـ لـتـحـقـيقـهـاـ وـلـاـ فـائـدةـ مـنـ الـمـاقـشـةـ فـيـهـاـ ؛
فـكـلـ كـانـ يـقـولـ إـنـهـ مـظـلـومـ مـعـتـدـىـ عـلـيـهـ ، وـإـنـهـ يـحـارـبـ لـلـحـقـ وـإـقـامـ صـرـحـ
الـحـضـارـةـ . فـلـنـدـعـ هـذـهـ الدـعـاوـىـ حـقـهـاـ وـبـاطـلـهـاـ .

وأـمـاـ الطـائـفةـ الـ ثـالـثـةـ الـ مـعـزـلـةـ ، فـيـنـ مـحـايـدـ قدـ اـنـتـهـيـتـ حـرـمـاـتـهـ ، وـآخـرـ
شـاكـيـ السـلاحـ ، سـاـهـرـ اللـيلـ تـرـثـرـ أـرـضـهـ بـالـقـوىـ خـشـيـةـ أـنـ تـسـتـباحـ .
فـإـذـاـ نـظـرـنـاـ إـلـىـ أـسـبـابـ النـزـاعـ بـيـنـ هـذـهـ الـأـمـ نـظـرـةـ إـجـالـيـةـ خـلـالـ الـقـرـنـيـنـ
الـماـضـيـنـ بـدـاـ لـنـاـ أـنـهـاـ تـفـاقـمـ عـصـراـ بـعـدـ عـصـرـ ، وـقـدـ تـكـونـ بـلـفـتـ الذـرـوـةـ فـيـ
الـحـرـبـ الـأـخـرـةـ إـذـ شـمـلتـ الـقـارـاتـ الـجـنـسـ .

فما هي دواعي هذا الشر المتزايد؟ وما هي الأعراض المقيمة التي ظلت
عصرًا بعد عصر لا تستقر ولا تتحقق؟

أهي الفراغ بسعة الملك ، والتزاحم على جيازة الأمم المستضعفنة والاستثمار
بالتصرف فيها وفيما تملك من مواد؟

أم هي النزاع والخصومة ، بينطبقات على المصالح الخاصة والنظم
الاقتصادية .

أم هي الإفراط في التزعة الوطنية أو الفتنية وما يترتب عليها من
الأثر وحب الانفراد بالعزّة ، ثم إنكار حقوق الآخرين والتسلط عليهم ،
غيرانا كانوا أم في أقصى الأرض؟

أم هي طغيان المادّية وحب الترف ، مما ترتب عليه تركيز الاهتمام
في تجمّع المال ، والانحدار في المتابع العاجل كغاية للحياة ، فتباين ما بين طبقات
الأمة الواحدة من الفروق ، وأغري بعضها ببعض ، وآل ذلك إلى النزاع
الداخلي والخارجي .

أم هي انهزام القوى المعنية أمام القوى المادّية ، مما ترتب عليه
تبذيل الأخلاق والمقاعد والعرف الصالح ، فضاعت المرودة وقل الإيماء ،
وفشل الاستخفاف بالمعهود والمواثيق ، وصار الغدر والخداع من الأخلاق
الشائعة في علاقات الأمم ، وحل الخوف محل الأمان ، ودأب الناس على
الاستعداد للحرب ثم المواجهة بها؟

أم هي أسباب أخرى أعظم أو أصغر ، أم هي هذه جميعاً؟
قد يكون هناك أسباب وحوادث كثيرة ، لها أثرها الوقتي ، غير أن
نظرة فاحصة في الأسباب التي ذكرت تهدي إلى الاعتقاد بأن فيها أصول
الفساد العالمي ومبررات هذه الكوارث والحروب الطاحنة .

فهل تجاءت الدعوة المحمدية بأسباب وقائية وبعلاج لهذا الفساد؟
ذلك ما سنحاول بيانه.

أما السبب الأول الذي أشرنا إليه فيمكن حصرُه في كلمة واحدة : هي الاستعمار أو الغرب

الاستعمار الحديث . وليس أدئن على ما فيه من فساد ، وعلى قوته هذه الآفة من أن الحروب لم تكن هامة إلا بعد ظهوره وانتشاره . وبعد أن انتشر فشمل القارات الحمر وصار مظهراً وسبباً للصراع المادي انقلبت الحروب إلى شرّ عام . وبانتشاره تطاولت الأعناق إليه ، وظلت جميع الأمم أنه سبيلُ الفتن والقوة ، فتسابقت وتحاصلت وحقدت ، ولم يصُدُّها عنه أن رأت بعضها في الماضي وقع فريسة له ؛ فلقد كان بعض فرسانه الأول من الأسبان والبرتغاليين والفرنسيين فرائس له . وفي فرسانه الآخرين بعض العظام .

يقول (نيتي) رئيس وزارة إيطالية قبل ثلاث وعشرين سنة في كتابه (أوربا بلا سلم) « إن الطليان أنفقوا أربعة عشر ملياراً ليشتروا أغارة رمل » — يقصد ليبيا — فكم بلغ الثمن اليوم بعد أن أنفقت إيطاليا الفاشية ما أنفقت في ليبيا والجيشة وغيرها ؟ لقد استنزفت إيطاليا مالها ودمها وكيانها للاستعمار ولم تحصل إلا على الغراب والدمار . . .

سيدركون جيداً بعد هذه الحروب الدامية ، وقد أصيبت هذه الحضارة المادية بضررٍ كثيفٍ ، أن الاستعمار سراب يحيرون وراءه ، ويكتذبون عليه ، حتى إذا جاءوه لم يُفْنِهم عن العمل والكدّ والحياة الطبيعية شيئاً ، وأنه كالقذيفة تُلقى على الصخرة فتصيبها ، وقد تحدث بها حذماً ، ولكنها كذلك رعاً ارتدت فقضت على قاذفها .

والاستعمار سبب معظم الحروب في القرنين الأخيرين ، ولو أثره فيها جيداً، سبب الحروب في القرنين الأخيرين واستقصاء البحث في كل منها يرشد إليه في مكانٍ ما من الأرض : في تراث أمّة

مستضعفه أو في أحد المعبدات الحديقة من البرول والذهب والقمح والقطن وغيرها من ثغرات الأرض أو معادنها.

والواقع أن الاستعمار الأوربي على طرازه الحديث شرٌّ على الغالب والملووب، شرٌّ على المستعمر والمستعمَر. والشعوبُ الفالبة تستدرجُ بسببه إلى حياة التواكل فيصيّبها الترف القاتل، وتقع في خصومات مع الحاسدين والنافقين وتعرّضُ كيانها القوى للزوال. وما أصاب بعض الأمم منه في الماضي لا زال آثاره عالقة بها إلى اليوم.

والاحتفاظ بالمستعمرات كيدان للاستقلال المأذى يحيط بعستوى العيش في سكان هذه المستعمرات فيحدُّ من مقدرتها على الاستهلاك، فضلاً على فله روح الابتكار والنشاط والإنتاج فيها، ويضع بذلك سماً كبيراً من سكان العالم في منزلة الساعفة، فيصبحون حالة على البشرية.

كل ذلك مع ما أشرنا إليه مما يحرّك الحاسدون والطامعون من المكائد والمحروب، يسرع بالحضارة إلى الانهيار والزوال.

أم تكن حروب نابليون وما جرَّتْ من ويلات على العالم وعلى فرنسا آثاره في الغرب نفسها منشؤها الحقدُ والحسد بسبب الاستعمار والرغبة في السبق إلى أملاك المستضعفين؟ وكذلك حروب روسيا وتركيا والمتّسا.

أم تكن كلها للاستزادة من أملاك المستضعفين؟ وحرب اليابان والروس في أوائل هذا القرن، لم تكن تحدثَ على بعد الشقة بينهما لوم يلتقيا في سبيل التوسيع على حساب المستضعفين.

والحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الأخيرة مما اذعن لها من الأسباب فإن الحقد الدفين في صدور من قاتهم الغنائم، والرغبة في التوسيع وحيازة المواد الخام وأملاك المستضعفين، هي من أهم أسباب النزاع بين الأمم الفالبة القوية.

أليس الشعور الباطني في نفوس الأمم الكبيرة بشر الاستعمار هو الذي
دعاهما بعد الحرب الماضية **لتتأمّس المخرج** في نظرية الاتداب ونظرية حرية
تناول المواد الخام؟

سيستمر شر الاستعمار مستطيراً حتى يكتشف الناس بالتجربة وبالتجربة
حللاً منصباً للأقواء والضعفاء على حد سواء.

لقد كانت الحروب الماضية قاصرة على الجيران؛ أو على دولة وأخرى؛
فلما صار الاستعمار عالمياً صارت الحروب كذلك، فلابد إذاً من مبادئ عامة
لتسوية المشكلات العالمية. وستكون التضحيه بالاستعمار ضرورة لنجاة
الحضارة الحالية. وهذا هي ذي الشعوب الكبيرة **تتأمّس السبيل**، فيثاق
الأطلنطي وأشباهه من التصريحات التي جهر بها المتحاربون دليلاً على إدراكهم
ما جرّه الاستعمار من شر على الغالب والمغلوب.

هو شر على المغلوب لما يتناه ولا أنه يفيده شخصيته وخلقه وعزّته وفنته
بنفسه ومقدراته على العمل المنتج الكبير، فيصبح لا أثر له في تكيف
الحضارة العالمية. فكيف يستقر العالم من اضطرابه، ومئات الملايين من
البشر قد صارت عيّشات في تقكيرها ونشاطها على العشرات؟!

الاستعمار لا شك شر على الجميع، وإذا بقي الحكم للقوة في مصير الأمم
بعد هذه الحروب فإن المأساة ستستمر وتتجدد.

ومن فضل الدعوة الحمدية أنها تنكر الاستعمار وتحكيم القوة لأغراض
دينوية. فهي لا تبيح الحرب لتوسيع في الملك، أو للحصول على المواد الخام، أو
ولا لاحتكار الأسواق، أو لدعوى عددين الناس، أو لمهاجمة الاستراتيجية، أو
لاستعلاء وطن على وطن، أو ملك على ملك، أو عنصر على عنصر كي تكون
أمة هي أربى من أمة «بأنها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا

عماولات
للتامس المخرج

التضحيه
بالاستعمار لنجاة
الحضارة

المدعوة الحمدية
تنكره

تقولوا من ألق إلَيْكُم السلام لستَ مُؤْمِنًا تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا فعند الله
مَعْنَامٌ كثيرة».

وقد أشرت إلى ذلك في كثير من الفصول السابقة وسُقِّطَتْ في سبيل بيانه
الآيات والأحاديث وأمثلة من الواقع . ووجهة النظر الإسلامية في العلاقات
الدولية واضحة ، فالناس سواسية كأسنان المُشَط ، لا فضل لأحد على أحد إلا
بالتقوى والعافية ، أى حُبَّ السلام .

ف الإسلامي لا يعرف نزاعاً ليس المقصود منه أن تكون كلة الله هي العليا ،
وأن تكون الحزبات للجميع مكفولة .

قد يقول بعض الناس إن في تاريخ المسلمين ما لا يتفق وما تدعو إليه .
لَا جُنَاحَ عَلَى إِيمَانِ الْإِسْلَامِ إِلَّا مِنْ
نَحْنُ نَدْعُو إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَدِينِهِ لَا إِلَى مَا فَعَلَ بَعْضُ الْأَوْرَيْبِرْيُونَ ،
نَصَوْرُهُ وَسَنَهُ يُشَبِّهُ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ مَا يَفْعَلُ الْأَوْرَيْبِرْيُونَ ، وَقَدْ باهْتُوا بِالخَسْرَانِ كَبَاهْ المَهْدُونَ .
فلا شك أن الاستعمار بجمعه أشكاله تأبه الدعوة الحمدية ، وقد ثبت الآن
بعد نظرها ، بل ثبت سموتها وغرائزها الإلهي بما فعل الاستعمار بالناس قديماً ،
وما يفعل في المصور الأخيرة ، وقد اتسع شره وعم بلاه وجرّ الوبيل والخراب
في حروب عالمية متعددة .

ولنا الترجو أن يستيقن الناس إلى الهدى ، وأن يجدوا في هذا المبدأ الحمدى
وسيلة لإقامة العلاقات الدولية على غير ما تقضى به نظريات الاستعمار ، وأن تقوم
هذه العلاقات على الإباء وعلى تلك الروح الدولية الإسلامية التي لا تعرف
الجنس ولا الألوان ولا الوطنية الضيقة ، ولا العلم ولا الجهل ، ولا التقدم ولا
التأخر ، ولا تعرف البشر إلا إخوة من آدم ، وأ adam من تراب .

نزاع الطبقات

التفاوت قديماً وحديثاً — أمثلة من التاريخ العالمي — التفاصيل
العصرى في المذاهب والدعاوى — من آثار البخاري والكلهورى، — الرأسمالية
والعالية — في الدول الشبوبية والنازية والفاشية والديمقراطية —
البساطة الإسلامية في معالجة مشكلات المال — المبدأ ثابت والتفسير متعدد —
الصراع مع المصلحة — مثلان رالمان من حرية التصرف في الدولة — أكبر
مهام الدولة — لارتفاع من خصائص التوايق — الإيمان هو المارس
الأول على الصعيد العالمي — إزام الدولة بمعنى النزاع وبالذئب الاجتماعي
العنصر الروحى التهدى — محاربة الترف والبذخ — الرسول الزاهى
لائع الباقي — جمع بين المصحف والسيف .

نزاع الطبقات ظاهرة للاجحضارة الأوروبية ، وقد فشأ داؤه وعمَّ بلاؤه .

الناس منذ النشأة الأولى متفاوتون في الظواهر في هذه الدنيا ، منهم الفقير
والغني ، والحاكم والمحكوم ، والضعيف القوي ، والمريض والصحيح ،
يعيشون متعاونين متفاهمين في حدود القبيلة أو مجموعة القبائل ، أو اتحادات
القرى حول مدينة ؛ أو مجموعات المدن والقرى حول أعظمها ؛ فكانوا
بطبيعتهم مأخوذين بغيرزة الاجتماع والتعاون الذي أدركوه بالفطرة والتجربة .

وكانت هذه الجموعات البشرية كخلايا التحل ، تتعاون للإنتاج على
نظام مقبول من الجميع ؛ فإن لم يكن مقبولاً عن رضا فهو مسلم به طواعية وعزمًا .
وكان هذا النظام يضطرب ويختلط أحياناً بعذوان مجموعة أخرى ، أو
بسادٍ داخلي ينشأ عن شذوذ أو ظلم بالمنحراف هيئة قوية أو فرد قوي
واستبداده وأثرته ، ولا يلبث هذا الاضطراب أن يستقر بعودة الأمور إلى
نصابها ، وسيُرِّ التعاون في الخلية على مقتفي الغريرة والعرف المتفق عليه .

ولم يعرف الناس نزاع الطبقات عنصرًا للاضطراب والخلل كما هو اليوم ،
ذلك النزاع الحاد الدائم بين الفقراء والأغنياء ، والعمال والصناع والملائكة
وال媢يرين .

نعم قد نجد في تاريخ البشر دعوات قوية متطرفة كدعوة (المذكورة) أمثلة من التاريخ العالمي في فارس ، وكانت تقول بالمساواة التامة في المعاش ، ونجد في أعقاب الدولة الرومانية تزاعماً بين العامة والخاصة ، أو بعبارة أخرى بين العبيد والأحرار ، ونجد في صدر الإسلام أمثال أبي ذر رضي الله عنه يهجر الشام محتاجاً على الثراء وملكية الأرض ، ونجد الخوارج يُشَهِّرون سيفهم ويستسلون في سبيل الفوضى الاجتماعية ، فيقول المتطرفون منهم بأن لا حُكْم إلا لله ، وينكر ضرورة الحكومة مدعياً أن في طبيعتها الفساد ، وأن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بداع من الدين والوجдан ما ي肯 لاستقامة شئون المجتمع ، وينكرن حقوق الملوك ، وكان المعتدلون من الخوارج لا يُؤْثِرون ملكاً ملكاً ، ولا يؤثرون به يَتَا ولا قبيلة ولا سيداً على أي أحد من الناس ، ويقولون يامامة العبد ومساواته للقرشى والهاشمى ، ويتباهون ويحملون الناس على الزهد ، حتى كادوا يسُوّون ما ينهم في المعاش ولو أنهم لم يحرموا الملك .

ووجدت هذه الدعوات على أنها شاذة ، ومع ذلك لم تصل إلى شيء مما وصلت إليه الدعوة الاشتراكية أو الشيوعية ، ولا أدع ما ادعنا من المساواة في الرِّزق والكسب والملك ، ولم تقم على أنها تزاع طائفة من الصناع والعمال مع غيرها من الطوائف ، ولم تصل إلى مثل التزاع الحديث والحروب الدامية بين العمال والطبقات الأخرى .

فهذه الشيوعية ، وهذه الاشتراكية التي نظمت الأحزاب (العمالية) والاشتراكية والشيوعية لا شك جديدة ، وهي أثر مباشر للنظام (الأسمالي) الحديث .

وكان الناس على البساطة الأولى متمارفين ؛ فالجبار الغنى صديق جاره الفقير ، يعرفه شخصياً ويعرف أولاده ، يتصلون جميعاً في شيء من الإباء ، تجمعهم قربى الدم أو قربى الجوار ، وشيخ القبيلة أو القرية مهما حسنت حالته المعيشية

أو كُبر جاهه هو شيخ الفقير والغنى ، موصل الود بالجيم ، وغناء وراؤه لا يتوجه للزينة والترف والأثر ؛ فعزيز في الكرم ونخره في الإيثار ، وأبناؤه على عنتهم ككل أبناء القبيلة أو القرية ، يلعبون كما يلعبون ويقطّعون ويلبسون طعاماً ولباساً يشبه في جوهره ما يأكل الناس وما يكتسون .

فلم تكن دوافع الحسد والغيرة تحرّكها مظاهر الترف والبذخ يتمتع به الكبار والأغنياء ويسرون في أذى عيون الناس وآذانهم وفوسهم ، وكانت كذلك الثروات محدودة وجمهور الشعب في مستوى واحد .

فَلَمَا اسْتُخْدِمَ الْبَخَارُ وَالْكَهْرَباءُ تضخّمت الثروة واسعَ نفوذ أصحابها وكثُرَ عددهُمْ ، وحلَّتِ الْمُحَرَّكَاتِ الْآلِيَّةِ مُحَلِّي الْيَدِ ، وسُهُلَ الْاِنْتِقَالُ ، وزادت السرعة في كل شيء ، فنمّت التجارة وغا المال وبعدت الشقة بين الفقر والغنى فانحطّت مسوى طبقة الصناع والعمال ، وبسمت الدنيا لملائكة الآلة وملائكة الأرض والمساورة والتجار والمسيطرین على وسائل النقل ، وحلَّ النظام الرأسمالي الجديد بكل ما يصحبه من جفاف ازداد به الناس بعداً في الفِكر والمظاهر ، وانقلبوا أعداء .

من آثار البخار
والكهرباء

وكان لا بد للطبقة المفرومة ، وقد هبطت إلى نوع من العبودية للآلة وصاحبيها ، أن تتمس لنفسها سبيلاً للحرية ، وقد أحست أنها على كثرتها لا تملك من الأمر شيئاً ، فاحتقرت دساتيرها ، ورأيت فيها وسائل ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، تكون أرباب المال من التحكم واستخدام الشرطة للغلب ، غالب القلة المالكة الفرعية على الكثرة المفرومة القوية ، فاجهمت إلى الثورة ، ونظمت لذلك النقابات والأحزاب وأصبحت هذه عنصراً أساسياً من عناصر الانطراط العالمي .

الأسباب
والعوامل

وما كادت تنتهي الحرب العالمية الأولى حتى ابتدأت ثورات جامعة وفيّن دموية ووصلت ضحاياها في الحرب الأهلية الروسية إلى عشرات الملايين ، وفي

الحرب الأهلية الأسبانية التي استعرت نارها أكثر من سنتين إلى مليون ،
ولم تسلم بقية الأقطار الأوربية والأمريكية من قتن دموية ، ولا تزال الدعوة
تلهم غيظ الفقراء على الأغنياء ، وطبقات الصناع والعمال والزراع على المالك ،
وتهيء الأرض لانفجارات أشدّ خطرًا في كل مكان :

وقد أخذت الحكومات والشعوب في تلمس العلاج ، فذهبت مذاهب
شتي ؛ فبعضها ذهب إلى استئصال طبقة المالك كما حدث في روسيا ، وبعضها
إلى استئصال دعاة العمالية والشيوعية كما حصل في إسبانيا ، وبعضاً عوَّل على
القهر والاستبداد لإقامة الأمن والتوازن ، فسلبت الحرية الشخصية كما حصل
في إيطاليا وألمانيا ، إذ انزعزت الزعامة الدكتاتورية الأمر من يد الجميع .

وفي البلاد الديموقراطية لا تزال الرأسمالية تبسط كف العلاج بالهيئات
للطبقات المخرومة ، وتحايل للمخلص ، وقدرُها لا يزال في السماء !
ومن الصعب جداً في مثل هذا العرض السريع أن ندخل في بحث النظام
الرأسمالي ماله وما عليه ، كما يصعب كذلك متابعة المشكلة الاجتماعية ومتابعة
الأوريين والأمريكان فيما يعْرِضون من حلول ، وما يقادون من وسائل نظام
الriba والآثرة ، وسنكتفي بما ذكرنا معتمدين على معرفة أكثر القارئين لمعضلة
الزروع بين الطبقات وأسبابها وأثارها .

ولننظر فيما جاءت به الدعوة الحمدية من قواعد لنرى هل فيها العلاج
لمشكلة الاجتماع في هذا المصير ؟

أول مشكلات الاجتماع وأسباب الزروع هو الفقر ، وقد بتنا في فصل
البساطة الإسلامية في مسألة مشكلات التكافل والبر كيف عالجه الإسلام ، ونورد هنا بعض الحديث الذي يوضح أن
الإسلام من يسير مع المصلحة العامة في معالجة الفقر الذي هو السبب الأكبر
لزروع الطبقات ، وقد أخذت الشريعة لذلك سبيلين :
الأول - أنها جعلت للمحروم حقه الثابت في أموال الناس جميعاً ، وأقول

جِيماً لِأَنَّ الْحَدَادِيَّ مِنَ الْمَالِ أَوِ الْمِلْكِ أَوِ الْمُتَجَاجَاتِ الَّذِي تَسْتَعْقُ فِيهِ ضَرَائِبُ
الزَّكَاةِ يَسْتَطِيعُهُ كُلُّ صَحِيحٍ يَعْمَلُ ؛ فَالنِّصَابُ فِي زَكَاةِ الْفِطْرِ مثلاً هُوَ مَا زَادَ عَلَى
قُوتِ يَوْمٍ مِنْ خَبْزِ الشَّعْرَى ، وَقَدْ جَعَلَ فِيهِ الشَّرِيعَةُ حَقًا لِلْمَحْرُومِ .

وَقَدْ تَنَوَّعَتِ الْضَّرَائِبُ الشَّرِيعَةِ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ لِمُقاوَمَةِ الْفَقْرِ وَالْقَضَاءِ
عَلَيْهِ ، وَجَعَلَتِ هَذِهِ الْأَمْوَالِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ مُخْصَصَةً لِأَصْنَافِ الْمُتَحَاجِينِ ، وَلَيْسَ
لِإِمَامٍ أَنْ يَصْرِفَهَا فِي غَيْرِ مَا خُصَصَتْ لَهُ .

وَلَمْ يَبْيَنِ الْقُرْآنُ بِالتفصيلِ مَا تَجْبَبُ فِيهِ الزَّكَاةُ مِنَ الْأَمْوَالِ ، وَلَا الْمَدَارِ
الْوَاجِبُ دُفْعَهُ ، وَقَدْ يَدَنَتِ السَّنَةُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ كِتَبِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ لِنَ وَلَأَمَّ أَمْرِ الصَّدَقَاتِ ، وَبَيْنَ الْقُرْآنِ مِنْ تَدْفُعِ الْهُمَّ الصَّدَقَاتِ فَقَالَ :
«إِنَّ الصَّدَقَاتِ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةِ قَلْوَبُهُمْ وَفِي
الرِّقَابِ وَالْفَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيقَةٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» .

فَالْقُرْآنُ وَضَعَ الْمِبْدَأَ وَالرَّسُولُ فَعَدَهُ ، وَالْقُرْآنُ خَصَصَ الزَّكَاةَ وَعَلَى إِلَامِ
أَنْ يَوْجِهَهَا حَسْبَ الْحَاجَةِ ؛ فَقَدْ يَجِدُ أَنْ مَا كَانَ يُنْفَقُ لِتَحْرِيرِ الرِّيقَقِ أَوِ الْمُؤْلَفَةِ
قَلْوَبُهُمْ أَوِ ابْنِ السَّبِيلِ فِي زَمَنِنَا الْحَاضِرِ مَعْدُومًا أَوْ قَلِيلًا فَيُوَسِّعُ فِي نَصِيبِ
الْفَقَرَاءِ ، وَسَبِيلُ اللَّهِ الَّذِي يَدْلِلُ عَلَى مَعْنَى حَامِيِّ إِلَامِ إِلَامِ كَثِيرَةِ مِنِ
الْبَرِّ الَّذِي يَوْجِهُ لِلْمَصْلَحةِ الْعَامَةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ حَسْبَ مُواضِعَاتِ أَهْلِهِ ، كَالْتَّأْمِينِ
الْاِجْتَمَاعِيِّ الْآَنِ مثلاً .

الثَّانِي - لَمْ تَكْتُفِ الشَّرِيعَةُ بِهَذَا الْحَقِّ الْمَعْلُومِ فِي أَمْوَالِ الْقَادِرِينَ لِلْمُتَحَاجِينِ ،
بَلْ جَعَلَتِ الدُّولَةُ كَفِيلَةً عَلَى إِقَامَةِ التَّوازنِ الْاجْتَمَاعِيِّ ، فَرَأَى الدُّولَةُ مَسْؤُلَّاً عَنِ
هَذَا التَّوازنِ يَعْدَلُهُ بِالْزَّكَاةِ ، فَإِنْ لَمْ تَكُفِّ فَلَهُ بِاسْمِ الْمَصْلَحةِ الْعَامَةِ أَنْ يَأْخُذُ مِنِ
أَمْوَالِ النَّاسِ لِلصَّالِحِ الْعَامِ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَقْيِيمَ الْعَدْلَ بِالْقَسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .

وَحِينَما كَانَ هَذَا الْعَدْلُ قَمَّ شَرْعَ اللَّهِ وَدِينِهِ . فَإِذَا فَرِضَ أَنْ هَذَا الْعَدْلُ
يَقْتَضِي أَمْرًا لَا نَصَّ فِيهِ وَلَا أَنْرًا شَرِيعًا فَعَلَيْهِ أَنْ يَجْتَهِدْ بِرَأْيِهِ .

الْمَبْدَأُ ثَابِتٌ
وَالنَّتْهَى مُرَدِّ

الْعَدْلُ مَعَ
الْمَصْلَحةِ

واليكم مثلين من اجتهاد الإمامين الكبيرين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : كان أبو بكر يقسم المال بين الناس على السواء ، لا يفضل أحداً على أحد ، فقيل له : يا خليفة رسول الله ، إنك قسمت هذا المال فسوّيت بين الناس ، فهنّ الناس أناس لهم فضل وسابق وقدم ، فلو فضلت أهل السوابق والفضل بفضائهم ؟ فقال : « أما ما ذكرت من السوابق والقدم والفضل فما أعرّف بذلك ، وإنما ذلك شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش ، فالآنسة فيه خير من الأثر » .

فلما كان عمر وجاءت الفتوح فضل وقال : « لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه » وعلى ذلك أسس ديوان الجيش . ومع ذلك ، فعمر الذي لم يتبع الرأي الذي يقول بأن الآنسة في المعاش خير من الأثر هو الذي ترك ظاهر النصوص القرآنية في الغنائم ، إذ قال : لما فتح الله على المسلمين العراق والشام ردّاً على من أرادوا قسمة الأرض بين فاتحها والاحتفاظ بالخمس فقط للصالح العامة : « فكيف عن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض بعلوها ^(١) قد اقتسمت وورثت عن الآباء ؟ ما هذا برأي » . فقال له عبد الرحمن بن عوف : « ما الرأي ؟ ما الأرض والملوّح إلا ما أفاء الله عليهم » فقال عمر « ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله لا يفتح بعدي فتح فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلاماً على المسلمين . فإذا قسمت أرض العراق بعلوها وأرض الشام بعلوها فما يُسدّ به الثغور ؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام وال伊拉克 ؟ » فأكثروا على عمر وقالوا « توقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضرُوا ولم يشهدوا ^(٢) ولا بناء قوم ولا بناء أبناءهم لم يحضروا ^(٣) » فكان عمر لا يزيد على أن يقول : هذارأي . قالوا : فاستقر ، فاستشار المهاجرين الأولين فاختلقو ، فاما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه

(١) جمع علّج وهو الواحد من كفار العجم .

أن تقسم لهم حقوقهم ، وكان رأي عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رأي عمر ، فارسل إلى عشرة من الأنصار : خمسة من الأولين وخمسة من الخزرج ، من كبرائهم وأشرافهم ، فلما اجتمعوا قال : « إني لم أزعجكم إلا لأن شتركتوا في أمانتي فيما سُخِّلت من أموركم ، فإني واحد كائديكم وأنتم اليوم تُقرُّون بالحق ، خالقوني من خالفني ووافقني من وافقني ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هَوَى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق ، فوالله ! لأن كنت نطقت بأمر أريد به إلا الحق » قالوا : « قل نسمع يا أمير المؤمنين ». فذكر لهم وجهاً للخلاف ، فأيدُوا رأيه ، فقرر إبقاء الأرض بأيدي أهلها ، وضرب الخراج عليها ، وسكت المخالفون اتباعاً للرأي الغالب .

هذا مثلٌ من تصرف تلميذ الرسول وخليفته في أمر جاء به نصٌّ وهو نفسه يسلم بهذا النص . غالب عمر رضي الله عنه الرأي الذي قضت به المصلحة العامة التي رآها ورأتها الأغلبية من عقلاء المسلمين أهل الشورى .

فالشريعة الحمدية لا تتفق مكتوفة اليدين متى بانت المصلحة العامة ، بل هذه المصلحة والعدل هما غرض الشريعة الذي لن تتجاوزه .

فإقامة توازن اجتماعي يرفع به شر الحاجة عن الحاج ، ويستقيم معه العدل والتأمين الاجتماعي هو أكبر مهام الدولة الإسلامية . ومسئوليية الإمام وأهل الشورى في ذلك واضحة .

والدعوة التي لا يتزدّد صاحبها وأتباعه في إقامة ميزان العدل الاجتماعي على أساس المصلحة العامة لا يمكن أن تقوم المخصوصة بين أنصارها على أساس المصالح الطائفية الدينية ؟ فالصلحة العامة لا تتجزأ ، والطائف لا وجود لها متى كان الكل بعيداً الله متساوين ، وكانت مصلحة الكل فوق مصلحة الفرد أو الطائفة .

أكبر مهام
الدولة

للاختصاص ولا
تزال مقفلة
النيلات

قد يقال إن أكثر ما يختلف عليه الناس يقوم على دعوة من المصلحة العامة، وإذاً فليس ما أنت به الدعوة الحمدية من ترجيح هذه المصلحة بكافٍ لمنع الخلاف، ولنست كلَّ العدل ذات معنى واحد عند الناس ليكون العدل ميزان ثابت. وهو اعتراض صحيح إذا كانت هذه المصلحة مطلقةٌ بغير حدٍ، وكانت هذا العدل متروكاً ل مجرد ظنِّ الناس، وذلك مالم تتركه الدعوة الحمدية للهوى.

فالشرعية الإسلامية تستمد تعاليها من الإيمان برب العالمين إله الناس جيماً الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ومن الإحسان الذي لا تُقبل فيه الدعوى، والذي يقصد به وجه الله.

فإنَّ الجماعة المؤمنة إذاً لا تستطيع أن تترك رأيها للشهوات، والمصلحة العامة عندها واحدة تقوم على العمل الذي يرضي خالق الناس جيماً، فلها صابطٌ من الوجدان الطاهر البريء. والمصلحة العامة كذلك محدودة بما تقتضيه الأخوة التي قررها الدين وجعلها شرطاً لثباته «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». «كلكم من آدم وأ adam من تراب». فعنصر الأثرة منقى بالعقيدة، وفي هذه العقيدة أكبر ضمان.

والمصلحة العامة أيضاً ليست موكولةٌ لصدفة، لأن على الأفعال حساباً يقتضي من إلهٍ علیم في الدنيا والآخرة، فهو يجازي الأمم المعرفة بالآلة المتاخذة في الدنيا، ويحاسب الناس على أعمالهم في الآخرة. والعدل هو الإنصاف بالحق موزوناً بالإخاء والمساواة، فليس عدلاً ما يتنافى مع الإخاء والمساواة.

وعليه فالدولة الإسلامية التي يكفل فيها الإمام التوازن الاجتماعي والتي تقوم على قوله تعالى «وزِّعوا بالقسطناس المستقيم» والتي أخذَ فيها رأي عمر

رضي الله عنه في ظرف ما وعده به عن ظاهر النص القرآني عدوا لا يبرره
المصلحة العامة لا محل ولا سبيل لنزع الطبقات فيها.

قد يقال : إن ذلك صحيح ما دام خوف الله وطاعته أصلًا في اعتبار
المصلحة العامة ، فما القول إذا صاغ الإيمان وفسد الوجدان ؟ والجواب أن ذلك
هو مأصاب العالم وجر هذه الوييلات على الحضارة الأولية ، وجرّها بالطبع
على المسلمين والشرقيين منذ آماد طوبلة .

ومع ذلك فالشريعة الإسلامية بما أوتيت من سعة الأفق وحسن التقدير
قد فرضت كذلك مثل هذه الحال فأقامت الزجر والتغبيف لرد الناس إلى الحق ،
حتى أباحت القتال لنصرة المظلوم ، ووكلت إلى ولی الأمر إقامة الحق بالقوة ،
إذ لما ارتد العرب وأبووا أن يدفعوا للفقراء حقوقهم قاتلهم أبو بكر وقال
« والله لو منعوني عقال بمير كانوا يؤذونه لرسول الله لقاتلتهم عليه ! » فلم
يكل أمر الفقير لوجдан الناس وقاتلهم على حقه .

والشريعة الحمدية حين خصصت بنص القرآن إبراد ضرائب الصدقات
للتأمين الاجتماعي ضد صنوف من الحاجة لم تكمل الناس إلى وجدان الإمام
أو الدولة ، وزادت على ذلك أن جعلت للإمام أن يفرض في أموال الناس
بقدر ما يؤمّن الحاجة ، كما عليه التزامات لا مخاص من منها لأصناف من المصايبين
في المجتمع أشار القرآن إليهم ، ولا بد له من أدائها من يات مال المسلمين .
ويُعَكَن أن يضاف إلى هؤلاء الأصناف أصناف أخرى من ذوى الحاجة
بالقياس ؛ فعليه مثلاً علاج من لاعائل له من المرضى ، وإرضاع من أبت أمّه
إرضاعه ، وإيواء من لا مأوى له ، وإطعام من لا عمل له ، وإعانة قادر على
العمل بتمكينه من العمل .

فالشريعة الحمدية لم تترك الأمر لوجدان الناس وحده ، ولو أنها في

ازام السلطان
بعن زرع
الطبقات
وبالأمير
الاجتماعي

الحقيقة كانت حكيمه في استخدام الوجدان كأحسن أداة لعلاج المشكلة الاجتماعية .

وقد أشرنا إلى ضرائب الصدقات باعتبارها أداة لمقاومة الفقر وبالتالي علاج المشكلة الاجتماعية ، وأشرنا كذلك إلى حق الإمام في التشريع والاجتهد برأيه بعد استشارة ذوى المقول والعلم من أهل الرأى متوكلاً على المصلحة العامة وحائلاً بين الطبقات والطوائف وبين النزاع والتحاصل والبغضاء ، فهذه الضرائب المقررة بنص القرآن والباحثة باجتهاد الإمام ورأى جماعة المسلمين أصل ثابت في مقاومة الفقر .

وقد عولت الدعوة على الوجدان تعويلاً كبيراً وجعلت جزءاً للمحسنين العنصر الروسي التهذيب الجنّة ، فترى التحرير يضيّع على إتفاق المال في سبيل المحتاجين إليه يتعدد في آيات الكتاب في كل مناسبة ، وفي أقوال الرسول في كل حين . وليس هذا مقام سرد عشرات الآيات وعشرات الأحاديث ويكتفى قوله تعالى « قل لعبادِيَّ الَّذِينَ آمَنُوا يَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنفِقُوا مَا رَزَقْنَاهُمْ سَرًّا وَعَلَانِيَّةً مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَعْلَمُ فِيهِ وَلَا خَلَالٌ » .

والتربيّة الحمدية تهذّب يرمي إلى التكافل الاجتماعي ، ويحمل الفرض من العمل والحياة البرّة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القُربَى وينهى عن الفحشاء والثُّنُكَرِ والبغْيِ » فكل شخص حسنت تربيته فهو مهياً تماماً للخدمة الاجتماعية ؛ وهذه التهذيبة بالتربيّة الحمدية هي أفعى الوسائل في مقاومة آفات المجتمع وأقدرها على جمع الناس ومنع النزاع .

وإذا اعتبرنا ما ذكرنا من وسائل مقاومة المشكلة الاجتماعية عملاً إيجابياً في الدعوة الحمدية لمنع حرب الطبقات ، فإن الأسباب السلبية ليست أقلّ أثراً

في هذا السبيل ؛ فيينما نجد أن الدولة الإسلامية هي أكبر مؤسسة للتأمين الاجتماعي ، يرأسها إمام المسلمين ويقوم فيها أهل الشورى مقام مجلس الإدارة في الشركة ، ونجد هذه الدولة تعمل لرفع مستوى العيش للطبقة المخرومة ، نجد كذلك الدعوة الحمديّة تقاوم بسلاح الإيمان والدين الإسراف والترف لتنزل بمستوى البذخ إلى مقام لا يثير الحسد والضغينة ، فتنهى على المترفين والمسرفين في شهواتهم وتحذرهم سوء المصير وعداب الله والحرمان الآخرة ، بل لا تكتفى بذلك وتندِّر المجتمع كله بالويل لتركه مُشرِّفَيه ومُتَرَفِّيه دون رزْع ولا زجر . « واتقوا فتنَّا لا تصيَّبَنَّ الَّذِينَ ظلمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً » « وكوا واشردوا ولا تُشْرِفُوا إِنَّه لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » « وَكَمْ أَهْلَكَنَا مِنْ قَرِيبٍ بَطَرَّتْ مَعِيشَتَهَا فَتَلَكَ مَا كَنْهُمْ لَمْ تُشْكِنْ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَكَنَا نَحْنُ الْوَارِثُينَ » .

ويقين أن من أسباب احتراق المجتمع الاجتماعي كثرة المترفين في الأمة « وإذا أردنا أن نُهْلِكَ قرية أمرنا ^(١) مُتَرَفِّيها ففسقُوا فيها فحق عليهم القول فدمّرناها تدميراً » .

أحلَّت الدعوة الطيبات من الرزق ، ولكنها حرَّمت على الرجال ليسَ الحُرْير والذهب كرمٌ لبعضها الترف والزينة السَّكاذبة ، وأباحت للفساد الزينة ، ولكنها قاومت غلوّ المرأة بإعطاء القوامة للرجال ، وبعنهما من الظاهر في تبرج . وما زالت الشريعة تحذِّد من الإسراف والترف وبذخ العيش حتى ظن الناس أن ليس لغنى سبيل إلى ملكوت السماء بغير الخروج من ماله ، وصار التقشف رمزاً للتفاني .

ولقد كان رسول الله قدّسَ عَلَيْهِ مَا أُوتِيَ من سُلْطَةٍ أَكْبَرَ الزَّهَادِ : يقول ابن مسعود : « دخلت على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر في جنبه وقلت : يا رسول الله لو أخذنا لك وطأة نجعله بينك وبين الحصير يقييك منه ؟ فقال

محاربة الترف
والبذخ

(١) أي أمرناهم بأوامر التق وتهيئتهم عن الآلام والسوق والأمر في الله يدخل النهي .

«مالي وللدنيا ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

ويروى ابن هشام عن زيد بن أسلم «ما استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درها . فقام أسيد وخطب الناس فقال : أيها الناس ، أ جاء الله ك بد من جاء على درهم ! قد رزقني رسول الله درها كل يوم فليس لي حاجة إلى أحد» .

وروى أن رسول الله دخل على فاطمة وفي يدها سلسلة من ذهب ، وهي تقول لامرأة عندها : هذه أهدتها أبو الحسن — تقصد عليها زوجها — فقال صلى الله عليه وسلم : «يا فاطمة أيسرك أن يقول الناس : ابنة رسول الله في يدها سلسلة من نار ! » ثم خرج ولم يقعد ، فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بثمنها عبدا فاعتقته ، فحدثت رسول الله بذلك فقال «الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار» .

وكان دعاؤه صلى الله عليه وسلم : «اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً ،
أي لا يزيد عن الحاجة .

وعن أبي أمامة الأنصاري قال : ذكر واعتدى النبي الدنيا فقال : «الآتيسعون ؟
الآتيسعون ؟ إن البداءة من الإعان . إن البداءة من الإعان» أي التواضع في
اللباس والزينة .

فالدعوة الحمدية قد قاومت الفقر والترف فقاومت البغض والحسد ،
واستحال معها نراع الطبقات . هوت بفضل الأموال والأحساب وسمت
بفضل التقوى والقناعة ، وعوضت الناس عن كثير من متاعهم المادي بمتاع
روحى ، فلا شك أن فاطمة حين باعت السلسلة وحررت العبد كانت تشعر
بغبطة وسرور كلما ذكرت فعلها ، أكثر مما لو أبقيت السلسلة في يدها .
وهل كان عمر غالب قيسرو كسرى ، وهو في ثوبه المرقع أقل متاعاً
بنفسه الراضية من المترفين الجبارية في قصور قيسرو كسرى ؟ كلا .

ولقد كان النجاح الذى أتيته الدعوة الحمدية فى علاج المشكلة الاجتماعية
بوسائلها السلبية والوجданية أعظم أثرًا فى إصلاح المجتمع من وسائلها الإيجابية
بضرائب الصدقات أو كفالات الدولة للمحتاجين بسطوة السيف والقانون .

مع بين المصحف والدعاة التي استطاعت أن تجمع بين السيف والوجدان ليتسلطا في
وقت واحد ، ويسيرا في نهيج واحد لغاية واحدة هي مواجهة آفات الاجتماع ،
هي الدعوة الموقفة التي ستظل حية على مدى العصور .

التزعات العنصرية والوطنية

العنصرية قديماً وحديثاً - الوطنية والقومية الحادة عصبية حديثة -
أثر التشدد في الحدود الجغرافية والجنسية - انتقال العصبيات الحادة إلى
الفرق - نظريات اختلاف الدم - أمراض الهجرة الإجبارية -
بارود المروب الحديثة - الإسلام لا يعرف وثنية النصر والوطن -
وضع العلاقات البشرية على أساس معنوي - خلاف أئمَّة من خلaf -
القوة ليست وسيلة الإسلام لتحقيق أهدافه - لا سيادة ولا عبودية .

ولننظر الآن في سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمي وهو الإفراط
في النزعة الوطنية والعنصرية وما ترتب عليها من الآثار وحب الانفراد
بالغزة والسلطان وإنكار حقوق الآخرين ، ثم الزراع والتسلح وال الحرب .

كان الناس يتنافسون قبائل ويتحاسدون ملوكاً ويعتزلون على الله أو في
سبيل الله ، ولم تكن نعمة الوطن ولا نعمة المنصر فاصلاً حاسماً بين المجموعات
البشرية كما أرادتها المدينة الحديثة . وتاريخ العرب والترك والبربر وغيرهم من
الأقوام الإسلامية حافل بالنزاع القبلي ، بعيد عن الزراع العنصري ، وكذلك
كان الشأن في أوروبا ، وكانت الأسرة الملكية تضم تحت رايته باسم الولاء
للملك أو باسم الولاء للمذهب قبائل وشعوبًا تتحدد مصالحها وإن اختلفت
أصولها أو لغاتها ، وأحياناً عقائدها . وكثيراً ما تكون هذه الأسرة غريبة ،
أو تكون من الأقلية القومية في الدولة ، فستكون تحت رايته مجموعة تربطها
القوانين وتتسم لأقلياتٍ شتى تعيش تحت الرأي ، ينالها من الشقاء والسعادة
مثلُ ما يصيب الجميع .

وكثيراً ما تكون هذه الأقليات أرغبت في هذه الرأي والولاء لها منها
لأقرب الأقوام والمعاصر من جنسها أو لفتحها تحت رأي آخر .

كان الأمر كذلك في كثير من الدول التي عاصرناها كالدولة العثمانية

تحت لواء آل عثمان ، والدولة النسوية الجيرية تحت لواء آل هيسبرج ، وقد شاهدنا شعوبًا من العرب أشدَّ ولاه وإن خلاصًا لدولة آل عثمان منهم لأصرائهم وأشرافهم من العرب .

وكان الأسر كذلك في الدول القدِّيمة ، وفي دول القرون الوسطى ، كالدولة العباسية والإمبراطورية الرومانية المقدسة والإمبراطورية البيزنطية . وكذلك عرفنا من الصقالبة في دولة النساء من كانوا أوْفِيَّ لها منهم لأبناء عمومتهم من الروم .

كانت الرغبة متساوية في السيادة أو العبودية للملك القاهر فوق الجميع ، وكان يرقى سُلُّ المناصب كلُّ من سمحَت له مواهبه وظروفه في خدمة الملك أو السلطان ، فتجدد البرامكة وآل طاهر الإبرانيين ، أعلى الناس مقامًا في خلافة الهاشميين من العرب ، وعائلة (كورلي زاده) من الأرناؤوط في خلافة العثمانيين من الترك ، بل لقد صعد هذا السُّلُّم من العبيد في الدول الإسلامية عددًا أكثر بكثير مما تاذن به نسبتهم العددية ، وبلغ الذروة من المالكين ما بين مصر والهند في الدول الإسلامية عشرات السلاطين ومن لا تزال آثارهم خالدةً في دهلي والقاهرة ، وفي تلك الساحة الإسلامية العظيمة من الأطلسي إلى الهادئ .

ولم يكن الناس يتساءلون عن عنصر ولا أصل ، وإنما يتساءلون عن عملٍ وخلقٍ ودينٍ . فن المالكين الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة في مصر والبلاد الإسلامية بحمد الأرمني والروسي والصقلي والكرجي والشركسي والتترى والتركي والفرنجي والسوداني والخبيسي . ولو تعقبنا أنصارهم لانكشفت لنا عن جميع ألوان البشر .

لـ فلم تكن الوطنية بمعناها الحديث ، ولا القومية بمعناها الحاضرة حداً فاصلاً بين الناس كما صارت في العصور الأخيرة .

فالوطنية والقومية بمعناها الحالى لم يكونا مع الأسف خطوة في سبيل

الاستقرار ، بل كانتا عاملان لزيادة الاضطراب العالمي ، وسبباً جديداً لنزاع
أوسع دائرةً وأعصى حلّاً.

ائز الشدد في
الحدود والجغرافية
والجنوبية
فإن الوطن باعتباره مُقاماً جغرافياً لقوم من الأقوام لم يستطع أن يحدد
حدوداً لجنسه من غير أن يصطدم بقوم آخرين وبانتشارهم ، ولم تساعد الطبيعة
إلا نادراً على تحديد ساحة خاصة لعنصر خاص . ففي أوروبا كلها لا تجد إلا الجزر
البريطانية التي حددتها البحر ، ومع ذلك فلم تخل إيرلندا من نزاع مع بريطانيا
على مقاطعة (أستر) في شمال إيرلندا .

وقد مر قرناً على الأقل على أوروبا ، وقد غرقـت في دماء حروـبها لتعديل
الحدود وتحـرير الأقليـات بين الفرنـسيـين والألمـان ، وبين هـولـاء والـنسـاويـين ؛
وبيـن هـولـاء وهـولـاء الصـقالـبة ، وبيـن النـسـا وإـيطـالـيا ، وبيـن البـلـقـانـيـين
جيـعاً ، وبيـنـهم وبيـنـ الدـوـلـةـ العـمـانـيـة ، وبيـنـ روـسـياـ وجـيرـانـهاـ منـ الغـربـ أوـ الشـرقـ
أوـ الجنـوبـ ، وبيـنـ التـشـيـكـ والـبـولـنـديـينـ والـمـجـرـ والـرـومـانـيـينـ .

وهـكـذا نـجـدـ النـزـاعـ عـلـىـ ماـ يـسـمـيـ الوـطـنـ وـحـدـودـهـ قـائـماـ لـاـ يـسـتـقـرـ بلـ يـزـاـيدـ
عـلـىـ مـدىـ الـأـيـامـ ، وـعـلـىـ قـدـرـ الـجـدـدـةـ فـيـ الـعـنـصـرـيـةـ وـالـوطـنـيـةـ .

فـاـلـمـ تـكـنـ الطـبـيـعـةـ بـالـمـصـادـفـةـ قـدـ فـصـلـتـ فـيـ الـأـمـرـ بـحـرـ أوـ جـبـلـ لـاـ يـنـالـ ،
كـالـهـمـلـاـيـاـ بـيـنـ الـهـنـدـ وـالـصـيـنـ فـلـاـ يـدـ منـ النـزـاعـ .

اعمال المصبات
الماء إلى الشرق
وـهـذـهـ المـشـكـلةـ الـأـوـرـيـةـ الـمـسـتـعـصـيـةـ وـمـاـ يـتـبعـهـاـ منـ نـزـاعـ عـلـىـ الـحـدـودـ وـنـزـاعـ
عـلـىـ الـعـنـصـرـيـةـ وـمـاـ تـنـطـوـيـ عـلـيـهـ مـاـ شـاكـلـ الـأـقـلـيـاتـ ، أـخـذـتـ تـنـتـقـلـ إـلـىـ الشـرـقـ
نـتـيـجـةـ لـتـأدـيـهـ بـأـدـبـ الـغـرـبـ ، وـاعـتـنـاقـهـ نـظـرـيـةـ الـوـطـنـ وـالـقـوـمـيـةـ ، فـأـخـذـنـاـ نـسـمـعـ
فـيـ السـنـينـ الـأـخـيـرـةـ بـقـضـاـيـاـ شـبـهـيـةـ بـالـقـضـاـيـاـ الـبـلـقـانـيـةـ عـلـىـ سـنـجـقـ الـإـسـكـنـدـرـوـنـةـ
بـيـنـ سـوـرـيـاـ وـتـرـكـيـاـ ، وـعـلـىـ شـطـرـ الـعـرـبـ وـالـحـدـودـ بـيـنـ الـعـرـاقـ وـإـرـانـ . وـلـمـ
يـكـنـ الـمـسـلـمـونـ بـتـرـيـتـهـمـ الـحـمـدـيـةـ يـتـنـازـعـونـ عـلـىـ مـشـلـ هـذـهـ الـقـضـاـيـاـ باـعـتـارـهـاـ
مـشـاـكـلـ عـنـصـرـيـةـ ، وـسـتـكـونـ هـذـهـ الـمـشـاـكـلـ سـبـبـاـ لـبـلـاهـ الشـرـقـ كـاـ كـانـتـ سـبـبـاـ

للحروب الدامية في الغرب ، فيتนาزع العرب والترك والكرد والشركس والأذريجانيون والإيرانيون والأفغان والهند والأزيك والصين والمغول .. إلى آخرهم ، على الحدود والأقاليم ، حتى يدخل الشرق جُحرَ الضَّيْقِ الذي دخله الغرب !

والوطنية بالمعنى الحديث شرُّ جديـد ، والنصرية بلاهـ أعظم ، ولا دواهـ لها إلا بهـ تـغيـر عشرات الملايين من مـنازـلـهاـ الـحـالـيـةـ ، وـحـصـرـ كـلـ مـنـهـاـ فيـ نـطـاقـ جـغـرـافـيـ خـاصـ .

نـزـاراتـ اـخـتـلـافـ الدـمـ
وقد أخذ بعض الأوربيـن يـسـرـ فـيـ الدـعـوـةـ العـنـصـرـيـةـ ، فـغـالـوـنـ فيـ مـعـنـاهـاـ وـاشـطـطـوـاـ فيـ مـرـمـاـهـاـ ، بـجـمـلـوـاـ عـنـصـرـاـ سـيـداـ نـقـيـ الدـمـ وـآـخـرـينـ دونـ ذـلـكـ . وـهـوـ أـمـرـ مـعـالـ لـأـوـجـودـهـ ، يـزـيدـ الـعـالـمـ اـضـطـرـابـاـ وـخـصـامـاـ .

ومن ذـاـ الـذـىـ يـسـتـطـعـ آـنـ يـفـرـزـ الـأـقـوـامـ وـيـحـلـلـ دـمـاهـاـ وـيـكـفـيـ النـاسـ شـرـ الـأـقـلـيـاتـ الـمـذـهـبـيـةـ وـالـلـغـوـيـةـ وـالـقـومـيـةـ ، وـيـكـفـيـهـمـ بلاهـ الحـدـودـ الـتـىـ لـمـ تـأـذـنـ بـهـاـ الـطـبـيـعـةـ وـلـاـ الـعـقـيـدـةـ وـالـفـكـرـ ؟

أـشـارـاـنـ الـهـجـرـةـ الـإـجـبارـيـةـ
وقد جـرـبـ اليـونـانـ وـالـترـكـ الـهـجـرـةـ الـإـجـبارـيـةـ ، وـلـمـ يـسـتـفـدـ مـنـهـاـ اليـونـانـ وـلـاـ الـترـكـ رـغـمـ ماـصـبـهـاـ مـاـضـتـرـابـ وـقـسـوـةـ فـيـ نـزـعـ النـاسـ مـنـ مـنـابـعـهـمـ وـمـسـاقـطـ رـهـوـسـهـمـ . عـلـىـ آـنـ هـذـاـ التـهـيـرـ الـذـىـ كـانـ مـحـدـودـاـ وـسـاعـدـتـ عـلـيـهـ ظـرـوفـ خـاصـةـ لـأـيـكـنـ تـعـيـيـهـ كـقـاعـدـةـ . وـمـعـ ذـلـكـ ، فـلـوـ فـرـضـ آـنـ نـاـضـمـنـاـ جـيلاـ مـنـ النـاسـ فـيـ سـبـيلـ هـذـهـ التـسـوـيـةـ ، فـإـنـ الـأـجـيـالـ الـآـتـيـةـ كـفـيـلـةـ بـنـقـضـ مـاـسـوـيـنـاـ ؛ لـآـنـ طـبـيـعـةـ الـحـيـاةـ تـسـتـازـمـ الـنـقـلةـ ، وـالـمـاصـلـحـ تـتـبـدـلـ ، وـالـأـقـوـامـ تـنـمـوـ وـتـنـقـرـضـ ، فـلـاـ بدـ مـنـ اـخـتـلاـطـ جـديـدـ وـاـنـتـشـارـ جـديـدـ ، وـلـابـدـ مـنـ الـمـوـدـةـ إـلـىـ الـقـسـوـةـ وـالـتـهـيـرـ الـجـبـرـيـ .

بـارـودـ الـحـرـوبـ الـمـدـيـةـ
وقد حـاـوـلـتـ عـصـبـةـ الـأـمـ حـلـاـ لـمـشـكـةـ الـأـقـلـيـاتـ فـهـلـ حـلـتـهـاـ ؟ أـلـمـ تـكـنـ هـذـهـ الـمـشـكـةـ فـيـ السـوـدـيـتـ وـالـأـورـيـنـ وـدـانـزـجـ وـتـرـنـسـلـفـانـيـاـ وـبـرـaiـاـ وـالـدـبـرـوـجـةـ مـنـ مـسـبـبـاتـ الـحـرـبـ الـأـخـيـرـةـ وـمـضـخـاتـهـاـ ؟

وـلـقـدـ كـانـ النـفـوـ فيـ مـعـنـيـ الـوـطـنـيـةـ وـالـعـصـبـيـةـ الـقـومـيـةـ عـامـلاـ أـسـاسـيـاـ فيـ زـيـادـةـ

الاضطراب العالمي ، والتدرج بالحروب من نزاع موضعي إلى شر مستطير أبعد مدى في الأرض ، وأوسع دائرة في الخطر ، أو بعبارة أخرى متناسبا مع الانتشار الكبير للأقوام ، متناسبا مع سهولة الانتقال الحديث ، متناسبا مع الغلو في الأفكار القومية والوطنية .

والدعوة الحمديّة لا تعرف الوطنية والعنصرية بالمعنى الحديث ؟ فوطن الإسلام لا يُعرف وبنية المفترض والوطن معنى كأن الدين أمر معنوي . يقول الله تعالى « يا عبادِيَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضَى وَاسِعَةً فَإِيمَانَكُمْ فَاعْبُدُوهُنَّ » والمسلم أخوه المسلم أخيها كان ، جاوده أم تباعدت به الأرض ، والمسلم أخيها حل في دولة إسلامية فقد حل في وطنه ، وإذا وجد في دار حرب بين جماعة معادية للمسلمين فسقطت عنه بعض التكليفات أو سقط بعض ماله من حق فإنه يكسب جميع الحقوق وتكون عليه كل الواجبات بتحوله عن داره ، أو بدخول أهل هذه الدار ، متى تغيرت الظروف بصلح أو ميثاق مع المسلمين ، أو اشتراك في الدولة .

فالعنصرية أو العصبية للقبيلة أو الوطن أو اللون أو اللغة أو الثقافة تذكرها الدعوة الحمديّة وتعتبرها دعوة جاهلية . يقول صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لِيَسْ مَنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ » فالإسلام يأبى كل عصبية لغير كثبة الله ، ولا يعرف الولاء إلا للعلاقة الروحية . والناس من أي جنس أو لون أو وطن إخوان إذا اتفقا في العقيدة ، وولاؤهم إنما يكون لأنَّ معنوي لا لأنَّ مادي . يقول تعالى « وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ كَرْمَكُمْ عِنْ دِلْلَهِ أَتَقَاءِكُمْ » ، ويقول سبحانه « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ اقْتَرَفُوكُمْ وَتَجَارَةً تَخْشُونَ كَسَادَهَا وَمَا كُنْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » .

و هذه نظرية قد وضعت أساس العلاقات البشرية على وحدة الفكر ووحدة الغاية المعنوية ، فهي بلا شك أسمى من النظرية الحديثة التي جعلت الجنسية أو المصلحة المادية أساس الولاء المشترك ، لأن النظرية الحمدية تسمو بالبشر و تشرف بالعقل والروح ، بينما الأخرى تهبطه إلى المادة فتشغل ناحية الحيوانية منه ، والعنانية بمحاجات الروح أدعى إلى السلم والاستقرار من العناية بمحاجات الأبدان

وضع العلاقات
البشرية على
أساس معنوي

فنظرية الروح أسلم عاقبة وأدعى إلى السكون والترابم .
قد يقال : إن ذلك معناه أنك ترجع أن يكون التزاع بين الناس على خلاف انت
العقائد والرأي لا على البترول أو القطن ، وذلك لا يغير كثيراً من قيمة التزاع
من خلاف
و شرطه ، ولا ما ينشأ عنه من اضطراب و حروب عالمية . وذلك صحيح لأول وهلة .
ولكن نظرة في طبيعة الناس تعلم أنها أشد انفعالاً وأكثر تحفزاً للشر حينما
يكون الأمر متعلقاً بالمادة و ماماً بمحاجتهم البدنية ، فالفلاح يقتل جاره لسقية
ماء يريدها لحقله ، ولكن لا يخاصم هذا الجار على خلاف ديني أو مذهبي ، ولم
نسمع أن مثل هذا الخلاف يؤدي إلى القتل إلا في النادر الشاذ .

وتاريخ الدعوات الفكرية قد تصعبها الحدة في بادئ الأمر ، وينتهي
شأنها إلى الاستقرار والحججة وسعة الصدر ، لأن البشر لا يستطيعون التحمس
للاعتداء والأذى إلا بمحافز مستديم ، والمحافز المستديم هو حاجاتهم اليومية
المترتبة على مطالبهم المادية ، وكثيراً ما تكون حواسهم ثم فتكهم وهم يندفعون
وراء فكرة سامية مشوّبة بعامل خفي من مطالبهم البدنية .

ومع ذلك فالدعوة الحمدية قد احتاطت للأمر ، فبعد أن أقامت العلاقات
بين الناس على أساس وحدة الهدف المعنوي ، حرمـت على أنصارها أن يتوصـلوا
بـالـقوـة لـنشرـ الدـعـوة . يقول تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبيـن الرـشدـ
منـ الفـي » .

ف الإسلامي لا يأذن باستخدام القوة إلا لضمان حرية الدعوة للناس جميعاً .
الثورة ليست
وسيلة الإسلام
لتحقيق أهدافه
وفرق بين المطالبة بحق حرية الرأي وبين الإكراه على تغيير حرية الرأي .

وإذاً نستطيع أن نقرر أن الاضطراب العالمي القائم على دعوى الوطن
الجغرافي ، ودعوى القومية والعنصرية ، ودعوى الحقوق المادية للوطن والمنصر
يزول لو أننا اخذنا من أصول الدعوة المحمدية ومبادئها الدولية نظريتنا للعلاقات
بين الأمم بسيادة الروح التي تدعو إليها وتشاركها فيها الأديان السماوية الأخرى .

ولعل الناس يجدون في ذلك الهدى ، ولعل في نظام العالم بعد الحرب
الأخيرة ، وبعد هذه العبر ما يقوم على تلك النظرية السامية البعيدة التي جعلت
عمر بن الخطاب بعد أن ^{بعد} عن عصبية الجاهلية ونشأ في المدرسة المحمدية يقول :
« لو كان سالم مولى أبي حذيفة حبيباً لوليته » والتي يعبر عنها رسول الله بذلك
القول المأثور : « أنا أخو كلّ تقيٍ ولو كان عبداً جبشتاً ، وبريٌّ من كل شقيٍّ
ولو كان شريفاً فرسيناً » .

^{لا سيادة}
^{ولا عبودية}

هزيمة القوى المعنوية

السيطرة على المادة وأثرها في ملابس المادة — مرحلة التطور المادي وبيطه،
التطور الروحي — باءت الفروق بين الناس بما لحقوا بهم من العلم المادي —
بللة وشتات وتناحر — ضرورة التوفيق السريع بين الروح والمادة —
نم تتحجّل إلى قيم — حرام ترك باسم الحريات — لا بد من ضوابط
أديية قبل الكارثة الكبرى — توافق الإسلام بين الميازيف — المدينة
تحطم صریف ف دفع فرن — أنسبر للتخريب؟ — فالرجوع إلى متابع
المدى والزحة في الأديان — تصور الحرب تغير منه المقول — أجهالات
في مكان السكالات ! — أفتح من زاكها .

سبب آخر من أسباب الاضطراب العالمي ، هو انهزام القوى المعنوية
 أمام القوى المادية ، أو بعبارة أخرى تخلّف القوى المعنوية عن الالتحاق بالتطور
 الفجائي للحياة المادية ، واختلال التوازن بين الروح والمادة .

وكان الناس وهم على الفطرة الأولى لا يسيطرون على المادة إلا سيطرة
 محدودة ، ولا يطمعون في التغلب على الطبيعة طمعهم بعد اكتشاف البخار
 والكهرباء ، ونفادهم إلى القوى الكهربائية في الذرة ، وإلى عناصر المادة وتحويل
 تراكيب هذه العناصر . فلما افتوا في استخدام الكيمياء والميكانيكا ، واستخرجوا
 من ذلك قوى جديدة ، انصرفوا أعماء وراء الطبيعة وعن عالم الروح إلى فهر
 الطبيعة والإيان بالمادة وفِعلُها دون سواها .

ففي أجيالٍ معدودة تغير وجه الحياة وانعكس وجهات النظر ، فلو
 خرج أجدادنا من أحذائهم لاستنكروا حياة أهل الحضارة الجديدة استنكاراً
 سكان الكهوف لسكان ناطحات السحاب . فقد تغيرت أسباب العيش وتغيرت
 كيافيته وتغيرت أغراضه ، واقترب الناس إلى السرعة يطلبونها وإلى الحرارة
 الدائمة يستطيعونها ، فنفرُوا من الذهمة والسكون بقدر ما كان أجدادهم ينفرون
 من الضوضاء والسرعة .

تغير طرزُ الحياة بخَلَةٍ ولِمَا يُستقرُّ ، بل هو في تغيير مستمر ؛ فالفرقُ بيني وبين أبي هو جيلٌ واحدٌ ، ولكنه أعظمُ من الفرق بين أبي وبين آبائِه قبل عشراتِ الأجيال ،

هذا التغييرُ الماديُّ المستمر ، وهذه السرعةُ التي لا تزالُ تتضاعفُ دون سرعة التطور المادي وبطء التطور الروسي أن تبلغَ حدَّها الأقصى ، قد جعلت الإنسانَ وهو يلاحقُ الحياة المادية الجديدة يُغفلُ ، أولاً يستطيعُ أن يحفظَ بحِيَاةً معنويةً مناسبة ؛ فهو لا يستطيعُ أن يسايرَ هذه السرعةُ المتفجرةَ تفجُّرَ المادة إلى أجزائِها مسيرةً يحفظُ فيها بِراثَه المعنوي ، فتخلَّفت الحياة الروحية التي كسبَها الناسُ في تجربةِ آلافِ السنين عن الحياة المادية الجديدة التي كسبُوها في قرن واحد ، وتطورت هذه الحياة تطوارِجاً خائياً ، وبقي الإنسانُ مُثقلًاً بتراثِ معنويٍ صخْم لا يتحرَّكُ معه خلفَه وراءَه .

فترى الناس مختلفي الحياة اختلافاً كثيراً بعد أن كانوا في أطرافِ المعمورة تربطهم صلاتٌ معنويةٌ وماديةٌ قوية ، ولا تختلف نظرُهم للحياة ولا كيفية عملهم فيها إلا قليلاً . والفرق بين أبناء الجيل الواحدِ في بلدٍ واحدٍ أكثرُ مما كان من فرقٍ بين إنسانٍ في شمالِ أوروبا وآخرَ في وسطِ آسيا منذ بضعةٍ قرونٍ . بل فإن الفرق بيني هنا في مصر وبين بعض الفلاحين من أبناء عمومتي ، وأنا لا أزالُ وثيقَ الصلة بأهلي ، هو أكثرُ بكثيرٍ في طرزِ الحياة وطرزِ التفكيرِ مما كان بين أحدِ أجدادِ الأقربين وسكانِ المغربِ الأقصى أو الأفغان . ولا أظنُ أن (ابن بطوطة) حين رحلَ من المغربِ الأقصى إلى الشرقِ الأقصى وجد من الفرق بين الناسِ ما يجده قرَوئٍ لم يسبقُ له زيارَةُ القاهرةِ إذا جاء إليها من ناحية قرية في الجيزةِ مثلاً . ففي الوطنِ الواحدِ أصنافٌ من الأمم تباعدت أفكارُهم وأخلاقُهم ومعنوياتُهم تباعدامتناسباً مع قدرتهم على ملاحقةِ الحياةِ الماديةِ الجديدةِ ، فنهم من يركبُ في موكبِ الحياة الماديةِ المتحرَّكةِ ،

ومنهم من يتعلّقُ بعْرَكِها ، ومنهم من يجري وراءها ، ومنهم من ينظر

جاًراً ، ومنهم من يئس وقده وانقطع .

فالذين ملّكو المادّة وصناعتها ، عليهم - وممّا في موكب الحضارة -

مسحة التجانس الظاهري ، ولو أن صلاتِهم الروحية أضعفُ جداً مما
كانت ، والمخالفون أقلَّ تجانساً .

لقد صارت الأُمّ صنوفاً من الناس متقاطعة ، وصار البشرُ مشتتين في
عالمٍ متناً كِربَلَاتٍ فيه الأفكارُ ، واختلَّ العرفُ البشري ، وتبعَدَتْ ألوانُ
العيشِ المادي ، وتكاثرت صورُه الذهنية ، وتناَكَرت الطبقاتُ والعوائلُ
والأقوامُ . وكلما امتدَّ دورُ الانتقالِ تعددَت مظاهرُ الأفرادِ والجماعاتِ
واستعنى الرجوعُ بها إلى أصولٍ مقبولةٍ ومسلمٍ بها من الجميع ، أو مسلمٍ بها
على الأقلِ من كُتُلٍ كبيرةٍ كانت تجمعُها صلاتٌ روحيةٌ قويةٌ في عقائدِ دينيةٍ
مشتركةٍ تشملُ مثاتِ الملايينِ من الخلقِ .

وما يُظنُّ من أن الحياة المادية القاعدة على السرعة وسيلةٌ عاجلةٌ لجميعِ
البشر على نظرٍ موحدةٍ للحياة المادية ، وعلى أساسٍ معنويٍّ مقبولٍ من الجميعِ
قبولَ العرفِ والدينِ في مثاثِ الملايينِ من الصينيينِ أو الهندودِ ، أمرٌ قد يكونُ
في سبيلِ التحقيقِ ، ولكنه لا يزالُ بعيداً جداً ، وسيأتي العالمُ أهواهُ أدوارِ
الانتقالِ والاستقرارِ ، وإن يستطيعَ الناسُ أن يخلعوا التراثَ المعنويِّ والفكريِّ
كما يخلّعونَ الثيابَ ، ولذلك ها نحنُ أولاً نشهدُ تشعبَ الأفكارِ والأراءِ
واضطرابَ الحياةِ .

ولا بدَّ لنا من التفكيرِ العاجلِ والعملِ السريعِ للتوفيقِ بقدرِ المستطاعِ
بينَ الحياة المعنوية الموروثة وبينَ الحياة المادية المفاجئة ، وتجنبِ أمْرِ الصدمةِ
التي تتولدُ منها هذه الانفجاراتُ الهائلةُ بينَ الأُمّ وبينَ الطبقاتِ في الأُمّ .
لابدَ لنا ، كي تعمّن ثمارِ المدنية الآلية ونستكملَ نعمتها ، من بعثِ الحياةِ

بلبة وشتان
وتذكر

مروردة التوفيق
السرع بين
الروح والمادة

الروحية بعثاً جديداً مناسباً للحياة المادية الجديدة . ففي هذه الحضارة نعم لا أحد لها؛ فقد تغلب الإنسان بالآلة والعلم على كثير من الصعاب والويلات؛ زاد انتاجه وسهّل انتقاله وفقر الأراضي الجائحة واتقى القحط ، وتعددت مصادر ثروته ومرحه وتركت له الأرض وأخذت زخرفها ومشى في قرن واحد بالحضارة المادية ما لا يقاس معه مشيه في القرون الماضية ، ولكن في قرن واحد كذلك فضى أو كاد يقضى على رانه المعنوي الذي كسبه في عشرات القرون .

نَبِيَ اللَّهُ فَانسَاهُ نَفْسَهُ . فِي جَيلٍ وَاحِدٍ هُزِمَتْ حَيَاةُ الرُّوحِ هُزِيَّةً نَكَرَاءً أَمَامَ حَيَاةِ الْمَادَةِ ، وَأَخْذَتِ الْآلَةُ الصَّمَاءُ ، وَقَدْ سَيَطَرَتْ ، تَفْتِكُ عَلَى غَيْرِ هَذِي وَبِغَيْرِ ضَابِطٍ مِنْ دِينٍ أَوْ خُلُقٍ أَوْ عُرْفٍ ، وَبِقِرْبِ تِرَاثِ الْبَشَرِ الْمَعْنُوِيِّ لَا حَرَاكَ لَهُ ، فَشَكَ النَّاسُ فِي قِيمَتِهِ ، وَهُمْ يَوْمَ يَنْظَرُونَ إِلَيْهِ شَيْئًا بَعْضُهُمْ يَعْطِفُ عَطْفَ الْأَحْيَاءِ عَلَى الْمُوقِيِّ ، وَبَعْضُهُمْ يَشَمَّتُ شَيْئًا الْفَالِبِ بِالْمَغْلُوبِ ، وَبَعْضُهُمْ يُخْلُصُ لَهُ وَلَكِنَّهُ فِي الْاِشْتِهَالِ بِخَالِهِ يُخْتَلِفُ عَنْ مُوكِبِ الْحَضَارَةِ السَّائِرِ فِي عَزَّةِ الْمُتَّصِرِ وَزَهْوِهِ .

وَالوَاقِعُ أَنَا مِنْ غَيْرِ تَدْبِرٍ اندفَعْتُ فِي سَبِيلٍ قَدْ حَوَّلَ النِّعَمَ الَّتِي تَمْتَعُ بِهَا إِلَى وَسَائِلٍ هَلَاكٍ لَنَا وَلِحَضَارَتِنَا؛ فَبَدَلَ أَنْ تُنَاصِرَ الْقُوَى الْمَعْنُوِيَّةِ وَنَعْطِيهَا مِنْ مَجْهُودِنَا وَهُمْتَنَا مَا نَعْطِي الْقُوَى الْمَادَةَ أَخْذَنَا نَزْفَ أَرَاءٍ وَنَخْتَرُ لَهَا نَظَريَاتٍ وَنَصْدَقُهُا ، وَلَا نَلْبِسُ أَنْ نَرْتَدَ عَنْهَا . وَهَا نَحْنُ أُولَاءِ بِهَذِهِ الْأَرَاءِ الْخَطِيرَةِ نَسِيرُ لِلْهَلَاكِ .

بِإِسْمِ حُرْيَةِ الْمَرْأَةِ نَدْمَرُ هَدْوَهُ ، الْمَنْزِلِ وَحِيَاةِ الْأَسْرَةِ ، وَبِإِسْمِ حُرْيَةِ الْوَطَنِ عَزَّقُ الْأَوْطَانَ ، وَبِإِسْمِ حُرْيَةِ الْعَمَلِ وَحُرْيَةِ رَأْسِ الْمَالِ سَنْخَمُو رَأْسَ الْمَالِ وَنَسْتَعْبُدُ الْطَّبَقَاتِ ، وَبِإِسْمِ مَقاوِمَةِ هَذِهِ الْحَرَبَاتِ سَنَفْقَدُ حُرْيَةَ الْفَرْدِ وَحُرْيَةَ الْجَمَاعَةِ وَحُرْيَةَ الرَّأْيِ . وَلَمْ يَكُنْ أَهْلُ الرَّأْيِ وَالْمَقْرِنِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةُ أَقْلَى

نَمْ سَتْجِيل
لَهُ نَمْ

بِإِسْمِ الْمَرْبَى
بِإِسْمِ تَرْكِبِ

أثرًا في المجتمع البشري منهم في عصر سيطرة الآلة الذي نعيشُ فيه.

هذا ولا تزال هزيمة الأديان والعرف والأدب القائم على محارب آلاف السنين لم تبلغ نهايتها، فإذا بلغتها ولم يحمل ملائكتها ثياب آخر يسند الحياة المعنوية والقوة الأدبية فأى ضابط يبق لهذه الآلة الجامحة والقوى المتفجرة التي أطلقها الإنسان من عقال الطبيعة وعجز عن أن يوجهها للخير وحده؟ فلا بد للعقلاء من صيحة أرجو ألا تضيع في صوضاء الآلة. لا بد للعقلاء من الصبر والكافح في سبيل الحياة الروحية، في سبيل أن تساير القيم المعنوية القيم المادية، وأن تزدوج الحياتان لأن تتنازعا وتتفارقا.

ولقد كان الإسلام أبعدَ نظراً حين دعا إلى هذا التزاوج فما يؤثر من ميراثه، بقوله: «أعملْ لدنياك كأنك تعيشُ أبداً، وأعملْ لآخرِك كأنك تموتُ غداً». والدنيا مطية الآخرة.

فلتكن الحياة المادية الفانية التي تغير وجهها في قرن واحد كل هذا التغير، مطية للحياة الخالدة الباقية حياة الفضيلة حياة الرحمه. قد يقول بعض الناس: إنك تكاد تُنكِر الرق الأدبي والمعنوي الذي صاحبَ هذا التطور المادي الفجائي وتنكرُ نعم المدينة الجديدة؛ وإنَّ لا تُنكِر شيئاً من فضليها، ولكنني أعني هزيمة القوى المعنوية وهزيمة العقل أمام الآلة الصماء المتحركة التي تحملنا في جوفها وتشملنا بين أجزائها. وقيم الأشياء بآثارها والأعمال بنتائجها.

ونحن الذين شاهدنا ويلات الحروب العالمية مررتين في ربع قرنٍ أحق الناس بالتساؤل عن القيمة الحقيقية للمدينة التي هذه بغضّ آثارها، ولنا كل الحق في أن نقف لتدبر وترجع البصر كرتين إلى القوى المعنوية للأديان، لعلنا نستمد منها سلاح الوجود البشري ضد طغيان الآلة العصاء، لترجم إلى تلك القوة المعنوية التي كانت توجهنا إلى الخير العام بقوله تعالى: «كُنتم خيراً

لابد من موابط
أدية قبل
الكارثة
الكبدى

نوفيق الإسلام
بين الحياتين

مدينةنا تتخطى
مررتين في ربع
قرن

أمةٌ أخرجَت للناس تأمينَ بالمعروفِ ونَهَى عنِ المُنْكَرِ » بِعِلْمٍ هَدَى
الحياة هو فعلُ الخيرِ ومقاومةُ الشرِ

أما أن يكون غرضُ الحياة الحصول على المواد الخامّة ، ثم تقديمها للاستهلاك؟
الصياغة ، ثم الزّاع على الأسواق لتوزيع منتجاتِ الآلة ، ثم القتالُ على المادة
كَتَسْتَمِرُ في حركتها ، ثم نطلب المزيد فتنزعُ لمنتجاتها الأوطانَ أسواقاً ،
ونفتحُ الأرضَ لمخزونِ الرِّكاّز فيها ، ويتقاتلُ عبادُ الآلة من أجلِ السبقِ إلى
حاجاتها ، ثم ينتهي بنا الأمرُ إلى حروبِ عالميةٍ تُسلطُ فيها قوى الآلة كلها
لتدميرِ نفسها وتدميرِ الحضارة البشرية - فأمرٌ لا يمكنُ أن يدوم ، وهو
عندى من تأثير خذلانِ القوى المعنوية أو جودها ومناصرةِ القوى المادية .

نعم لترجع إلى الأديانِ نستمدُ منها الهدايَ ، ولتوافقُ بين هذه الأديانِ
لنستمدُ من وفاقيها القوّة ، لتوزنَ الحياة المعنويةُ والحياة المادية ، ولكي توجّهَ
الأولى الأخرى في سبيلِ الخيرِ العام ، وقد دعانا الله إلى ذلك بقوله :
« شَرَعْ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكُمْ وَمَا وَصَّيْنَا
بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَفَرُّو فِيهِ » .

وليتتصورُوا مقدارُ الخططِ من فقدانِ هذا التوازنِ ومقدارُ الحاجةِ إلى
العقلِ والروحِ في أحسنِ عصورِ الحضارةِ المادية ، تصوّرُوا أنكم ذُعيمٌ لمشاهدةِ
عمرٍ كَهذا لقططٍ في جبلِ المقطم ، وقد اصطافَتِ القِططُ صفين ، ثم هجمتْ تقاتلَ؛
الآ تضحكُون عندئذٍ منِ القِططِ ؟ ألا تهزّونَ بعقولها ؟ ألا تسخرونَ منِ
سخفها ؟ بل ألا تنقلبونَ منِ السُّخْرِ إلى الرثاءِ لها ثم البكاءِ لما أصابها .. ؟!

فإذا قيل لكم إن قططَ أحدَ القاراتِ قد تعلمتَ علمًا يُعَكِّرُها منِ الحرِ كَهذا
في السماءِ وتحتَ الماءِ والخواصِرِ والتفاصِلِ مع قططِ باقيِ الأرضِ بالأثيرِ ، وأنّها
استخدمتَ علمَها وكتُبَها وعقلَها وأدبَها ، بجمعتْ قططَ العالمِ لعمرٍ كهذا عامةً ينبعُها
وأخذتْ ميدانًا للمعركةِ أوسعَ منِ جبلِ المقطم : سهولَ أوروبا والصينِ وجزرَ

آسيا وجبال إفريقيا وصحراءها ، وكل مكان تعيش فيه طائفة من القطط ، وأنها حشدت كل شيء لدoram معركة لانهاية لها ، ثم علتم أن القطط بمحبت في خططها ، ودعيم بصفتك الإنسانية أو بصفتك ملائكة هذه الأرض لنشهدوا حيوانية القطط المتبدلة المسيطرة على الكهرباء والكيمايات ، أكنت تسخرون من عقول القطط ؟ أم تعجبون بعذنيتها وعلمهها ؟ أم كتم تبكون لما أصاب القطط من الضلال ؟ أظن أن الملائكة في السماء ورسول الله منا ، الذين جاءوا بالهدى هم كذلك في السماء يسيرون لما يصيب الناس في هذا المسر وما أصاب القوى المعنوية من الهزيمة أمام الآلة الصماء ..

أجهالات في . إن انهزام القوى المعنوية بسيطرة المادة هو انهزام العقل والمرؤة مكان السكالات ؛ والوفاء والفروسية والتقوى والرحمة والقناعة . وإذا انهزم أولئك جميعا حل الجهل والفساد والخيانة والأثرة والرياء والفتنة محلها واضطرب لذلك النظام العالمي .

أفتح من زكاما والدعوة الحمدية حين عينت بالروح وتزكيتها ، وحين وزنت بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، وأقامت الشريعة على ميزان من العدل تزن بين حاجات الروح وحاجات البدن ، قاومت الطغیان المادي فنعت سبباً من أسباب الاضطراب العالمي ، « ونفس ومساوها . فالمهمها فجورها وقوتها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دستها » .

ثالوث الفساد

الغدر والكذب والنفاق في حياة الأفراد والأمم — فلسفة سياسية خطيرة — آية قرآنية يغتر بها المسلمون — تشيهيل بليغ — نصوص وحوادث — الغدر غير الخدعة في الحرب — قبح الغدر حتى بين الأشقاء — الله لا يهدى كيد الماين — الكذب والنفاق في السياسة — المكابalah يشكرا الإسلام — سياسة الوضوح — صفات أنواع من الكفر — أسماء على غير مسمياتها.

قلنا إن هناك أسباباً أخرى للاضطراب العالمي قد تكون أقلّ شأنًا ولكنها عناصر هامة كذلك في عدم الاستقرار إلى سلم دائم وعلاقة حسنة بين الشعوب والأقوام.

والآن نتخير من الأسباب الكثيرة الخلقيّة أسوأها أثراً في المجتمع البشري، آثار الثالوث في حياة الأفراد والأمم وهي الغدر والكذب والنفاق. وهذه الصفات الثلاث، على سُوانِها وضررها في حياة الأفراد، أبعد أثرًا وأعظم ضررًا في علاقات الأمم، ولذلك عُنت الدعوة الحمدية عنيّة كبيرة بقاومتها في أخلاق الأفراد وصلات الشعوب. وقد دفعت مع الأسف الشديد هذه الصفات المذمومة بنسبة عكسية مع ضعف الحياة الروحية وسيطرة المادة، وأصبح الناس لا يستحيون من الغدر استحياء آباءهم، لِما كان يصعب الغدر من ضياع الشرف والهيبة، بل صار كثير منهم ينظر للغادر نظره إلى الكيس المبدع في حسن التصرف، ويقيس فضله بتجاهله غير عابئ بالوسيلة وإن كانت أحسن الوسائل. وإذا ضعف احترام الفضيلة وتقديرها ذاتها فشأ الغدر في صلات الشعوب واضطربت العلاقات الدوليّة أيمًا اضطراب.

والمتعقب للسياسة الدوليّة في مدى نصف القرن الأخير يستطيع أن يشير إلى عشرات المواقف الغادرة، وقل أن يجد حلقة تقيّة في سلسلة الغدر الخبيث. فالمفاجأة والنكبة بالمعهود كادا أن يكونا القاعدة بعد أن كانوا، حتى في الجاهلية

وبعد أن انتشرت مع انتشار الإسلام والعرب آداب الفروسية في القرون الوسطى ، من الصفات التي تحظى من قدر الأفراد والشعوب وتعرضها للزيارة العامة .

ولم يزل الكتابُ الكريم يُسَفِّهُ الغادرين ويُخْضُ على الوفاء حتى جعل حق الميثاق فوق حق الذين كما أشرنا إلى ذلك في موضع سابق . وهذه الآية الجليلة « وإنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَنْكُمْ وَيَنْهَمُ مِثْقَالَ » تبقى أبداً الدهر نَفْرَ المسلمين في حرمة المعهود وحرمات الوفاء !

وزراعة القرآن على الغادرين في قوله تعالى « وَأَوْفُوا بِهِمَا إِذَا عاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي تَقْضَى غَزَلُهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَحْذَوْنَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا يَنْكُمْ أَنْ تَكُونَ أَمَةً هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَلْوُكُمُ اللهُ بِهِ وَتَشْبِيهُمُ الغادرَ بِالمرأةِ السَّفِيهَةِ تَنْقُضُ غَزَلَهَا بَعْدَ أَنْ أَبْرَمَتْهُ ، مَثَلُّ بَلِيقَ لِلَّذِينَ يَعْبُثُونَ بِعِهْدِهِمْ ، يَهُوَيْ بِهِمْ إِلَى ذَرْكَ السَّفَاهَةِ ، تَلَكَ السَّفَاهَةُ الَّتِي يَتَرَبَّعُ عَلَيْهَا فِي الْحَقِيقَةِ اضْطَرَابُ الْعَالَمِ كُلِّهِ إِذَا حَلَّ الْغَدَرُ مَحْلُ الْوَفَاءِ .

روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ألا إله يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَالْيَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَدْرِ غَدْرِهِ ، وَلَا غَدْرَةَ أَعَظَمُ مِنْ غَدْرَةِ إِمامٍ عَامَةً » .

وقد ضرب رسول الله المثل الأعلى للوفاء طول حياته ، في صلاته بالأفراد والجماعات ، وبلغ من وفائه أنه سمع لنشيد حسان في مدح أحد قتلى بدر من أعداء النبي نفسه .

كان مُطْمِئْنَ بن عَدَى من أشراف قريش المشركين ، وكان رسول الله حين رجع من (الطائف) بعد أن أقي من (ثقيف) مُنْكِر القول والفعل ، قد طلب جوار بعض رؤساء مكة ليدخلها آمناً على حياته ، فأبواه قبل مطعمه أن يدخلها

آية فرآية يضر
بها المسلمون

نبأه ببيع ا

نصوص
حوادث

في حياته ، فلما كانت واقعة بعد ذلك ودارت الدائرة على قريش وقتل نفر من صناديدها ، كان بين القتل مطعم بن عدى . وفيه يقول حسان بن ثابت شاعر الرسول :

أيا عينُ فابكي سيد القوم واسفحي . بدمع وإن أنزفتْه فاسكبي الدّمَاءِ !
ذبكي عظيمَ المشعرَين كلَّيْهَا على الناس معروفةٌ له ما تَكَبَّأ .
فلو كان مجده يخلدُ الدهرَ واحدًا من الناس أبيق مجده اليومَ مُطْعِمًا .
أجرتَ رسولَ اللهِ منهم فأصبغوا عيدهَكَ ما لَبَّيْ مُهَمَّلٍ وأخْرَمَ .
فلو سُنِّلتْ عنه مَعْدَةُ باشرِها وقططانُ أو باقٌ بقيةُ جُرْحِهَا .
لقالوا هو المُوقِي بجية جاره . وذمتَه يومًا إذا ما تذمّهَا
فا تطلعُ الشمْسُ المنيرةُ فوقهم على مثلِه فيهم أعنَّ وأعظَّا !

مات مطعم مشركاً مقاتلاً الرسول ، ولكن الوفاة في هذا المثل يرفى فيه حسان عدواً مشركاً ، والرسول يسمع ولا يشك ، يدل على أنه صلى الله عليه وسلم أنزل الوفاة في مكان من القدس لا ينزله عنه خلاف في الدين ولا قتال وعداء . فالرسول حين يسمع إلى شاعره يسكي المروءة في عدو هو أحد صرعي القتال من المشركون المعذين يسُّون لثاف الرجولة والمروءة والوفاة مثلاً قد علا فوق كل شيء ، ويحيط من صفة الفدر إلى الدرث الذي لم يصل إليه أحد قد بقي له من الإيان والخلق شيء .

وقد روت عائشة أن عجوزاً جاءت إلى النبي فقال لها : من أنت ؟ قالت : جثامة المزينة . فقال : أنت حسانة ! كيف أنت ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت بخير . بأبي أنت وأنتي ! فلما خرجت قلت : يا رسول الله : قبل على هذه العجوز هذا الإقبال ! قال : إنها كانت تأتينا زمان خديجة ، وإن حُسْنَ العهد من الإيان » .

فَلَوْ أَنَّ الْعَالَمَ دَانَ بِمَا تَرِيدُهُ الدُّعْوَةُ الْحَمْدِيَّةُ ، وَاعْتَبَرَ حَسْنَ الْمَهْدَمِ مِنَ الْإِعْانَةِ
لَوْفَرَ عَلَى نَفْسِهِ وَيُلَاتٍ كَثِيرَةٍ .

قد يجدون الفدر أول وهلة وسيلةً من وسائل الظفر ، وطالما تحدث الناس
بأن الحرب خدعة ، وشئان بين الخيانة والشكك بالمهد أو المفاجأة والأخذ على
غرة وبين الخدعة في القتال ؛ فانخدعة حيلة يعرف الخصم أنه معرض لها وليس
له وعد باجتنابها ، وهي داعماً في حدود الحرب المرعية ، وقد تحدثنا عنها من قبل .
فإذا أثبتت في روع العدو أنك ستأتيه بكلمة قوتلك من ناحية ولم تبعث إليها
إلا الأقل ، وتحولت الكثرة لناحية أخرى ، فليس هذا غدراً وإنما هو خدعة
لاتتنافي مع الأخلاق ، مادام البشر يعتبرون الحرب لاتفاق مع المروءة
وحسن الأخلاق .

الفدر غير الخدعة
في الحرب

حتى لي أحد أشقياء البدو عن شيخ كبير من البدو أنه غدر به بعد أن
وعده ألا يدخل عليه ، والغدر منقصة حتى بين الأشقياء ، فسألت عما يقول
الشيخ في ذلك ، فقيل : إنه قال : « الخونَةُ عُونَةٌ » أي أن الخيانة مما يستعمل به .
وقد انكر الناس ذلك على الشيخ البدوي أشد الإنكار .

فتح الفدر حق
بين الأشقياء

وهانحن أولاء مع الأسف نشهد مبدأ « الخونَةُ عُونَةٌ » الذي يقول به
شيخ من قُساة البدو ، والذي ينكر الناس اتخاذه مع شقيق من الأشقياء في
حادث سلب أو نهب ، يفشوا في علاقات الأمم الكبيرة فتفدرُ وتفاجئُ لفتتكَ
في غفلة ، متتجاهلة حرمة المهدود وحرمات المروءة . فكما أن مبدأ « المخربة
عونَةٌ » جعل الحياة قد يعا بين بعض القبائل في اضطراب مستمر فسلبها الأمان ،
 فهو بين الأمم المتحضرَةِ يَعِدُ هذا الاضطراب بالوقود .

الله لا يهدى كيد
الخائين

ولاأظن أن اتخاذ الفدر وسيلةً من وسائل الظفر أدى للغادرين خدمة جليلة
في زمن من الأزماء ؟ فهو قد يُكْسِبُهم المعركة الأولى ، ثم يرتد عليهم ، ولابد
أن يتحقق في الغادرين قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ » .

وأخذ الخيانة وسيلة لاظفر في علاقات الشعوب يؤدي قطعاً إلى التردد
وسوء الظن ، فيفقد الناس نعمة الأمان في السلم وال الحرب . وهذا هو ذات الجيل
الحاضر يكتوى بويلات الحرب ليخرج منها إلى الخوف والاستعداد للحرب
أخرى . ذلك هو الجزاء السماوي . ولذلك يحرص الإسلام على الوفاء حتى مع
الغادرين ، فوفاه بغدر خيرٍ من غدر بغدر .

أما الكذب والنفاق فلا تقول إن الناس أكثر تحرّكاً للأخلاص
والصراحة مما كانوا ، ولا إن الكذب من الأخلاق التي ظهرت في العهد الآتي
بأسوأ مظاهره ، ولكننا لا نستطيع كذلك أن نقول إن الصدق أكثر حرمة
منه فيما مفضي ، وإنما الذي نتعيّن في هذا العصر هو الكذب في السياسة .
ونستطيع أن ندعّي أن الكذب والرياء من عناصر الاضطراب في العلاقات
الدولية أكثر مما كانا في الماضي .

فـ كـيفـلـى في كتاب (الأمير) مثلاً يـجـهـر بـنظـريـات لا تـرضـيـها قـوـاعـدـ
الـمـكـيـفـلـيـةـ ، يـشـكـرـهاـ الإـسـلـامـ ، وـالـنـاسـ الآـنـ يـطـبـقـونـ آـرـاءـ (ـمـكـيـفـلـىـ)ـ وـلـيـسـ لـهـ صـدـقـهـ
فـ إـعـلـانـ رـأـيـهـ . وـعـنـدـيـ أـنـ كـتـابـ (ـالأـمـيرـ)ـ نـفـسـهـ دـلـيـلـ عـلـىـ أـنـ النـاسـ فـيـ
الـعـصـورـ الـوـسـطـيـ كـانـواـ أـقـرـبـ إـلـىـ الصـدـقـ ، مـنـهـ فـيـ الـعـصـرـ الـذـيـ يـسـتـكـرـونـ فـيـ
الـمـكـيـفـلـيـةـ وـيـعـمـلـونـ بـهـ .

وـهـذـاـ الـكـذـبـ وـالـنـاقـقـ فـيـ السـيـاسـةـ الـذـيـ يـظـنـهـ بـعـضـ النـاسـ مـبـرـراًـ وـيـفـتـئـونـ
فـيـ تـزـيـقـهـ وـتـنـيـقـهـ وـيـعـدـونـهـ لـازـمـاـ لـالـدـبـلـومـاسـيـةـ ، يـبغـضـهـ الإـسـلـامـ وـيـنـفـرـ مـنـهـ .
وـتـارـيخـ الـفـتوـحـاتـ الـإـسـلـامـيـةـ مـثـلـ باـقـيـ مـنـ الصـدـقـ وـالـجـهـرـ بـالـحـقـ لـلـمـدـدـوـ وـالـصـدـيقـ ،
وـسـيـرـ الـخـلـفـاءـ الـذـينـ يـتـلـوـنـ الدـعـوـةـ الـحـمـدـيـةـ ، وـالـذـينـ لـمـ يـقـعـواـ فـيـ أـسـالـيـبـ الـفـرـسـ
وـأـسـالـيـبـ يـيزـنـةـ ، تـفـيـضـ بـيـسـاطـةـ الـصـدـقـ وـوـضـوحـ الـحـقـ ؟ـ فـإـذـاـ قـالـوـاـ وـكـتـبـواـ
أـوـعـاهـدـوـاـمـ أـوـسـفـرـأـوـهـمـ أـوـلـاـتـهـمـ ، وـجـدـتـ قـوـلـاـ وـأـخـاـيـتـحـرـيـ أـنـ يـكـونـ بـعـدـاـ

عن التأويل جلياً لا ينفع ولا يعارض . يقول رسول الله « أنا زعيم بيبيت في
ربض الجنة لمن ترك المرأة وإن كان محقاً ، وبيبيت في وسط الجنة لمن ترك
الكذب وإن كان مازحاً ، وبيبيت في أعلى الجنة لمن حسُن خلقه » .

ولقد أراد الإسلام في جميع العلاقات بين الناس فردية أو دولية ذلك
الوضوح ، فتجده مطلوباً في كل شيء ، وعدم الوضوح في العقود وتعريفها
للتأويل والمشاجنة كان سبباً في تحرير كثير منها .

وبيكاد القاري " لكتاب الله وأحاديث رسوله يحكم بأن الكذب والنفاق
أحاط من الكفر ، فقد لمن الكاذبين وجعل المنافقين في الدرر الأسفل من
النار . ولأول وهلة قد لا يدرك الإنسان حكم هذه الشدة ، فإذا نظر في أمر
النفاق من الناحية العامة ، وتجاوز برهاه أثره على المنافق نفسه ، وجد أنه عنصر
جوهرى في فساد النظام العالمى .

وليظهر ذلك أرجو أن تفكروا فيما نحن فيه من اضطراب عالمي ؟ أليس
النفاق من أهم أسبابه ؟ ولو كان القاعون على (جمعية الأمم) مثلاً — وقد اشترك
فيها أو في تأسيسها كل الذين اقتتلوا في الحرب الأخيرة — قد بنوا مؤسستهم
على الصدق وعلى الإخلاص أ كانت تنهار كما انهارت ؟ أ كان انهيارها يجر إلى
هذا الفساد الكبير الذي وقع في الحرب العالمية الأخيرة ؟ ولو أن الدعوة التي
يدعوها الناس من حب الخير العام ، ولو أن الحرمة التي للحقوق البشرية كانت
حقيقة في نفوسهم وكانت صادقين غير صرائين ، أ كان الناس مختلفون على معنى
هذه الحقوق وعلى معنى الخير العام كما يختلفون اليوم ؟ .

إن النفاق قد أليسَ الأمرَ على الناس ، فإذا قيلت هذه الكلمات المحبوبة :
الحرية . المساواة . العدل بين الناس . حق الجميع في عيش سعيد وسلم دائم ،
إذا قيلت ، ظنوا أن المقصود غير ما قيل ، والتيس الحق بالباطل .

وأثر النفاق ، وإن قل شأنه في علاقة فرد بفرد ، يتضاعف أضعافاً كثيرة
إلى أن يصير شراً مستطيراً إذا امتدت الدول وسيلة من وسائل الظفر في سياسة
شعوبها ، أو في علاقتها بدول أخرى .

والسياسة التي تستند على الغدر والكذب والنفاق تحرّمها الشريعةُ
المحمدية وتاباها الأديان السماوية كلها ، لأنها تقدّي الانحراف العالميَّ وتعين
على تقويض العرمان .

في البحث عن سند روحي للحضارة

فِي هَذَا الْأَيَّامِ أَصْنَعُ لِبَوْزَرْ عَنْ دِرْجَاتِهِ فَكَانَتْ كَلْمَةُ دِرْجَاتِهِ مُخْلِطَةً فِي
قَلْبِي بِغَيْرِ مُنْتَهَى لِالْأَيَّامِ وَكَيْفَ يَحْسَنُ إِلَيْهِ الْجَوَادُ بِمَنْهُونَيْنَ أَنْ يَأْتِي
كَيْفَ يَحْسَنُ إِلَيْهِ الْجَوَادُ بِمَنْهُونَيْنَ أَنْ يَأْتِي

فَمُؤْمِنًا بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
وَمُؤْمِنًا بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
مُؤْمِنًا بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ

وَمُؤْمِنًا بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
أَنْ يَأْتِي الْجَوَادُ بِمَنْهُونَيْنَ أَنْ يَأْتِي الْجَوَادُ بِمَنْهُونَيْنَ أَنْ يَأْتِي
الْجَوَادُ بِمَنْهُونَيْنَ أَنْ يَأْتِي الْجَوَادُ بِمَنْهُونَيْنَ أَنْ يَأْتِي
وَمُؤْمِنًا بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ

وَمُؤْمِنًا بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
فِي أَوْقَانِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
عَلَى الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
مُؤْمِنًا بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
وَمُؤْمِنًا بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
وَمُؤْمِنًا بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ

وَمُؤْمِنًا بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ بِمُؤْمِنَةِ الْأَيَّامِ
إِلَيْهِ الْجَوَادُ بِمَنْهُونَيْنَ إِلَيْهِ الْجَوَادُ بِمَنْهُونَيْنَ

وَكَلَّهُمْ مَا تَرَى وَالإِنْجِيلُ دُوَرٌ وَرُوحٌ وَرُقْبَانٌ لِلأَسْطُرِ
عَزَّزَهُمْ مَعْذُولٌ لِلْجَاهِلِيَّةِ
أَنَّ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ مُؤْمِنَاتٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ مُؤْمِنَاتٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مُؤْمِنُونَ
كَلَّهُمْ مَا تَرَى وَالْجَاهِلِيَّةُ مُؤْمِنَاتٍ وَالْجَاهِلُونَ مُؤْمِنُونَ
عَزَّزَهُمْ مَعْذُولٌ لِلْجَاهِلِيَّةِ
أَنَّ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ مُؤْمِنَاتٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ مُؤْمِنَاتٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مُؤْمِنُونَ
كَلَّهُمْ مَا تَرَى وَالْجَاهِلِيَّةُ مُؤْمِنَاتٍ وَالْجَاهِلُونَ مُؤْمِنُونَ
عَزَّزَهُمْ مَعْذُولٌ لِلْجَاهِلِيَّةِ

5

في البحث عن سند روحي للحضارة

كتابات
رسائل

فِي الْجَاهِلِيَّةِ . بِكَلَّهِمْ . سُكَّانَ الْجَاهِلِيَّةِ كَلَّهُمْ لِلْجَاهِلِيَّةِ
أَنَّ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ مُؤْمِنَاتٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ مُؤْمِنَاتٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مُؤْمِنُونَ
كَلَّهُمْ مَا تَرَى وَالْجَاهِلِيَّةُ مُؤْمِنَاتٍ وَالْجَاهِلُونَ مُؤْمِنُونَ
عَزَّزَهُمْ مَعْذُولٌ لِلْجَاهِلِيَّةِ
أَنَّ الْمُؤْمِنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ مُؤْمِنَاتٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ مُؤْمِنَاتٍ وَالْمُؤْمِنُونَ مُؤْمِنُونَ
كَلَّهُمْ مَا تَرَى وَالْجَاهِلِيَّةُ مُؤْمِنَاتٍ وَالْجَاهِلُونَ مُؤْمِنُونَ
عَزَّزَهُمْ مَعْذُولٌ لِلْجَاهِلِيَّةِ

الوصاية على اختصارة للأقوى أم للاتقى

الصلة المتنقلة بين الأجناس — نصور «علم الإنسان» — أدوار الحضارة ومن مثواها — من «علم الإنسان» — الفروق البدنية لا تكفي الحضارة — المدنية ليست اختصاصاً لقوم وحدهم — هي أثر الحالات التسببية — قانون فرآني — مساواة كافية بين الأرواح — وحدة التكاليف الدينية ومفراها — دعوى هي أصل الاستبداد والتفاوت — ميراث النفس الطيبة .

نريد أن نتناول من بعض النواحي مبدأين متعارضين : الأول سند
الحضارة المادية ، والثاني سند الحضارة الإسلامية . ولعل في هذا البحث
ما يكشف عن العوامل الخفية لسقوط الحضارة ، وما يفسر بعض أسباب
الاضطراب العالمي أثناء هذا القرن .

فما هو الحق . . . هل هو للأقوى أم للاتقى ؟

إذا استعرضنا تاريخ الأقوام منذ بضعة آلاف من السنين ، نجد أن
الحضارة لم تثبت في مكان واحد ، ولا دامت لقوم وحدهم ، فهي كسلعة الذهب ،
تُعرَّب بأيدي الناس جميعاً ، وقد ترجع إلى اليد التي ذهبت منها بعد أن تطوفت
الكرة الأرضية .

فالمدنية متاع مشاعٍ يكتسبه من قدر على الاحتفاظ به عهداً ، ثم لا يطيق
حمله فيتخلى عنه فيقع على كتف الأصلاح حمله ، حتى إذا خارت قواه تخلي
للإصلاح وهكذا . فال التاريخ يشهد بوضوح على هذا التداول ، ويأتي أن يشهد
لقوم دون قوم أو جنس دون جنس بالصلاح الناجي أو الاختصاص بالقدرة
على حمل رسالة الحضارة لميزة طبيعية موروثة وملزمة للعنصر .

الصلة المتنقلة
بين الأجناس

وَكَذَلِكَ إِذَا اسْتَعْرَضْنَا (عِلْمَ الْإِنْسَانِ) «اِنْتِرُوبِولُوجِي» وَنَظَرْنَا فِي الْأَجْنَاسِ
الْبَشَرِيَّةِ نَجِدُ هَذَا الْعِلْمَ عَلَى حَدَائِثِهِ وَغَمْوُضِهِ بَعْضِ نَوَاحِيهِ، يُرِيدُنَا إِلَى الْفَرْوَقِ
أَوِ الْمَيْزَاتِ الْبَدَنِيَّةِ بَيْنِ قَوْمٍ وَقَوْمٍ، وَلَوْاَنَهُ لَا يُسَاعِدُنَا عَلَى إِدْرَاكِ الْفَرْوَقِ الْرُّوْحِيَّةِ
وَالْذَّهَنِيَّةِ. وَقَدْ نَخْرَجَ مِنْ مُحيطِ الْعِلْمِ الصَّادِقِ إِلَى النَّظَرِ وَالْفَرْوَضِ كَلَّا حَاوَلْنَا
تَثْبِيتَ قَوَاعِدِهِ عَلَى أَسَاسِ الْفَرْوَقِ النَّفْسِيَّةِ وَالْرُّوْحِيَّةِ بَيْنِ قَوْمٍ وَقَوْمٍ، لِفَسْتَخلُصُ
مِنْهَا مُؤْهَلَاتُ هَذَا الْعَنْصُرِ دُونَ ذَلِكَ لِرِسَالَةِ الْحِضَارَةِ وَالْمَدِينَةِ.

نَعَمْ إِنْ بَعْضُ الْأَبْحَاثِ «اِنْتِرُوبِولُوجِيَّة» الْمُحْدِثَةِ قَدْ تَعِينَ عَلَى قِيَامِ
صَفَةِ الْذَّكَاءِ بَيْنِ طَائِفَةٍ وَطَائِفَةٍ مِنَ الْبَشَرِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَعِينُ عَلَى تَحْدِيدِ
لِلصَّفَاتِ الْمَعْنُوَيَّةِ الْكَثِيرَةِ، وَالْفَرَائِزِ الْمُتَعَدِّدةِ، وَمَظَاهِرِ هَذِهِ الْفَرَائِزِ؛
وَبِذَلِكَ لَا تَهْدِي إِلَى أَقْلَى الْعَنَاصِرِ النَّفْسِيَّةِ شَائِنًا فِي تَكْيِيفِ قِيمَةِ عَنْصِرٍ
وَآخَرَ حَلِّ رِسَالَةِ الْحِضَارَةِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ بِجَمِيعِهِ مِنَ الْمَعْنَانِيِّ وَالْقُوَّىِ النَّفْسِيَّةِ
وَوَازْنِ هَذِهِ الْجَمِيعَةِ.

فَإِذَا كَانَ (عِلْمُ الْإِنْسَانِ) هِيَأْنَا قَدْرًا مِنَ الْعِلْمِ نَعْرِفُ بِهِ صَفَاتٍ تَرْمِذُ بِهَا
الْأَنْسَابُ إِلَى بَعْضِ أَصْوَلِهَا الْقَدِيمَةِ، فَإِنْ هَذَا الْعِلْمُ لَا يَرْزَأُ فِيهَا عَدَا ذَلِكَ يَتَخَبِّطُ بِنَا
فِي الْجَاهِيلِيَّةِ . وَإِذَا فَلِيَسْ لِدِينَنَا دَلِيلٌ عَلَيْهِ يَجْعَلُ أَحَدُ الْعَنَاصِرِ يَتَازَّ بِطَبِيعَتِهِ
وَقُوَّتِهِ عَلَى الْعَنَاصِرِ الْأُخْرَى حَلِّ رِسَالَةِ الْعَمَرَانِ وَالْحِضَارَةِ وَالْعِلْمِ .

وَلِلنَّظَرِ أَوْلًا فِي الْفَرْوَقِ الْمُنْتَصِرِيَّةِ بَيْنِ الْأَقْوَامِ الَّتِي قَامَتْ عَلَى أَكْنَافِهَا
الْمَدِينَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْذَ أَنْ شَادَ الْفَرَائِعُ هَذِهِ الْأَهْرَامَ شَاهِدًا عَلَى الشَّأْوِ الْبَعِيدِ
الَّذِي بَلَقَوْهُ فِي الْمَدِينَةِ وَسَيِّقُوهُ بِهِ النَّاسُ كَافَةً :

قَامَتْ مَصْرُ بِالدُّورِ الْأَوَّلِ، بَلِ الدُّورِ الْأَمْنِ فِي تَارِيخِ الْحِضَارَةِ الْبَشَرِيَّةِ؛ أَدْوَارِ الْحِضَارَةِ
فِيهِ الَّتِي عَلَمَتِ النَّاسَ الزَّرَاعَةَ وَالْبَنَاءَ وَالْكِتَابَةِ .

ثُمَّ جَاءَ السُّومَارِيُّونَ وَالْبَابِلِيُّونَ وَالْفِينِيَّقِيُّونَ وَالْأَشْوَرِيُّونَ وَالْكَلَدَانِ

والفرس واليونان والقرطاجيين والرومان والعرب ، ثم الأقوام الأوروبية والأمريكية الحديثة ، يضيفون إلى الحضارة ويحددون . فإذا فرضنا أن أول الحضارة في مصر وآخرها الآن في أمريكا - إذ ليس عندنا دليل على البداية أو علم بالنهاية - وتجاوزنا مؤقتاً عن نصيب الأقوام الصفراء وأثرها في حضارة هذا الشق من الكورة الأرضية ، أمكننا حصر الحضارة التي تشير إليها في العناصر النازلة في غرب آسيا وشمال إفريقيا وفي أوروبا وأمريكا . وقد اتفق علماء الأجناس (الأنتروبولوجي) على أن هؤلاء البعض ثلاثة عناصر أصلية ، بينهم اختلاف بدئي واضح ومحدد ، ومنازل العناصر الثلاثة عند متوازية من الغرب إلى الشرق .

ففي الساحة الشمالية نجد الشماليين (النورديين) وجنوباً منهم (الآليين) وجنوباً من هؤلاء (المتوسطيين) ، أو قوم البحر الأبيض المتوسط ، وهم سكان ما حول هذه البحيرة .

فللشماليين الأجسام الطويلة ، والعيون الزرقاء ، والرؤوس المستطيلة ، وللآليين الرأس المستدير ، والمتوسطيين الرأس المستطيل ، والأجسام الأقصر من أجسام الشماليين ، وسود العيون والشعر . ولا حاجة بنا لاخوض في الفروق البدنية التي حدد بها علماء الأجناس هذه العناصر ، واستدلوا على وجودها قدماً وأثراً حديثاً ، فإنها لا تُقْنَى كثيراً في تكيف الحضارات القديمة ؛ إذ ليس بين أيدينا أدلة قاطعة على حقيقة الأقوام الذين حملوا رسالة المدنية قبل العرب أو حتى من العرب ، ولأن البحث العلمي نفسه الذي دلّنا على ميزات بدنية بين المناظر الثلاثة التي تكون منها الجنس الأبيض الكبير ، دلّنا كذلك على أنه لا يوجد لأحد منها في وطن معين خالص له ؛ ففي بريطانيا نفسها ، تلك الجزيرة الشمالية ، توجد العناصر الثلاثة ، وليس حتى بنسبة بعدها عن هذه الجزيرة . بل إن (المتوسطيين) فيها أكثر نسبة من (الآليين) . وكل ما نستطيع تحقيقه عليه فهو

من « علم
الإنسان »

الفروق البدنية
لا تكشف
الحضارة

العنصر
الجنس

أن ثبتت رُجحان صفة بدنية في أمة من الأمم من صفات هذه العناصر ، على صفاتها الأخرى .

وحتى إن استطعنا تقرير ذلك علينا من الناحية الجسمانية كما قلت ، فإننا لا نزال بعيدين جداً من قياس الموارم والآثار النفسية في شعب من الشعوب ، وإدراك هذه الآثار باعتبارها تأثير لتفاعل الدماء الموروثة من الأقوام المختلفة .
وإذاً يصح لنا أن نتساءل : لمن هذه الحضارة ؟ وهل يجوز نسبتها جنس دون جنس ؟

نعم ألم تكن الشعوب القديمة نفسها ، وأقدمها الفرعونية المصرية منذ آلاف السنين ، كما هي اليوم ، خليطاً من الأجناس تغلب عليه جنسية البحر المتوسط ؟ وما هي البضعة الآلاف من السنين التي نعرف شيئاً قليلاً عنها من نسبة إلى عشرات الآلاف في التاريخ البشري الذي لا نعرف شيئاً عنه ؟ وسواء قامت بعض الحضارات القديمة على أكتاف أحد العناصر الثلاثة التي أشرنا إليها والتي حددتها علماء الأجناس في الناحية الغربية من الأرض ، أم على أقوام متوادة من اختلاطها ، فإن أمراً واحداً لا شك فيه ، هو أن المدنية ليست امتيازاً ولا اختصاصاً لعنصر منها ، ولا هي لازمة له وتابعة لصفاته الخاصة ؛ فليست نتيجة للقوة الطبيعية الموروثة له ، وليس سببها هو حق الأقوى بحال من الأحوال .

والحضارة إذاً يجمع بينها المادي والأدبي أكثر حالات نفسية غير لازمة للصفات البدنية المميزة لقوم على قوم . ولو أننا ذهبنا بعيداً وحاولنا الاستدلال بالعلم على المجهول ، وقلنا إن الصفات البدنية تشير إلى خصائص نفسية لا نزال بعيدين عن عالمها ، فإن ذلك لا يغير من الحق ، وهو أن العناصر التي نعرفها ، لم تختص على طول التاريخ البشري بالعقل أو العلم أو الابتكار ، حتى تنسب شيئاً من هذا إلى صفتها العنصرية . ومن الواضح أن النفس وحدها هي التي تفسى ، فتثير

ظلمات الحياة البشرية متى أثرت فيها مؤثرات خاصة ، وتهيات لها بيئة روحية خاصة . فسندُ الحضارة هو الروح والخلق لا القوة المادية .

«أون فرانز» وما أصدق القانون القرآني في هذا المعنى في قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ» .

ولو فرضنا أن الصفات النفسية تورث كما تورث الصفات البدنية فإنه مما لا شك فيه أن المؤثرات العارضة هي التي تكيف القوى الذهنية ، وأن العقبة والأداب القوية هي المنشى والخارس للمدينة .

إننا نجهل كنه الروح وحقيقة النفس ، كما نجهل أسباب افعالاتها ومداها وآثارها ومصادرها وعواقبها ، مما يمنع تقرير أصول علمية غير بها بين صفات الأمم النفسية كما غير بين صفاتها البدنية .

وكل ما يمكن تقريره بالمشاهدة والاستقراء في الحال أو في الماضي ، يشير إلى استعداد متشابه عند جميع الأمم لائق العلم أو الأدب ، أو بعبارة أعم ، لائق الحضارة كيما تلوّنت ومن أي جهة جاءت .

وإذا تجاوزنا عن بعض فروق محدودة تحدّثها البيئة والمناخ في بعض الحالات ، فإننا نستطيع أن نصل إلى القول بالمساواة التامة بين الأرواح البشرية ، أو بعبارة أخرى : إننا لا نعرف دليلاً على عدم المساواة . وتناولُ العلم والابتكار ، بل وتناولُ الجهل والفساد ، دليل على استعداد مشترك ومتساوٍ للخير والشر . وإذا كان كل ذلك من آثار العيش تحت عوامل مختلفة فإنه يُشير إلى وحدة الروح ، أو بعبارة أخرى ، وحدة القوى الذهنية ، أو تمام تشابهها .

وهذا يكفي لنفي امتياز بعض العناصر البشرية على بعضها بصفات ذهنية تجعل لأحدتها رجحانًا دائمًا .

ويحق لنا أن نقول : إنه ليس في الصفات البدنية ولا الصفات الروحية وحدة التكليف الدينية ومنها

المساواة التامة
بين الأرواح
البشرية

ما يدلنا على خلاف يحمل المدنية حكراً اطائفه من البشر ، أو عن المساواة في التكليفات التي جاءت بها الشريعة الحمدية .

ومتي وضح ذلك انها رأت الدعاوى المنصرة ، وانهار معها مبدأ القوة ك minden للحضار ، لأنه لو ثبت أن الطبيعة هيأت قوما دون آخرين للمرفان والعمران ، لجاز أن يحمل هذا القوم غيره على الاحتذاء به ، بل لكان في سيطرته وفهزه غيره فائدة عامة .

وكما أن العلم لم يثبت لأحد رجحان ، كذلك التجربة دلت على أن الأقوام إنما تستخدم ما أورت ، من قوة في الاستزادة من المنفعة لنفسها واستغلال الغلوبيين لأسباب عارضة ، وقد يتنا أن الغلب ليس ناشئاً عن صفات أصيلة طبيعية في عنصر ما . وكذلك دلت تاريخ البشر على أن الأمم المغلوبة لا تستفيد من غالبيتها بل قد تندثر بسبب هذا الغلب .

فالقول بالحق للأقوى ، هو قول يرجح بعض الأقوام على بعض دون دعوى هي أصل الاستبداد والتفاوت سبب طبيعي ، ويعيّن الاستبداد لقادرين عليه ، ويحوّل حق المستضعفين . وهو قول تأبه الشريعة الحمدية كل الإباء : فهي التي جعلت الناس سواسية ، وجعلت الحق للا نق والأبر ، وقررت أن الناس أسرة واحدة ، أكرهم عند الله أتقاه .

وهي التي يقول رسولها العربي الأمين « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالقوى والعافية » — أي حب الخير والسلام . فليس أكرم الناس أقوام بدنًا وأضخمهم ميراثاً ، ولا أكثرهم عرفاناً ، بل أطيبهم نفساً ، لأن النفس الطيبة هي التي على كلها التقوى فتنمها من فعل الشر وتحضها على فعل الخير ...

قيام المذنّية ودواعها

مذلة الأيام بين الناس — التفسير المادى للتاريخ — التفسير العنصرى للتاريخ — منافحة التفسيرين — التفسير الروسى هو الصحيح — من القرآن — بارود الفزفه — ساعة الفصل بين القدم والتأخر — نظرية تشاوم ملـ المذنـة الحاضـرة — بين المذنـة والـحق — الآهـيات الفجـانـى — موـاـملـ فـيـ المـديـنـات — التـرف — الضـفـفـ عن حـلـ أـمـانـاتـ المـضـارـة — هلـ جـاءـ وـعـدـةـ ؟

يـئـنـاـ أنـ سـنـدـ الـحـضـارـةـ إـلـاسـلـامـيـةـ هـوـ حـقـ الأـتـقـ وـالـأـبـرـ ، وـقـلـنـاـ إـنـ الـأـرـوـاحـ مـتـسـاوـيـةـ ، وـإـنـ (ـعـلـمـ الـإـنـسـانـ) لـاـ يـزالـ قـاصـرـاـ عـنـ يـيـانـ حـقـيـقـةـ الـقـوـىـ الـذـهـنـيـةـ وـكـيـفـيـةـ اـقـعـالـهـ بـالـمـؤـثـرـاتـ ، وـأـثـبـتـنـاـ أـنـ الـفـوـارـقـ الـعـنـصـرـيـةـ الـظـاهـرـةـ فـيـ أـجـسـامـ الـبـشـرـ لـمـ تـرـشدـ إـلـىـ اـمـتـيـازـ يـيـنـاـ فـيـ خـلـقـ الـحـضـارـةـ ، وـهـىـ قـطـمـاـ لـاـ تـجـعـلـ قـوـمـ اـمـتـيـازـاـ عـلـىـ قـوـمـ فـيـ الـاـخـتـصـاصـ بـهـاـ .

وـالتـارـيخـ الـبـشـرـىـ يـشـيرـ إـلـىـ الـحـضـارـةـ كـاـنـهـ شـعـلـةـ مـتـنـقـلـةـ ، وـيـدـلـ عـلـىـ أـنـ الـأـقـوـامـ الـتـىـ أـخـرـجـتـ أـعـظـمـ الـمـديـنـاتـ ، مـاـ لـبـثـتـ أـنـ هـوـتـ مـنـ شـاهـقـ مجـدهـاـ إـلـىـ الـحـضـيـضـ .

فـإـذـاـ تـعـقـبـنـاـ الـأـمـمـ أـمـمـ فـيـ مـدـىـ خـمـسـةـ آـلـافـ سـنـةـ نـجـدـ أـنـ هـنـاكـ قـاعـدةـ لـاـ تـخـلـفـ ، وـهـىـ أـنـ الـأـمـمـ تـرـقـعـ ثـمـ تـهـوـىـ كـاـنـتـ تـقـذـفـ بـالـحـجـرـ إـلـىـ أـعـلـىـ فـيـصـلـ إـلـىـ مـدـاهـ ثـمـ يـقـفـ ثـمـ يـهـبـطـ مـهـوـدـيـاـ إـلـىـ الـأـرـضـ ، وـكـاـنـ الـأـمـمـ الـتـىـ اـرـتـفـعـتـ شـىـءـ آـخـرـ غـيـرـ الـتـىـ هـوـتـ وـتـحـطـمـتـ . بـلـ إـنـ بـعـضـ الـأـمـمـ الـتـىـ لـاـ يـزالـ أـنـرـهـاـ يـدـوـيـىـ قـدـ بـقـيـتـ سـلـالـتـهاـ ذـاهـلـةـ عـنـ عـنـهـاـ ، كـاـنـ لـيـسـ يـيـنـاـ وـيـنـ آـبـائـهـاـ صـلـةـ !ـ فـاـ الـذـىـ رـفـعـهـاـ وـمـاـ الـذـىـ خـسـفـهـاـ ؟

لـقـدـ تـمـدـدـتـ الـعـلـلـ ؛ـ فـالـذـينـ يـفـسـرـونـ التـارـيخـ تـفـسـيرـاـ اـقـتصـادـيـاـ يـعـلـمـونـ هـذـاـ التـارـيخـ الـذـىـ عـبـرـ عـنـهـ الـقـرـآنـ أـوـجـزـ تـعـبـيرـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ «ـ وـتـلـكـ الـأـيـامـ تـدـأـولـهـاـ

بين الناسِ» بعلل مادية، ويفسرون الصعود والنزول بأسباب تمحضُ في المادةِ، فـ«أخصابُ الأرضِ» سببٌ طبيعيٌّ، أو تحوّلُ المطر أو زيادته أو تغيرُ الجوِّ، أو اكتشافُ طرقٍ جديدةٍ يتبعُها تغييرُ سبلِ النقل للتجارةِ، أو اكتشافُ أرضٍ جديدةٍ، أو ابتكارُ آلةٍ، أو استخراجُ معدنٍ، أو استخدامُ وسيلةٍ ما، أو غيرُ ذلك مما يُعنى ويُريدُ في القوى المادية، هو المنصرُ الذي يدفعُ بقومٍ إلى التحضرِ وحياةِ المُترانِ، كما أنَّ فقدانَ الرجحانِ الاقتصاديِّ يتبعُه التدهورُ والانحطاطُ.

الغبير المتصري
التاريخ

ويرى آخرون أنَّ سببَ ظهورِ أمةٍ ما، هو في ذاتِ جسمها وما يحصلُ من تزايدِ القوى الكينيةِ في ميراثها العنصريِّ، وذلكَ بأنَّه متزوجُ مع قومٍ آخرين قريبين منها، فيخرجُ من التواليِّ العنصريِّ أقوىًّا يندفعُ إلى أعلى عما هو كيّنُ فيه من القوى الموروثةِ، فيسمو ويتضيّفُ للتراثِ البشريِّ علماً ومدنيةً.

مناتنة المتصرين

وهي أقوالٌ لا تكفي لتقسيمِ الواقعِ ولا تخلُّ اللغزَ؛ فـ«كثيراً ما قام بالحضارةِ قومٌ، أو سقطوا واندرووا من غيرِ أن تكونَ الموارِيلِ الاقتصاديةُ سبباً في الظهورِ والاختفاءِ». بل إنَّ قدماءَ المصريينِ وهم رأسُ الحضارةِ البشريةِ، وقدماءَ البابليينِ، هم الذين زرعوا الصحراءَ ولم تكن الصحراءُ هي التي زرعتهم. وخروجُ العربِ من شبهِ الجزيرةِ وانتشارُهم، ووصلُهم بينِ حضاراتِ الأقدمينِ والحضارةِ الحديثةِ، وابتكارُهم وافتتاحُهم في العلومِ والصناعاتِ، لم يكنْ لأنَّ أرضَهم أجدبَتْ، ولا لأنَّ جوَّهم تغيرَ، ولا لأنَّ طرفاً جديدةً أو أوطاناً جديدةً قد اكتشفتْ.

وكثيراً ما كانَ الحرمانُ الماديُّ سبباً لظهورِ أقوامٍ وتغلُّبِهم على المادةِ وحصوْلِهم على ما يريدونَ بكفاحِهم ليُخرجوها للعالمِ حضاراتٍ مُضخمةً. ومثلُ اليونانِ والعربِ والفينيقينِ واضحٌ، وخيراتُ أمريكا وإفريقية الوسطى لم تَبعثْ قوماً جُددًا في آلافِ السنينِ، وإنما بعثَ أمريكا المغامرونَ المحرّمونَ.

كذلك لم يقم دليل علمي على أن تواجد قوم فيما بينهم وعدم اختلاطهم، سبب في انحطاط هؤلاء القوم ، بل بالعكس .
نعم لقد قيل إن ظهور الحضارة القديمة المصرية كان عِقْبَ وُرُودِ قومٍ من أسلاف العرب امتهنوا مع أهل الوادي وصاروا أقدماء المصريين الذين بنوا الأهرام ، ولكن ذلك ليس معناه أن انتعاش قومٍ من الأقوام كان لازماً مثل هذا الحادث .

فلا النظرية الاقتصادية ، ولا النظرية الأنثروبولوجية (نظرية علم الإنسان) كافية لتفسير أسباب ظهور المدينة أو سقوطها؛ لأن كلام النظريتين قد يفسر حالة ، ولكنه لا يطرد مع الحالات الأخرى .

النبي الروسي وإذا دققنا النظر نجد أن الأسباب الروحية والمعنوية هي التي ساعدت دأباً على الظهور أو الاختفاء ، ونجده العلل الأدية ملزمة بجميع الحالات في كل الأقوام . والقرآن كما أشرنا في الفصل السابق يؤكد هذا المعنى في كثير من آياته فيقول «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ويقول : «كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بأيات الله فأخذتهم الله بذنوبهم . إن الله قوي شديد العقاب ذلك بأن الله لم ينك مغيراً نعمة أئمتها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » «ولو أن أهل القرى آمنوا واققو افتتحنا عليهم برّكات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذذنهم بما كانوا يكسبون» «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون» « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحة ليستخلصنهم في الأرض كما استخلف الدين من قبلهم ولم يكتن لهم دينهم الذي ارتضى لهم» «وضرب الله مثلاً قريباً كانت آمنة مطمئنة سآتها رزقاً هارغاً من كل مكان فكفرت بأنتم الله فإذا قاتلها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» «وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين فلما أحسوا بأحسنا إذا هم منها يرثون كفوا

من القرآن

وأرجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم أملكم شاؤون . قالوا يا ويلنا إننا كُننا
ظالمين . فازالت تلك دعوام حتى جعلناهم حَسِيدًا خامدين »

فامن قوم خرجوا على الدنيا برسالة العرفان والمعمران إلا كانوا مهينين
لهذا ياعان قوى وأدب قوى ودعوة قوية ، وما من أمة تضاهلت عقائدها
وانحط أدبها وتذبذبت إلا أصابها ما أصاب من قبلها فهوتوت كان لم تكن
 شيئاً مذكوراً .

فالعقيدة الصالحة والأدب القوى والعرف الصالح كقوة البارد في دفع
بارود النزفة القذيفة ، تدفع الأم بقدر ما في عقائدها من قوة واستقامية .

وإذا أسمينا العقائد والأداب والعرف بالقوة المعنوية ، فإن هذه القوة الدافعة
تسوق الأم إلى الأمام ، حتى إذا ما تبددت بقيت الأم حيث أوصلتها الدفع
الأولى ، ثم هوت إلى الأرض كتلة لا تعي ، وكانت سلبيت حياتها . والتاريخ
يشهد على أن انحطاط كل قوم من الأقوام يتبدى حيث تبلغ السيطرة
المادية حد التسلط على حياتها ، تسيرها وتحل محل السيطرة الروحية والمعنىوية .
أو بعبارة أخرى حين تغاب شهوات الأبدان شهوات الأرواح . تلك هي
ساعة الفصل بين التقدم والتأخر .

وأكثرون المتشاغلين يعتبرون أهل الحضارة الحديثة من الغربيين قد بلغوا هذا
دوره ، ولا يفترون بظاهر القوى المادية ؛ فلا الثروة ولا العلم ولا ما ينتجهون
من طيارات ودببات ومدافع ووسائل سيطرة على الحياة المادية عائنة من هزيمة
المدينة واندثار الأقوام التي تذبذبت عقائدها وضل أدبها وانقلب عزفها .

ويرى بعض العلماء أن سلامـة المـقل البـشـرى لـيـس لـازـمـة لـلـرقـ المـادـى ،
فقد يـسـيرـ هذا الرـقـ عـهـداً ما ، وقد سـلـبـ الناسـ المـقلـ الـراجـحـ والمـيزـانـ الصـحـيحـ ،
ويـكـوـنـ سـيـرـهـ وـانـدـفـاعـهـ مـاـ يـقـرـبـ قـضـاءـ اللهـ فـيهـ وـسـتـهـ فـيـنـ خـلاـ قـبـلـهـ
مـنـ الـمـتـرـفـينـ ، وـمـحـقـقاـ لـقـوـلـهـ تـعـالـىـ «ـ حـتـىـ إـذـ أـخـذـتـ الـأـرـضـ زـخـرـفـهـ وـازـيـنـتـ

وَظَنَ أَهْلُهَا أَنْهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنْهَا أَمْرَتْنَا لِيَلًا أَوْ نَهَارًا بِفَعْلَنَا هَا حَصِيدًا كَانَ
لَمْ تَقْنَ بِالْأَمْسِ »

الايمار التجار
وَإِتَّيَّانُ أَمْرَهَا لِيَلًا أَوْ نَهَارًا هُوَ الإِشَارَةُ إِلَى مَعْنَى الْمَفَاجَاهَةِ ، فَإِنَّ اِتَّيَّانَ
الْمَدِينَةِ وَسُقُوطَ الْقَاعِينَ عَلَيْهَا لَا يَكُونُ عَلَيْهِ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ مِّنَ الْأَحْوَالِ الْمَادِيَّةِ ،
وَلَكِنَّهُ خَفِيٌّ خَفَاءُ الْقُوَى الْذَّهَنِيَّةِ وَالْعِوَالِيَّاتِ الْفُسُنيَّةِ الَّتِي لَهَا الْأَثْرُ الْأَوَّلُ فِي قِيَامِ
الْحَضَارَةِ وَسُقُوطِهَا .

عوامل فناء
المدنيات
وَمِنَ الْعَسِيرِ جَدًا فِي مَثَلِ هَذِهِ الْمَجَاهَةِ أَنْ نَخْوَضَ فِي تَفْصِيلِ عَوَالِيَّاتِ
فناءِ الْمَدِينَةِ وَنَسْتَقْصِي أَسْبَابَهَا وَأَثْرَهَا وَسَرْعَتَهَا ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَعْنِيُّ مِنْ
أَنْ نُشِيرَ إِلَى سَبَبَيْنِ قَدْ يَكُونُ مُجْمِعًا عَلَيْهِمَا .

الترف
الأول : الترف ، فَإِنَّ الْأَمْمَاتِ تَهْبِيَّاتُهَا بِيَثِّةٍ رُّوحِيَّةٍ صَالِحةٍ سَمِتَ وَاندفَعَتْ
إِلَى الْعُمَرَانِ وَالْعِلْمِ فَأَتَجَهَتْ وَاسْتَقَامَتْ لَهَا الْأَمْوَارُ بِمَا يُعْسِكُهَا مِنْ إِيمَانٍ وَأَدَبٍ
يُوحِدُ بَيْنَهَا ، وَيُحَدِّدُ مُسْلِكَهَا ، وَيَقُولُ مُعْوِجَهَا ، وَيَحْفَظُهَا مِنَ التَّرَدُّدِ وَالْقُنُوتِ ،
فَتَجَدُّ نَفْسَهَا بَعْدِ حِينٍ قَدْ نَعَمَتْ بِالْحَيَاةِ وَدَانَتْ لَهَا طَبَيَّاتُ الرِّزْقِ ، فَتَلَوُّ بِهَذِهِ
الْطَّبَيَّاتِ ثُمَّ تَنَفَّسَ فِيهَا ثُمَّ تَعِيشُ لَهُواهَا وَتَتَسَايقُ فِي شَهْوَاتِهَا وَتَتَقَلَّبُ رِسَالَةُ
الْحَقِّ عَلَيْهَا ، بِمَا تَقْدُمُ مِنَ الصَّبَرِ وَمَا تَجْهِدُ مِنَ لَذَاتِ عَاجِلَةِ ، فِي دَاخِلِهَا الشَّكُّ
فِي دُعْوَةِ مُنْشَىٰ حَضَارَتِهَا ، وَتَرْتَابُ فِي كُلِّ تَرَاثِهَا الْأَدَبِيِّ ، وَتَجْهِدُ غَضَاضَةً فِي
الْتَّقِيَّةِ ، فَيُضَيِّعُ الْعِرْفُ الَّذِي يُعْسِكُهَا ، وَتَتَدَاعُى الْقُوَى الْرَّابِطَةُ لِكِيَانِهَا ،
فَتَتَفَكَّكُ الْعَرْقُ وَتَحُلُّ الْفَوْضَى ، وَيَسْتَخَلُّ إِلَهُ الْمَدِينَةِ قَوْمًا آخَرِينَ خَاصَّ
الْبَطَوْنَ ، يَجْبُونَ الْحَقَّ كَمَا يُحِبُّ الْمُتَرَفُونَ كَأَسْهُمْ وَغَوَّابِهِمْ .

وَهَذَا التِّرْفُ يَتَوَلَّ مِنْهُ السَّبُّ الثَّانِي لِلْانْخَطَاطِ فَإِنَّ رِسَالَةَ الْقَوْمِ الْأَوَّلِينَ
تَكُونُ بِسِيَطَةً وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا بِتَفْرِغِهِمْ لَهَا . أَمَّا أَعْقَابُهُمْ فَإِنَّ أَعْبَاءَ رِسَالَتِهِمْ
تَزَادُ بِطَبِيعَةِ نَوْحِ الْحَضَارَةِ نَفْسِهَا ، وَبِتَطْلُبِهَا مُجْهُودًا أَشَقَّ وَنَظَرًا أَدْقَ وَعَنَيَّةَ
لَا تَنْقِطُعُ . فَقَائِدُ الْكِتَابَيَّةِ فِي جَيْشِ الْفَاتَحِينَ الْأَوَّلِينَ يَحْمِلُ مَحْلَهُ بَعْدِ جَيْلٍ قَائِدٍ

الجيش في دولة الحضارة الامبراطورية، ومدير المصنوع بعشرات الألوف من العمال، ومدير المصرف بآلاف الملايين من الدرهم.

وتنتازم المدينة عندئذ من أربابها قلوبًا متفرغةً وعقولاً صافية وأبدانًا رياضيةً ويشغل حملها ، بينما يكون النعيم قد سلب الناس العقل ، واللذة قد قضت على الفراغ «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه» فيضعف الجيل عن حمل الحضارة التي أنشأها آباءه بداعف معنوي ، فيخُورُ ويُفْقِد إيانه بنفسه ويَهُوِي إلى الأرض مسلوب الرُّوح ضحيةَ الهوى والضلال ، وكان آباءه في نهضتهم شهداء الحق والمرودة والعزة ، يحبون الموت كأحب أخلاقهم الحياة ، فعاش الأولون مشكورين وما توا ذكورين . أما هؤلاء فاتوا مدحورين وعاشوا مفمورين منسيين .

فلاشك أن العقيدة الصالحة التي تحيط بها وتحذّها التقوى هي القوة الأولى لبناء المدينة ، وضياعها نذير بدمار المدينة .

نعم لاشك أن الإيان القائم على صورة من العقائد الصالحة للعمaran يسير في ركابه عرف صالح وأدب صالح يستمد سطوه من العقيدة والإيان . فهو القوة المنظمة والمخرجة للدور الحاسم في الحضارة . وقد جرت سنة الله على أن النفوس البشرية يستهويها المtauع والنجاج بما يهي لها من خيرات الأرض وطيباتها ، فإذا تهافت استغنى الإنسان عن السكوت وطفى وصار إلى عاقبة الأمر الأولى .

وإنه ليحزننا أن يكون ما نرى في الدنيا نذيرًا بأمر الله ! فلا ألم ! ملءوا وعدهم !
المتأخرة من المسلمين ، ولا المتقدمة من المسيحيين واليهود ، على شيء من التقوى .
تذبذبت العقائد ، وذهب العرف وساد حب الدنيا ، وعم الترف ، فهل جاء وعد الله ؟ إنما لنرجو أن يتدارك الله هذا العمران بقوم خاص يبطون يحبون الحق كا يحب المتحضرون المال والمتاع ، ويرثون هذه الحضارة فيضيغون

لِلْعِلْمِ وَالْعِرْمَانِ، وَيَرْدُونَ إِلَى الدِّينِ يَا ذَلِكَ الْعُقْلُ الْفَائِعُ وَالْإِعْانُ الْقَوِيُّ .
وَسِيَجِدُ هُؤُلَاءِ فِي الدُّعَوَةِ الْحَمْدِيَّةِ كَمَا وَجَدَ الْأُولُونَ الرُّوحَ وَالْعُقْلَ وَالنَّقْوَى
وَالْمَهْدِي . نَعَمْ سِيَجُودُنَّ الْمَهْدِيَّ ذَلِكَ الَّذِي هَزَّتْ بِهِ قَرِيشٌ وَقَالَتْ « إِنَّنِي تَبَعَّنْ
الْمَهْدِي مَعَكُمْ تُخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا » فَلَمَّا اتَّبَعُوهُ خُطِفُوْمُّا مِنْ أَرْضِهِمْ لَا لِهُوَانِ ،
وَلَكِنْ لِسِيَادَةِ الدِّينِ !

نظام جديٰ للعالم

سوت من أسوات الدعاء — فلتتحرر من النظريات القدية — المدية في رأي (كپنج) — وطأة العيش في عصور الانتقال — هل استطيع وضع نظام للمستقبل ؟ — ماذا بين أب جاهل وإن عالم ؟ — بين جاهل معاصر وجده الفرعوني — لتصدر عقوبة الترور — إلى نظام سلي مؤقت — لا أمل في شوخ الساسة وفي العامة — الأمل في القدرة العليا وفي مرونة الطبيعة الإنسانية — فلتؤجل النظم المثالية المفردة — من تاريخ الاستبداد بين الناس العليا والواقع السُّيُّون

سنحاول ما استطعنا أن نجد القواعد التي نظمها صاحبة نظام جديٰ يرضاه
الآباء والأفراد والطبقات والأمم ، غير مقيدين في رأينا بما يقوله الدعاة في جوانب
العالم ، وعاملين جهد الطاقة على التحرر فما نبدي من رأي من العصبية لعنصر
أو مذهب من مذاهب الاجتماع . فإذا وفتنا في هذا كل الخير ، وإذا أخفقنا
فإنما نرجو أن يكون هذا الجهد ضمن الجهد المائة الذي يستعان بها على الوصول
إلى الحقيقة والمُهْدى .

ولابد لنا من أن نروض تفكيرنا على التخاضع من النظريات القدية التي
كانت في عهدها حقائق مصححة ، والتي جعلها تطور الحياة الاجتماعية ، وتقرب
الأوطان بزيادة سرعة النقل صارمة بسير المدينة . ولاشك أن العالم يمر في
محنة غير مسبوقة النظير ؛ فإننا لا نعلم فيما بين أيدينا من تاريخ البشر مثل الذي
دهى العالم هذا الجيل . فليست غارات (التر) التي لا يزال الناس يذكرونها قرينة
للويل ، شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الدمار والقتل العام الذي استطاعته الأسلحة
الجوية ، والفناء الذي يستطيعه تسخير العلم الحديث ؟ فلا بد إذاً من نظام جديٰ
لهذا العالم يتداركه من سقطته ودماره .

فما هو هذا النظام ؟ ذلك ما يتساءل الناس عنه في كل مكان . ولعلنا إذا
ابتدأنا بحثنا كما يتدبر الطبيب بالفحص عن أسباب العلة سلكنا الطريق
المستقيم إلى تكيفها ثم إلى علاجها .

فأول ما يخطر في البال هو التساؤل : ما الذي جعل مدينتنا الحديدة مع
ما وصل الناس إليه من علمٍ ومعرفة مصحوبةً بهذا الشر المستطير ؟

يقول كبلنج «إن المدنية هي النقل» وهو قول يستحق التفكير ، فلتتظر
إليه من هذه الناحية . فكم من القرون قضى الإنسان ليتعلم تسخير الحيوان في
النقل ؟ ثم كم من القرون صرت ليكتشف العجلة ويربط بينها وبين الحيوان ،
وليسْرِعَ للسفينة شراعاً ويستخدم الرياح ؟ وفي كل هذه القرون كم زادت
سرعة حركته ؟ فإذا قيَّمنَا ذلك بتسخير البخار في القطار والسفينة أدركنا
المفاجأة التي فوجئ بها العالم حين ظهرت المدنية الحالية قبل أقل من قرن . فإذا
أضفنا إلى ذلك استخدام الكهرباء وأكتشاف اللاسلكي والسيطرة على الجو
بالطائرات ، ونظرنا إلى تطور سرعة النقل في السنوات العشرين الأخيرة ،
أدركنا كذلك ما سيكون من فرق بين مدينة هذا الجيل ومدينة الجيل الآتي .

إن متوسط السرعة قبل مائة سنة لحركة الإنسان في الانتقال من مكان
إلى مكان لم تزيد على ثلاثين ميلاً في اليوم ، ومتوسطها الآن قد وصل إلى أكثر
من مائتي ميل في الساعة ، ولا يزال يزداد باطراد .

إذا كانت المدنية هي النقل كما يقول (كبلنج) ، وإذا كانت السرعة هي
القياس لما بينها من فروق ، فإن ما بين مدينتنا ومدينة أبنائنا سيكون على
هذه النسبة .

فكان فعل البخار العالم القديم من العالم الحالى فسيفصلُ اللاسلكي ، وكذلك
هذه السرعة المتزايدة في الجو عالمنا من العالم المقبل .

ومن سوء حظ هذا الجيل أن يكون صلة بين هالين ، وأن يذهب ضحية الاتصال العنيف . وعلى ذلك هل نحن ، أهل هذا الجيل ، حقيقة جديرون أن نضع نظاماً عالياً من بعدهنا ؟ قد يكون النظام الذي يرتكضونه بعيداً عن تصوّرنا بعدَ نظامنا بما قبل استخدام البخار .

ومن ناحية أخرى فإننا نحن الذين لا نزال نجهل فوسنا فلا نعرفها ولا نلمسُها ، ولا نحيط إلا بقليل مما أودع فيها من القوى الذهنية والقوى الروحية ، لن نستطيع وضع نظام للعالم وهو ليس من صنعنا ؛ فالإنسان فيه حيوان أوثق من القدرة ما يسمح له بالتصريف في نطاق محدود .

لقد سار العالم آلاف السنين على وثيرة واحدة . كانت الحضارة تقدم ببطء وتنتقل من وطن إلى وطن ، وفي كل نقلة تنطوي مئات السنين قبل أن تذبل ، وتنقضى مئات أخرى قبل أن تزدهر في قوم جدد ، فكان العقل البشري مستطيناً في نطاق قدرته أن يسايرها وأن يسيطر إلى حد كبير على مقدرات مدينته ؛ فلما تفجرت بخاء بناء العلم الحديث زلزلت الأرض زلزاً لها وأخرجت أثقالها فبُهتَ الإنسان وقال مالها ؟

ففي جيل واحد اقلب وجهها ، وتناكر القديم والحديث

ولنضرب لذلك مثلاً : شيخ في قرية بجوار (طيبة) في صعيد مصر يعيش بما عاش آباءه في مصر القديمة ، بعث في أوائل هذا القرن بابنه إلى أمريكا فتشأ هناك وترزوج ورجع بأسرته إلى قريته ، فوجد آباءه حيّاً يفلح أرضه بغير أنه الفرعوني ، ويأوي إلى بيت لا يزال على طراز المهد المكسوسي ، ويفكر كما كانوا يفكرون أيام خوفو ؛ لاشك أن الآباء وأباء حين التقى تناكرا ، فكانوا هبط الآباء من كوكب آخر ، فلن يستطيعنا أن يتعاشرا ولا أن يتعاونا على شيء .

ولنفرض أن الله بعث في تلك الساعة أحد سكان (طيبة) من قبره . بعث
شيخ بلده من عهده (رمسيس) من أجدادها ، ليشهد الحفل العائلي لابن العائد
من أمريكا ؛ فهل يجد الناس أن شيخ البلد الذي بعثه الله من قبره بعد غياب
ثلاثة آلاف سنة ، أقرب إلى شيخ القرية ، أم إلى ذلك الابن الذي ولد في القرن
العشرين وغاب ثلاثة سنة فقط ؟

سيجد شهود الحفل أن الجد الفرعوني أقرب إلى قلب الأب وعقله وطراز
حياته ، من ذلك المولود فيهم ، القادر عليهم من العالم الجديد .

ثلاثون سنة فملأ بالعائلة البشرية ما لم يفعله ثلاثون قرناً ! وهي لم تفعل
ذلك في مصر وحدها بل في العالم كله . قرن واحد بدأ وجه الأرض كما يده
الزلزال وفصلنا عن ماضينا بعنف ، وكأنما نقلنا إلى كوكب آخر .

وإذا فهل حقيقة نستطيع ، نحن خداماً لهذا الانتقال ، نحن الذين ملأنا
الآلة وملأنا ، وأصبحنا نسيرها إلى مجدها وتطوينا في ثناياها إلى مجدها
أعظم ، هل نحن حقيقة جديرون بوضع نظام لعلم المستقبل ؟

إذا ظلتنا بذلك فإنني أخشى عقوبة الفرور . وقد يكون من الخير والصواب
أن نكتفى فيما نسميه « النظام الجديد » بعمل سلبي ، هو نظام عتنع فيه بتاتاً
عن تسليط ما بأيدينا من قوى للتدمير والتخريب ، وعن مضاعفةِ العوامل
التي اضطرب لها وجودنا كلّه .

يجب أن يكون هدفاً فيما نسميه « النظام الجديد » تحجيف ويلات
عهد الانتقال .

لقد شاهدنا الحرب العامة الماسنية ، وسمينا وتحمسنا لأحاديث عن نظم
جديدة لعالم جديد . ونحن اليوم نشهد مرة أخرى حرباً أعظم وحدينا أشهى
ولكن هل بين المقل الذي سيطر على أداة الدمار الماسنية أربع سنين ، من
١٩١٤ - ١٩١٨ والعقل الذي سيطر عليه ، أكثر من أربع سنين من

بين جاهل
معاصر وجده
الرعوف

ل tudur عقوبة
الفرور

لل نظام سلي
موقع

١٩٣٩ - ١٩٤٥ فرق؟ هو هو العقل العاجزُ أَسْيرُ الماضي ، غلبة الآلة والمادة
ومدنية النقل المتزايدة السرعة ، خار فيها وناء بحملها .

أقبلنا شيئاً على أقوالِ عن عالم جديد فتحمسنا لها ، فإذا سمعناها اليوم بعد
تجربة ، ملأتنا خوفاً وتشاؤماً ، لما ظهر لنا من الكذب والعجز .

مشت الحضارة البشرية القديمة في تطورٍ بطيءٍ مثباتٍ القرون فهضمها
العقل البشري ، أما الحضارة الحديثة فستحتاج إلى وقت طويل ليهضمها
العقلُ البشري .

إنني قليلُ الرجاء في شيوخِ الساسة وفي نُفُوجِ العامة لتحمل المسؤوليات
الجسام المتعددة ، ولكنني عظيم الإعان بالقدرة العليا التي تُديرُ هذا العالم !
في الطبيعة نفسها كلُّ الرجاء ، فقد خلقَ الإنسان وفيه من القدرة على الإفادة
من الصدمة ، وله من المصانعة والمحاكاة والتطور ما يضمن بقاء النوع واستمرارِ
رُقْيَة ، وسيكتشفُ الإنسان بغيرِ ذرة حبِّ البقاء بعد تجاربَ مُروعة قاسية
نظامًا عالمياً مناسباً متعددًا يساير العصر الآلي ، عصر السرعة المتزايدة ، أقول
نظامًا مناسباً متعددًا ؛ إذ ليس من الصواب في شيء أن نحاول إملاء نظامٍ
كاملٍ ثابتٍ لا يتغير ، فالأشكال والأوضاع المستحدثات كلُّها تحمل في
طبيعتها التغيير بل الزوال والفناء .

وأَكثُرُ ما يقع فيه الإنسان من كوارث هو عقوبة الفرود والجهل ،
وأَكثُرُ ما يصبه من شرٍ هو رد الفعل لافتراضه وادعائه .

فإذا حاولنا أن نعطي الناس نظاماً عالمياً مثالياً ، وتجاهلنا غرائزَ حبِّ
الظهور والسيطرة والتعالي ، مما هو كامنٌ في صميم النفس الإنسانية ، فإننا
نحاول إقامة هذا النظام على رُكَانٍ من الفرائض الحيوانية المتفجرة الجائحة .
وإذا فكل نظام عالمي لا يرضي الفرائض البشرية ، ولا يعين على توجيه الدافع

الإنسانية ، هو نظام تقضي عليه الغرائز نفسها ، أو تتخذه وسيلة لإشباع شهواتها : فن شأن الطبيعة الإنسانية أن تقلب كلّ نظام مثالى وأن تكificeه ، وإن أصبح بالنسبة لها نظاماً لا تطبيقه .

وليس أدلّ على ذلك من تاريخ المذاهب والأديان الداعية إلى فلسفة سامية .
 خذ مثلاً دعوتين ينتمياً لفاسنة : المسيحية والشيوخية ، فإذا صنت بهما غرائز الإنسان الفطرية الحيوانية ؟ لم يُرد كل دعوة منها أن ترسم نظاماً مثالياً سامياً ؟ فإذا بقيَ من المثل الأعلى فيها ؟ بقيت تلك المأساة التاريخية الطويلة !
 فقد سُفكَت باسم المسيحية وفي سبيل المسيحية التي تحترم الحرب دماءً أغزرُ مما سُفكَ في سبيل آية دعوة أخرى في تاريخ البشرية . بل إن القارة الأوروبية التي هي مقر المسيحية ، هي وكر الحروب والدمار على طول الألف الأخيرة من السنين .

ماذا بقى من وصايا المسيح الجليل الرحيمة التواضعة ؟ لم تصنِّعها غرائز النَّلَب والقهر والزَّهْو والاستعلاء صُنْعَها ، وتستخدِّمُها في إشباع النوازع البشرية ؟

كذلك الدعوة الشيوخية ليست حديثة ، فهي أخت (المزدكية) الفارسية ونسخة منها . دمرت المزدكية فارسَ فيما مضى ، وسُفكَ في سبيل الشيوخية الحديثة من الدِّماء مالم يُسفِكَ من قبل في سبيل التهـب والسلـب في قومٍ من الأقوام ؛ ومع ذلك فإذا بيقـى من الشـيوخـية المـثالـية ؟

الظاهر أنَّ النـظامـ المـثالـيـ الكـاملـ خـيـالـ فـي هـذـهـ الـدـنيـا ؛ فـإـنـ الطـبـيـعـةـ البـشـرـيـةـ تـأـبـاهـ . فـهـلـ يـحـسـنـ بـنـاـ أـنـ تـجـزـيـ وـرـاـهـ أـوـ نـلـحـقـ فـيـ طـلـبـهـ ؟ أـمـ الـأـوـلـىـ بـنـاـ أـنـ تـقـنـعـ بـنـظـامـ دـيـنـيـ يـؤـذـيـ بـيـنـ الـطـوـافـ وـالـشـعـوبـ وـغـلـيفـةـ أـشـهـ بـوـظـيفـةـ الـقـاـوـنـ الـعـادـيـ بـيـنـ الـأـفـرـادـ ، فـيـقـتـصـ مـنـ أـطـرافـ الشـرـ ، وـيـدـيمـ السـلـمـ وـيـحـصـرـ

من تاريخ
الاستدام بين
السلالـيـاـ
وـالـوـاقـعـ الـسـيـ

أذى الحرب ووجه الفرائض وجهة ترضاها، فتشريع شهواها من غير طريق المدوان؟ نظام يسر للجميع العيش، وتسند المصلحة المشتركة لفرد والجماعة والشعوب في عالم جعل منه النقل السريع وطننا واحداً.

وبعبارة أخرى: نظام هو مجموعة قواعد عامة تصبح عِرْقاً عاماً يرضاه الناس ولا ينفعونه.

الواجب قبل الحق

شعل المفكرين في العالم — جمعية إنجليرية تضع دستوراً لحقوق الإنسان —
استفتاء عظيم من مفكري الفرق — رأي غاندي — حضب ويلز على
غاندي — رأي نهرو — مع رأي غاندي — فلتجرِّب طريقة غاندي —
طريقة مجربة في الإسلام — تحويل التصور البشري — إعلان الفرانتز
ونحويها — تربية يطرد بها روح الأدبان

قبل انتهاء الحرب الأخيرة وبعدها ، بل وقبل نشوئها ، أقبل كثيرون من
المفكرين الخالصين في العالم ، فرادى وجماعات ، على التفكير في نظام يرضي
الناس وينقذهم من مآسيهم وآلامهم التي أو倩تهم فيها أسباب الاضطراب العالمي
التي استعرضناها في الباب السابق .

ومن بين الجماعات الكبيرة التي اهتمت بذلك جماعة تألفت من أهل
الفضل في (لندرة) برأسها الحامي الشهير (الاوردننك) ويقوم بدعوتها
الكاتب المعروف (هـ. جـ. ويلز) .

وقد وضعت هذه الجماعة بعد مناقشات ومكاتبات مشروعاً أعلنت فيه
حقوق الإنسان ، واقتصرت أن يكون دستوراً للعالم بعد الحرب الأخيرة .

وقد تضمن هذا الدستور إحدى عشرة مادة ، هي في نظر الجماعة حقوق
الإنسان التي يجب أن لا تتعرضها شريعة ولا عُرف ولا أية نظام محليٍّ لقبيلة
من القبائل أو شعب من الشعوب ؛ فهي القانون الأساسي الذي يجب كلَّ
تشريع مخالف له .

وأهم هذه المواد يتعلق بحرمة الملك ، وحق التعلم ، وحرية العقيدة ،
والحرية الشخصية ، وحق العمل ، وحق الفاصل في حماية الجماعة ، الخ ...

شعل المفكرين
في العالم

جمعية إنجليرية
نضع دستوراً
لحقوق الإنسان

وقد بعثت هذه الجماعة عشر وعدها لزجليين عظيمين من مفكري الشرق : استفتاء عظيبين
من مفكري
الشرق
ها المهاها (غاندي) والزعيم الهندي (جواهر لال نهرو) تسأل رأيهما ، فأجاب
غاندي بما يأنق ، قال :

«ماهى النتيجة العملية لإعلان هذه الحقوق ؟ ومن ذا الذي يرعاها ويحرسها ؟
رأى غاندي
وسواء أكنتم تقصدون إلى الدعاية وحدها أم إلى تنوير الرأي العام العالمي
فقد ابتدأتم من الطرف الخاطئ . وإنني أقترح عليكم وأرجى أن القسوب هو في
أن تبدئوا بإعلان «واجبات الإنسان» . ولا شك عندئذ أن الحقوق ستتبع
كما يتبع الربيع الشتاء .

إن أكتب إليكم عن تجربة وخبرة ، فقد بدأت حياتي مهتماً بحقوق ،
وكان جهدي منتصراً لتقريرها والحصول عليها ، وسرعان ما أدركت أن لاحق
لي حتى قبل زوجي . فأخذت أنظر في واجباتي وما على قبل زوجي وولي
إخواني والمجتمع فادتها ، وأنالي يوم أجده نفسي ولني من الحقوق وليس
لرجل آخر أعرفه في هذا العالم »

وقد أثار جواب غاندي غضب (ويلز) خمل عليه حملة مُشكّرة ، وعدده غضب ويلز على
يانه منه للتعاون ، وعشياً مع مذهب الساي ، واتهم غاندي بالتأخر وبعدم إدراك
ضرورة العصر .

ولكن هل أنصف ويلز غاندي ؟ ثم أليس في كلام غاندي ما يستحق
النظر والتفكير ؟ ذلك ما سنبحثه .

أما (جواهر لال نهرو) فقد أرضى جوابه ويلز ، فقال عنه : إنه عملني وإنه
يستحق عظيم الاهتمام ولو أنه خالفه في أمور غير جوهريه .

يقول نهرو : «سمع الناس كثيراً مع الإعجاب موافق وبيانات أعلنت
حقوق الإنسان واتهت إلى لاشيء ، وأحقها بالذكر ميثاق (بريان - كيلوج)
الذى حرم الحرب .

ولقد نظرت في يانكم عن حقوق الإنسان فأزعني أن لا أحد فيه ماهندي
إلى كيفية تحقيقه .

أنا لا أقصد التفاصيل ، بل أقصد الأصول التي يقام على قواعدها العالم
اجتماعياً واقتصادياً . وإذا كان من الحق ، وهو عندي الحق ، أن مأسى العالم
الحالية ترجع قبل كل شيء إلى فساد نظامه السياسي والاقتصادي ، فلا بد
من تغيير هذا النظام كي يستطيع تطبيق ما يريدونه من الحقوق التي أعلنتها
إن يانكم ، يامسترويلز ، ليس قابلاً للتحقيق بحال من الأحوال مادام
النظام الاستثماري والرأسمالي يسودان العالم . تقولون إن لكل إنسان كذا
وكذا من الحقوق ، وهو كذلك ، ولكن أني لهذا الإنسان أن يصل إلى
حقوقه تحت النظام الرأسمالي ؟ ثم أني له أن يتمتع بشيء منها مادامت أمته أو
طبقة تسيطر على أخرى وتسرعها ؟ إن الطريق إلى الأخلاص هو الاشتراكية ،
وأن يقوم النظام العالمي الجديد على أصولها .

ذلك هو جواب (جواهر لال نهرو) وهو من الشخصيات العالمية المحترمة
وسنعود إلى ما يشكو منه في الفصل المسبق . أما جواب غاندي فإنه كما قلت ،
رغم اعترافات ويلز ، يستحق النظر والتفكير .

مع رأى غاندي حقوق الإنسان كثيراً ما أعلنت ، وكثيراً ما انتهكت . ومادام الأقواء
لغير تدعون بداع من التربية والعرف والوجдан ، فإنها تبق حيث هي غير
قابلة للتحقيق .

ويصح لنا أن نجري بـ تربية جديدة وطريقة جديدة ، فنتحذ الواجبات
فاتجب طريقة
غاندي أساس النظام الجديد ؛ فبدل أن نحاول المساواة بين الناس في الحقوق ، تقيم
هذه المساواة على أساس الواجب ؛ فربما كان ذلك أفعلاً في رد المدوان وفي
احترام حق الغير .

فلو أنّا عوّدنا الناس بالتربيـة إـكرام القـائم عـلـي واجـبه أـكـثر من المـطالب

بحقّه ، جعلنا الواجب مصدر العلاقات الأدبية والاجتماعية وأنشأنا نظاماً جديداً
لعالم أحسن من عالمنا الحالي ، لأن التربية التي تجعل القيام على الواجب غاية
الإنسان الراق ، تنتهي باحترام حق الغير احتراماً أحفظ وأنفع للحقوق من
كل قوة تُستخدم لكتابتها أو الحفاظ عليها ، ولعل هذه الطريقة في التربية طريقة مجربة في
الإسلام هي التي تتناسب مع تاريخ الإصلاح البشري ؛ فهي طريقة الأنبياء والمصلحين
الذين وجهوا همهم إلى تعريف الناس بواجباتهم . فليس من المتسر الرجوع
إليها ولا خلق ذهنية جديدة أساسها فضل من يؤذون واجبهم على
سائر الناس .

حرّم الأنبياء القتل والسرقة والقدر والكذب ، فشرعوا بذلك واجبات
أساسها النهي . فإذا أخذنا في التعرّف إلى ما نحرّمه على أنفسنا ، وجعلنا هذه
الحرمة عامة ودولية ، كان ذلك عملاً إيجابياً حاسماً في سبيل إقامة نظام جديد ،
ولو كان ظاهره دعوى سلبية أساسها النهي والتزام الواجب

فتلا لو أن الناس أذِّموا وعُلِّموا أن لا يفرّقوا بين القتل والقتال ، لأن
الواجب يحتم على الإنسان المهدّب الحترم أن يبتعد عن إزهاق أرواح الناس لغير
جريمة ارتكبوها ، وبغير قانون وقاض يقضى فيها ، ولو صار الامتناع عن
القتل في الحرب كالمتناع عن القتل في غير الحرب واجباً ، من يتعدّاه يُعتبر
 مجرماً ، ل كانت هذه التربية وهذا الأدب والعرف أفشل في منع الحروب من
كل الموائق والنظم .

ولوسادت هذه التربية لكيانت وظيفة الجندي على أحسن صورها كوظيفة
الحلاق في نظر العامة سواء بسواء .

نعم إن تحويل التصور البشري للأمور عمل شاق ، ولكن ألم يتبدل في
جييل أو جييلين تصور الناس لأمور كثيرة تبدلاً تاماً ؟ فلم لا يستطيع بالتجربة
تعويض التصور البشري

والتدريب خلق عُرف عام عالمي أساسه حرمة الواجب في كل الأحوال والظروف؟.

ولعله من المتيسر أن نوجه الفرائض البشرية التي نشكو منها في إفساد النظم المثالية وجهة الفخر بأداء الواجب .

فإنما يزهو بإنقاذ غريق أو التعرض للخطر في إطفاء حريق . فإذا صار العرف أن هذا العمل هو الذي تستحق عليه أعظم ألقاب الشرف ، وأن الامتناع عن الأذى والاستشهاد في ذلك هو البطولة الكاملة ، لا تخدمنا فرائض الاستعلاء والظهور في الخير العام .

ولم لا يخلد ذكر الدين ظهرت آيات مروءتهم في تأدية واجبهم بدل الدين ظهرت قدرتهم على الافتراض والفتاح بالغير ؟ فقد نصل عن طريق تعليم الواجب وتقديسه إلى إقامة صرح الحق وتخليده ، ونكون قد اصطلحنا مع فرائض الفطرية ، فنعدل عن كتبها واستفزازها إلى وجيهها واستخدامها في تدعيم النظام الجديد .

ولا أظن أحداً من جيلنا الذين شهدوا هذه الحرب والتي قبلها يكفيه أن يتصور نظاماً جديداً يستحق البقاء لا يحرّم الحرب تحريراً بما ... فهو لذلك من سبيل أصلح من سبيل الأنبياء: سبيل التحرّم عن طريق تعليم الواجب ؟ فإذا لم نعلم الناس ونربّهم على احتقار القتال احتقارهم للقتل ، فأتي لنا أن نكفل السلم بتجريده من السلاح أو وضع أم مسلحة حُرّاساً على السلم ؟ ومن ذا الذي يضمن أن لا يقتل الحراس طمعاً فيما أتّمّنوا عليه إذا لم تكفل ذلك التربية التي أساسها تقديس الواجب .

إلا إن إهلاك الفرائض ليس هذه التربية مستحبة ولا هي خيالاً؛ فإن في حياتنا الأولية كثيراً من الفخر بغضب النفس والحرمان ، وتاريخ المروءة تاريخ طويل يكاد يلزمه وتحويهها

الناس في كل جيل ، وهذه المروءة عاًتنطوى عليه من نكران الذات تعلُّمها الناس بالمجتمع وبالدين ، فصارت فطرية لأن الفرائز التي ترضيها المروءة هي ذات الفرائز التي يرضيها العدوان .

خين كان خير الناس بالكرم ، كان إشباع غريزة حب الظهور في البذل والمعطاء ، ولما صار خيرهم بالأثاث والسيارات والمقتنيات ، صار إشباع هذه الشهوة بالأثرة والأناية .

ولو علمنا أولادنا أن زَهُومَهُ وِإعْجَابَهُم ليس في أن يلْسُوا ثُوبًا جديداً في العيد ، حين لا يجد أولاد عمومتهم أو جيرانهم ثوبًا مثله ، وعوْدَنَاهُمْ أن زَهُومَهُ وظُهُورَهُمْ في أن يَتَّسِّعَا مختارين عن لِبْسِهِ تَائِيًّا بأهْلِهِمْ ، فإنَّ غَرِيزَةَ حُبِّ الظهور تتدرب على إشباع غرضها بالامتناع ، وتتجدد حظتها في أداء الواجب .

ولن يكون هذا جديداً في حياة الإنسان ، لأنَّه يتناسب مع روح الأديان تربيَة بطرد بها روح الأديان التي سيطرت على تاريخ البشرية الطويل .

إن فطرة الناس واحدة ومظاهرها متعددة ، فالنفس البشرية تتكتف حسب مُقتضيات التربية والعرف العام لتُرْضِي الكَمِينَ من الفرائز فيما . ولا سبيل لإنكار الفرائز الفطرية لمن يفكرون في تنظيم العالم . ونهج الأنبياء الذين وجَّهُوا الفرائز وجهة تُرضي المروءة والمصلحة العامة ، هو النهج المستقيم . فإذا نحن اليوم بَذَلَّ أن نعلن حقوق الإنسان ، أعلناً واجباته ، وألبسناها حُللاً من الحرجمة والتقديس ، فإننا قد نوفق إلى نظام صالح جديد . ولتكن القانون الأساسي لهذا النظام متضمناً واجبات الإنسان نحو أهل بيته وجيشه ووطنه وجنسه والخلوقات الأخرى . وقد يكون ذلك أبقى للعرف العام ، وأثبتَ على عمر الأيام .

عِللُ النَّظَامِ الْأَحَالِي

اجمع على فساد الرأسمالية الحالية — خطر رأسية الآلة — الآلات برؤس
كثيرة العناصر — مادة لا تستد لها من الروح — مشكلة المتعطل في الأمم
الرأسمالية — رجال السكبة الإنجيلية ينحولون إلى البصار — إلى التوازن
الإسلامي — الاستهمار الحديث — وسائل عالمية — شاهد منهم —
شاهد من العالم الجديد .

يقول (نبرو) : إن سبب فساد العالم يرجع في معظمها إلى فساد نظامه
الاقتصادي والسياسي الحالي ، وإنه لا سبيل إلى الإصلاح مادامت الرأسمالية
تسخر طبقة اطبقة ، والاستهمار يسرخ أمة لأمة .

وقد وافقه (ويلز) ، وأظن أن أكثر المفكرين اليوم على هذا الرأي .
فالرأسمالية رغم أنها كلية استعملت حتى ابتدأ ، لازالت تعيّن عن نظام يقوم
على الزربا ويهدى إلى الترف والإسراف .

وهي وإن كانت باستنادها إلى حقوق الملكية الفردية قديمة العهد ، فإنما
تنكى اليوم على ملكية الآلة للعمل .

وهي بالانقلاب الصناعي الكبير الذي نشأ عن استخدام البخار والكهرباء
حدثة بعيدة الفوارق في حياة الإنسان ونظام المجتمع . بل تقاد الرأسمالية
الحديثة تكون شيئاً آخر غير نظام الملكية القديمة في آثارها ومظاهرها ،
وإلى هذه الرأسمالية يتنسب الاشتراكية كـ "مساوي" النظام العالمي الحالي
ويعدون العطالة والبؤس والترف والإسراف من مظالمها .

لا شك أن ملكية الآلة ، وحسن استخدامها ، ودوام التحسين في
إنتاجها ، كل ذلك يعمل باستمرار للاستغناء عن عمل الصانع والزارع .
فبدل أن تكون وفرة الإنتاج ومهولته برؤس من برؤسات عصر البخار

اجمع على فساد
الرأسمالية الحالية

خطر رأسية
الآلة

والكمرباء ، وبدلَ أن يكون استخدام الآلة والقوة سبباً في همة الحياة والسمة
الآلات بركان
كثرة العذاب
فأوقات الفراغ ، انقلبُ الخير في ظلِّ النظام الاقتصادي الحديث إلى شر
مستطير ، وحرَمَ الكادحون من رأس مالهم وهو العمل والجزاء المناسب له ،
واختصَ «المولون» بجهد محدود وغُرات وفيَة ، فارتَقُوا فيه إلى مستوى
الأمراء في المهد الإقطاعي ، وسارتُ الكثرة تنظر إلى مباحث الحياة ولا تشترك
فيها ، بل فقدت طوائفُ المتعلمين والذين على حافة التمتع هناءَ العيش وهناءَ
الإعان ، في ضوضاءِ الآلة ، وكان الذين من قبلِ يُمْدُدُ المُغوزين بالسلوى
والعوض في الدار الأخرى ، أما الآن فقد ضعفت سيطرة الدين وذهب
مدهه من العزاء .

نعم كانت الأديان تخفف من آثار الملكية بدعوتها القوية إلى الزهد
مادية لا سند لها
واشتراك المهرومين في غُراتِ الكسب بقوَّة القانون ، كما فعلت الديانة الحمدية ،
من الروح
أو بتحرِّم ملكوت السماء على الأغنياء كما فعلت المسيحية .

وكأنَّا النظام الرأسمالي الحديث ، وقد سُلِّبَ السند المعنوي والروحي ،
مملكة التمتع
في الأم الرأسمالية
يتجه بعنف نحو الاتّرة والاستزادة من الترف والإسراف ، فيقذفُ بلا رحمة
في هاوية التمتع فريقاً ، ويُسخرُ فريقاً آخر . وليس أدلَّ على ما وصل إليه
الخطر من أن المتعلمين في بريطانيا قد تجاوزوا قبل الحرب عدَّة ملايين ،
وبريطانيا هذه هي سوق الأموال في العالم ومن أهم مراكزه الصناعية ، وتفرد
فوق ذلك بملكٍ لم يُؤتَهْ بلدٌ في العالم ، تجُّيَّبُ إليها الأموال من القارات الخمس
ومن الأبيض والأسود والأصفر .

بريطانيا المحسودة تنوء بعبءِ النظام الاقتصادي الرأسمالي ! وليس أدلَّ
 رجال الكتبة
الإنجليزية يتعلّمون
كذلك على تداعى هذا النظام من أن قادة الكنيسة الذين ظلّوا سند العناصر
للبار
الحافظة جيلاً بعد جيل أخذوا يتحولون من اليمين إلى اليسار يُتّقُونَ أن يغمرهم

سبيل الفتنة كا غمر رجال الكنيسة الروسية ، ففرعوا إلى التأويل أو رجعوا إلى المسيحية الأولى .

وآخر ما علمنا في هذا الشأن قرار مؤتمر ملفرن Melvern للكنيسة الإنجيلية ، وهى قرارات لو نشرت في أول هذا القرن لظن أنها مما أوحى به (كارل ماركس) أو بعض تلاميذه ... وكما أن هذا دليل على اتجاه الأفكار فإنه كذلك دليل على حصافة رجال الكنيسة في الغرب ، وإننا نرجو أن يتعظ العلماء وقادة الرأى في البلاد الإسلامية ؛ فإن شريعتهم هي الشريعة التي وُفت كل توفيق في تناولها هذه المشكلة المقدمة .

فلا بد للمسالمين الذين اندفعوا على غير هدى إلى تقليد الغرب من الرجوع إلى الإخاء والزكاة والتوازن بين الطبقات ؛ ذلك التوازن الذى أقامته شريعتهم على أساس أن البر حق معلوم في أموال الأغنياء ، وعلى ترجيح المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وعلى مسئولية الإمام وسلطنته الواسعة في النظر إلى حاجات المسلمين . وليس المقام مقام استرسال في نواحي الشكوى من النظام الحالى ، فالصيحة تتردد من أوائل هذا القرن في جوانب العالم كله ، والفن يأخذ بعضها برقب بعض ، فلا بد إذاً من نظام اقتصادى جديد ي محل محل النظام الحالى .

ولترجع النظر إلى المنصر الثانى لفساد المجتمع الحالى في رأى (نهرود) وهو الاستعمار ؛ وإذا كانت الرأسمالية قد عى ولها من الآفة بها سند ؛ فإن الاستعمار حديث ، والفطرة تأبه وتُبغضه ، وقد عملت كل الأمم في كل العصور للخلاص من سيطرة الأجنبى .

وإذا قلنا إن الاستعمار حادث فليس معنى ذلك أن الناس والملوك لم تقاتل على الأرض وملكيتها ، أو على الملك وسعنته ؛ فذلك قديم ، وإنما الجديد في

التوافق
الإسلامي

الاستعمار
المحدث

الأمر هو ذلك الطفيف العام باسم التمدن ، وقوامة الأمم الأوروبية على العناصر الملوثة كما يقولون.

سادت الأقوام الأوروبية الأصل الدنيا ، وأصبحت الكرة الأرضية كلها في متناول الاستعمار الحديث بتطور وسائل النقل والسرعة.

وكان فيما مضى زحف (تحوّس) من النيل للفرات غير مسبوق ، وسير الإسكندر من الفرات إلى السند أعمدة التاريخ . كانت شرور الفتح والنهب محدودة وطرايق الأترة والاستغلال أولية.

أما اليوم فويلات الاستعمار عالمية وآثاره تشمل الكرة الأرضية . وقد وبلغت عاليه أنصف كثير من الكتاب الغربيين أهل الشرق المغلوبين ، ورثوا حالمهم قبل الحرب الماضية ، ولعلهم اليوم يرثون لما أصاب الغازين أنفسهم ؛ فهم يستحقون كذلك الرثاء.

قال الكاتب الإنجليزي المشهور (سدني لو) سنة ١٩١٢ يصف الاستعمار : شاهد حق « ما أشبه غالب الدول الأوروبية في سلوكها هذا الذي ما برحت تسلكه منذ عدة سنوات إزاء الأمم الشرقية بعصابة من اللصوص يهبطون على الحال الآمنة فيشنخون فيها ، ثم ينقذون بالغثائم والأسلاب . وما بال هذه الدول الغربية يعملها لهذا مؤيدة للداعي الباطلة بأن القوى الشاركـ السلاح يحقق له الانقضاض على الضعف الأعنـل ، وآتـية بالبرهـان القاطـع على أن مكارـم الأخـلاق والأـداب الاجتماعية لا شأن لهاـ أـلـيـةـ حـيـالـ القـوـةـ المـسـلـحةـ ! فـيـ خـلـالـ عـشـرـينـ سنـةـ ثـارـتـ نـاثـرةـ الاستـعمـارـ فـيـ آـورـباـ ، وـهـبـتـ عـوـاصـفـ الـحـضـارـةـ الـمـاـدـيـةـ الـهـوـجـاءـ فـقـوـضـتـ الـأـدـابـ وـالـحـقـوقـ الدـوـلـيـةـ تـقـويـضاـ » .

ذلك مقاله (سدني لو) قبل الحرب العالمية الماضية ، وقد تواتت حالات الاستعمار على العالم الشرقي آخذـا بعضـها بـرقـابـ بعضـ .
لو أن « لو » كتب في الاستعمار بعد الحربين العالميتين لكان رثاؤه

المستعمرات الغربيّة أكثر من رئاشه المغلوبيّن الشرقيّين.

وقد دافع كذلك عن الشرقيّين بعد الحرب العالمية الأولى الكاتب الأمريكي شاهد من العالم الجديد (لوروب ستودارد) في كتاب «حاضر العالم الإسلامي»^(١) بهذه العبارة: «إن

مبادئ الحريّة التي سادت في الغرب ونُوادي بها غالباً القرن التاسع عشر قد هبّت عليها ريح هوجاء من المطامع السياسيّة والاقتصاديّة فزقتها شرّ ممزعّق، وبدأت صورها كلّ مُبَدَّد، إذ أخذ التراحم يشتّد والتنازع يُوغر قلوب الدول الغربيّة، حتى طفع الكثيل فاشتعلت الحرب السكّونية العظمى. واشتدّ نهم أوربا وجشعها للتّوسيع في الفتح والاستعمار ومناطق السيطرة وتّبّل الامتيازات واحتياز الأسواق الاقتصاديّة اشتداداً وحشياً غير مسبوق المثل». فلو أنّ (ستودارد) كتب بعد أن وقعت الحرب العالمية الثانية وشهد

ويلامها، أمّا كان يرى هو أيضاً لغالبيّن كارثيّ حال المغلوبيّن؟

إن السيطرة الاستعماريّة على العالم باسم الحضارة إنما تسمى لإشباع شهوات الرأسمالية الحديثة في الأسواق والمواد الخامّة. وقد وضع الرأسمالية والاستعمار متساندين أحسن هذا الاضطراب العالمي الذي قد يقفى على الحضارة كلها..

فلا بدّ إذاً من نظام اقتصادي وسياسي جديد.

وحين يقول (نهرو) ويوافقه (ويلز) إنّ النّظام القائم على الرأسمالية والاستعمار الذي يعيش في خلل سيطرة طبقة على طبقة، وأمة على أمة، ليس نظاماً صالحّاً للبقاء لا يجدان من العقلاء من يخالفهما، وإنما يأتي الخلاف حين يقترح العلاج.

(١) عربّه الأستاذ عجاج نوري من، وعلق عليه تعليقات مستفيضة الأمير شكب أرسلان.

مقدرات

البدء بتقرير قواعد بسيطة — يجب تطور الرأسمالية والاستعمار — عالم واحد لا تتجزأ السلم فيه — هيئة عليا عالمية لإدارة مشتركة — التدرج إلى حكومة عالمية — البدء في قلوب الطفولة — من التربية القومية إلى التربية العالمية — التدريب على الغضب للصاحة العالمية — فلتعمد النواة الصالحة في « هيئة الأمم المتحدة » .

ما تقدم يتضح أن رسم نظام كامل لحياة عالمية سعيدة ، أو وضع تفصيلات لنواحي هذا النظام ، ليس من شأنه أن يعين على قبوله أو كاليه ، فنحر لذلك أمنيل^{إلى البدء بتقرير أنس} وقواعد بسيطة يقوم بعضها على « الامتناع » ومعرفة الواجب وأدائه .

وقد وُضِع كذلك أن النظم المؤيدة للاستعمار والرأسمالية الجديدة قد تطورت من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين بكيفية أحدثت أثرا بالغا في تقسيم الناس إلى أم مسيطرة مستغلة ، وأم مغلوبة مسلوبة ، كما فرقت الجماعات في هذه الأمم الغالية والمغاربة إلى طوائف وطبقات حادة متعددة . وقد أدت هذه النظم دوزها في تجذب البشر ، ولا بد لها من التطور لمسيرة عهد السرعة والإنتاج الآلي .

فهذا التطور من شأنه أن يهدى السبيل لمهد جديد أساسه الإخاء العام ، وهدفه التعاون على الخير والبر .

وعالمنا الجديد ، وقد أصبح في حيز الإمكان العطوف حوله كلّه في يوم أو ليلة ، واتصلت أطرافه باللاسلك والراديو في لحظة ، عالم واحد لا تتجزأ السلم فيه ، ولا سبيل لسعادة قوم منه على بؤس الآخرين ، ولا بد له أن يتعنى

عالم واحد
لاتجزأ به

إلى قبول هيئة عليا لقيادة مشتركة كما قبلت الشعوب هيئات منها لقيادتها، فتولد عند ذلك الحكومة العالمية التي رى فوائدتها في نظام «الأمم المتحدة»، فتكون لها سلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية يقر الناس شرعيتها كما يقرنون شرعية حكوماتهم القومية، ويدينون لها بولاء مماثل لولائهم لدولهم.

هذه الهيئة العالمية التي تدرج إلى مقام الحكومة العالمية تقوم على أصول قليلة عامة تستضيء بها في رسم الخطط العامة لسياسة الدنيا . على أن تكون هذه القواعد العامة بسيطة ومحبولة بالفطرة من الناس على مختلف أجناسهم وألوانهم وعقائدهم .

فتلك تكون مبادئ المساواة والإخاء بعض قواعدها، فيكون ما ترسم للناس مقيدة بحقوق المساواة وحقوق الإخاء .

ومثلاً يكون فيها حق العيش وتأمين الحاجة حقاً طبيعياً يهدف إليه الجميع ، حق الأمن يسعى للمحافظة عليه الجميع ، فيكون إطعام الناس ، وتأمينهم من الخوف واجباً على كل الناس .

مثل هذه القواعد الفطرية ، إذا دُرِّبَ الناس على تقديسها تقديسهم لأديانهم وأوطانهم ، ولقِنُوها في طفولتهم وهم في أحضان أمهاتهم وحين تنشئهم في المدارس ، تنتهي حتى إلى إقامة صرح نظام عالمي عليها ، موظِّد القواعد ثابت الأركان .

وإذا اتفقت جميع الدول في (هيئة الأمم المتحدة) على برنامج للتعليم والتثقيف العام والدعوة ، وجدت كل دولة في بيت هذه الأفكار في نفوس الشعوب الخاضعة لسلطانها ، مكِّن ذلك (الأمم المتحدة) من التطور إلى الهيئة العالمية التي نرجو أن يدين لها الناس بولاء وطاعة .

إن أثر الدعوات الإنسانية وأثر التربية واضح في تاريخ البشر وضوحاً حاسماً ومؤثراً في حياتهم ، فالدعوات الدينية التي غالبت الدهر وعاشت القرون واستمرت تفعل فعلها في نفوس الناس وفي تكوين الهيئة الاجتماعية ، شاهد على قابلية البشر لقبول الدعوات الإنسانية السامية للتآخي والتعاون . وإن ما حرمته هذه الدعوات استقرت حرمتها في نفوس الناس ، فكبحت من جوحهم ومن شهواتهم ، وتحولت الدوافع والغرائز لتخذل مظاهرها أشكالاً وألواناً أخرى . فإذا دعونا إلى تحريم الحرب ونكثت هذه الدعوة من النفوس ، لاستحال تسيير الجيوش للقتال إلا بقدر ما يحدث من الشذوذ ضد إرادة المجتمع ، من تكوين عصابات من القتلة للسلب ، ويصبح الوجдан الإنساني أشد تفوراً في التوجه بالأذى والقتل إلى شخص مجهول له ، أكثر من شعور الفرد العادي حين يهم بجريمة القتل ضد أحد المارة .

وهكذا إذا عودنا الناس أن استغلال الآخرين لصالحهم ، واستخدام الجاه أو النفوذ أو الحيلة للفنعة الذاتية يعتبر عملاً من أعمال السرقة ، فإن الوجدان البشري ينتهي إلى اعتبار هذا الاستغلال بأ نوعه إجراماً ، كما ينتهي السارق الذي يستخدم قوته أو حيلته للسرقة مجرماً .

فعلى الدعوة والتربية العامة التي تجعل الناس ينظرون إلى هذه المبادئ البشرية نظرتهم إلى القواعد التي تعارفوا عليها بالنسبة لأنفسهم كأفراد في أسرة أو وطن ، يتوقف تهديد السبيل للنظام العالمي الجديد الذي لا بد منه لتطور الحضارة ، ولا جتناب الفناء الذي هيأت أسبابه سيطرة الإنسان المتزايدة على المادة ، وعلى جرى الأمور في سلم المجتمع العالمي .

ويجب أن يعلم الناس الغضب لأشياء عامة ، وفي المصلحة البشرية كما علّموا الغضب لأوطانهم وعقائدهم الدينية ، فتكون غيرهم واقع عليهم للعدوان

على حقوق الغير ، أو للتقصير في عمل الواجب نحو الناس كافة ، موجهة بالغيرة
كتوجهها في الماضي للدفاع عن حق الأسرة وشرفها .

وأخيراً إن وجود « هيئة الأمم المتحدة » في شكلها الحالي ، ورغم المؤشرات
التي رافقت ميلادها يفتح المجال لآمال كبيرة في الاتجاه الذي نشير إليه ؛
 فهي نواة صالحة إذا تمهدت بالاحترام والثقة فيها ، وأدركت الدول أنه
لا سبيل إلى التخلّي عنها ، بل اخْدَتها حكّمتها ومرجعها في كلّ زراعة ؛ حتى
يشعر الناس تدريجياً بضرورتها لسلامة عيشهما وأمنهم ، فيضطّوا عن طيب
خاطر في سبيل استمرارها وقدرتها ، كثيراً من حقوق السيادة التي أظهرت
الدول فيما مضى غيرة قوية على التمسك بها . بل قد يأتي اليوم الذي تضع فيه
الدولة من الدول سعادتها وسلطانها تحت تصرف هيئة الأمم المتحدة ، لضمان
أمنها أو يُشرّها ، أو للتغلب على معضلاتها الاقتصادية والاجتماعية .

فعلينا في سبيل هذه الغاية النبيلة أن نصبر ونصابر ونصم .
ولتحذر يا سُؤْلُ وتعلّق بأهداب السعي المتواصل لتشكيل « الأمم المتحدة »
من سد هذا الفراغ في حياة العالم الجديد .

فلنتمهد النساء
الصالحة في هيئة
الأمم المتحدة

٦

فِي اِنْتِشَارِ الدُّعَوَةِ

انتشار الدعوة في الثنيين

شهرة باطلة — خلط بين انتشار الدعوة وامتداد الدولة — فتح مكة بجيش المتضيدين الطرودين — الدعوة السرية والظاهرة — الدفاع عن النفس مشروع — الموقف في الحدبية يشهد — تاريخ الدعوة هو تاريخ الصبر والمقاومة — الموقف في خارج الجزيرة — رواية الكولونيل (فردريليك ييك) — فتنة واعتداء — مع الروم في شرق الأردن (ءونه) — دليل فذ من أدلة التسامح الإسلامي — فتح مكة — لم يكن مفر من تحكم السيف في قلتها — الفرض من فتحها — صورة من التسامح الهمدي — دليل على انهيار النظام الجاهلي — الفتح السريع قبل الفتح العربي — دليل من إسلام أبي سفيان زعيم الشركيين — الوقوف توالى من الجزيرة على الرسول باختيارها — الخدمة الوحيدة التي أداها السيف للإسلام — أسباب الدين بدرام معدودات — ما بعث الله محمدًا جايًا — قصة تكشف عن روح عصرها .

استقرَّ في أذهانِ كثييرٍ من الناس ، المسلمين وغيرهم ، أنَّ الدعوة الحمدية
ظهرت وانتشرت تحت غلالِ السيف ، وأنَّ القبائلَ التي حلتْ كتابَ الله
في رقابِها حلتْ سيفَ الحقِّ في أيديها ، وانطلقتُ المغرب والمشرق ، فحكمَتْ
السيفَ حتى دانَ النَّاسُ للكتابِ المعلقِ في الرُّقابِ . وليسَ أبعدَ من الصوابِ
وَلَا أدلَّ على البحثِ السطحيِّ المعتلِّ من هذا الظنِّ ! لهذا يحسمُنَّ أنَّ تناولَ هذا
الأمر بشيءٍ من الإفاضة وتنبيئِ انتشارِ الدعوة في المصورِ المختلفة ، ليسَ تقدِّرُ
الحقَّ في نصاًبه ، وتبينُ الرُّشدَ من الغَيِّ . ولعلَّ ذيوعَ هذه الفكرةِ الخطأةِ
عن انتشارِ الدعوة الحمدية بالسيف جاءَ من اقترانِ ظهورِها خارجَ الجزيرةِ
العربيَّةِ بظهورِ الدولةِ الإسلاميَّةِ ، وامتزاجِ تاريخِ الفتوحاتِ السياسيَّةِ والدُّولَيَّةِ
بتاريخِ الفتحِ الدينيِّ ، مما جعلَ النَّاسَ يخلطُونَ بينَ دخولِ الأقوامِ في الإيَّانِ
وقبوليَّهم لرسالةِ التَّوحيدِ وبينَ خضوعِهم لسلطانِ الأمةِ الجديدةِ التي كانتْ
السابقةَ إلى قبولِ الرسالةِ الحمديةِ .

وقد نسيَّ الناسُ أنَّ الفتحَ الحمدِيَّ لِمَكَّةَ وغَيْرِهَا ، إنما كانَ بجيشٍ قوامِهُ

شهرة باطلة

خلط بين انتشار
الدعوة وامتداد
الدولة

فتح مكة بجيش
الطرودين

آلاف المستضعفين المهتدين قبل هذا الفتح ، من أسلمو سراً واضطهدوا
جهراً ، وهاجروا من أوطنهم قهراً ، وعبروا البحر مرتين لاجئين إلى الحبشة ،
وهرروا إلى المدينة ، واحتسموا في جوار كل ذي حول أو طول .

الدعوة السرية والمهربة
دعا محمد صلى الله عليه وسلم ، أول مادعا إلى الإسلام ، آلة بيته ، فنهم
من آمن ، ومنهم من عصى . دعا سراً فدخل في دعوته من أشراف القوم
وصناديid الجاهلية ، كما دخل جماعة من المستضعفين والعبيد ، ولم يستطع
هؤلاء وهو لا يأبه أن يحموا رسولهم ، وأجلاته قريش إلى قبول التقى الاختياري
مع آله في الشعب حيث بقوا حقبة من الزمن مقاطعين منبودين من أهل مكة
وأحابيشها وأشياعها من ثقيف وغيرها ، ثم خرج من هذا الحصار ، وقد فقد
زوجه وعمه ، وأخذ يعرض نفسه على القبائل ، ورجع مهيباً الجناح من
(الطاائف) ولم يستطع دخول بلده إلا في حياة المطعم بن عدي من كفار
قريش ، وقد أجراه نجوة ومروءة .

مشروعية الدفاع من النفس
ومازال يدعو سراً وجهراً ، وينال أصناف الأذى في نفسه وأتباعه ، حتى
لقي أهل البيعة الأولى من شبان المدينة في موسم الحج ، فثبتو إيه الهجرة
إلى وطنهم ، ففر من الموت إلى أحضان (يترب) الموالية ، ولم يتركه خصومه
في ملجئه . فلما بسطوا أيدي الشر إلى أطراف الواحة التي تزل بها ، خرج
اليهم والتقي بهم في (بدر) وقد أذن لهم بالقتال بهذه الآية الجليلة «أذن للذين
يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوه من ديارهم
بغير حق لأن يقولوا ربنا الله ، ولو لا دفع الله الناس بعضهم بعضاهدمت
صومع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن
الله من ينصره إن الله لقوى عن يز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »
والآية في صراحتها وبساطتها وتلليلها للإذن بالقتال ، وتحديدها الفرض

منه، وفي سياقها كله، واضحة في تصوير الحالة تصویراً ينافي تماماً ما علّق في
أذهان كثيرة من صورة الكتاب والسيف متلازمين.

استمر الرسول قبل واقعة بدر خمس عشرة سنة يدعو بالحكمة والوعظة
الحسنة، ويصبر على الظلم؛ فلما لم يبق إلا الدفاع عن النفس بالقوة، جاء إذن
الله، ووقعت الواقعة في بدر، وأذل المستضعفون الجباره، وضم جوف
القليل^(١) من خول قريش من كانوا على مر السنين ينوّعون وسائل التعذيب
للذين يدخلون في دين الله إيماناً واحتساباً.

ومع ذلك فقد رجع الرسول إلى المدينة صابراً داعياً، فلم تصر قريش
ومن معها، وعادوا لمحااجته في نفس المدينة. ولما كانت (الحدّيّة) اغتنم
الرسول الفرصة للمهدنة، ورافق بشروط لم يكن ليرضها لو كان عماد دعوته
السيف، فإن تلك الشروط لم ترض حملة السيف من أنصاره، واعتبروها
هواناً ولئلا يقاتلو ولما يغلبوا. ولكنّه صلى الله عليه وسلم كان يعلم أن دعوه
إذا يعنّها من الانتشار السيف، ولا يسطّحها في الناس سيف، فإذا هو هادنَ
وسلمَ غالبَ، وذلك ما كان؛ فقد كانت هدنة (الحدّيّة) فتحاً، وكان هذا
المقدّم الظاهر^(٢) الغائب الذي عُقد للاحصوّل على السلم بشرطٍ تبدو مذلة، سبياً
لانتشار الدعوة، وقد تزّلت سورة الفتح بعد الحديّة، وتحققت الآية، ودخل
الناس في أيام المهدنة أقواً جاً في دين الله الذي قام بالدعوة، والذي أحل في القتال
حرية هذه الدعوة ولا شيء غيرها.

فتاريخ الدعوة في الجزيرة العربية هو تاريخ المسلمين الصابرين. وكل
تقبّل لتفاصيل التاريخ الإسلامي يكشف لنا عن هذه الحقيقة، ويفيد عمل
النبي. وتحقق قوله تعالى «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ النَّقْرِ»^(٣) وقوله
تعالى . «أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ!» وقوله «مَنْ يَهْدِ إِلَهُهُ

الوقف في
المهدنة يشهد

تاريخ الدعوة هو
تاريخ الصبر
والمقاومة

(١) البئر التي دفنت فيها جثث قتلى بدر من المفرّكين.

فَهُوَ الْمَهْتَدِ ، وَمَن يَضْلُلُ فَلَنْ يَجِدْ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا» .

قد يقول بعض الناس : إذا كان هذا شأنَ الرسول في مكة والمدينة ، الموقف خارج الجزيرة يصبرُ على الأذى ويرجح السلم حتى بشرط لم تُرضِ أنصارَه ، فما الذي دعاه للخروج من قلب الجزيرة العربية ، وسوق الجيوش لقتال الرومان في سوريا ؟ أليس الرغبة في تحكيم السيف ؟

ذلك ما قد يظنه بعض من لا يعرفون كيف ابتدأ الحرب بين النبي والروم وأنصارِهم من العرب . وإليكم رواية الكولونيل (فردريل ييك) في مؤلفه الحديث «تاريخ شرق الأردن وقبائلها» ، وقد اعتمد الكولونيل ييك على مراجع محترمة من كتب المسلمين وغيرهم ، وأشار إليها في كتابه . قال في صحيفة ٨٥ «في عام ٦٢٧ - ٦٢٨ م (٥٦) استشهد أول مسلم في شرق الأردن بسبب إسلامه : ذلك أن فروة بن عمر الجذامي عاملَ الروم على (عمان) - وفي رواية ابن هشام على معان - كان قد اعتنق الدين الإسلامي ، وأرسل مع مسعود بن سعدِ الجذامي بخلافاً أشهبَ وفرساً ومحاراً وأقصهَ كثانيةً وعبادة حريرية هدية للنبي . ولما بلغ الرومان ذلك حاولوا اعتناع فروة ليترد عن إسلامه فأبى . فما كان منهم إلا أن سجنوه ، ثم صلبوه على ماء يقال له (عفري) بفلسطين .

وفي نموذج (يوليه) عام ٦٢٩ م (٥٨) أوفد النبي كتبة من خمسة عشر رجلاً إلى حدود شرق الأردن ، ليدعوا الناس إلى الدين الحنيف ، ولم يستطعوا أخبارَ الروم وحوادثِهم ، فخرج عليهم جمْعٌ غفيرٌ في مكان يقال له (حلة) بين السكرك والطفيلة ، وقتلتهم كلهم إلا واحداً لاذ بالفرار .

وبنفس الوقت أرسل النبي رسوله الحارث بن همیر إلى أمير غسان في سوريا يدعوه إلى الإسلام ، فقبض عليه شرحبيل بن عمر وسید (مؤمنة) ، وهي قرية بجوار السكرك وقتلها .

نجم ونهيد
وحوالي هذا الزمن أيضاً وصلت رسول النبي من الشمال تحمل أخبار
الاستعدادات الحربية على تخوم الولايات الرومانية، ووجود (هرقل) وجيشه
في الكرك مع حلفائه من بهاء وجذام وبلي والبلقاوية.

كل هذه الأسباب جعلت النبي يعتقد النية على بعث تحملة إلى جنوب
شرق الأردن ليقتضي من قتلة الحارث، وليختبر قوة أعدائه واستعدادهم،
وليعرف أسباب تجتمعهم على الحدود الجنوية.

مع الروم في
شرق الأردن
(مؤته)
وفي أيلول (سبتمبر) عام ٦٢٩ م (٥٨) جمع النبي ثلاثة آلاف مقاتل
في (الجلوف) قرب المدينة ليسيرهم نحو سوريا وأمر عليهم زيد بن حارثة
«فإن أصابه قدر فالامير جعفر بن أبي طالب، فإن أصابه قدر فالامير
عبد الله بن رواحة على الناس، فإن أصيب فليرتضى المسلمون برجل من بينهم
يجعلونه أميراً عليهم».

فضي الجيش حتى إذا كان بتخوم البلقاء لقيتهم جوع هرقل من روم
وعرب، وقتل الفريقان في قرية (مؤته) بجوار الكرك.

استبس المسلمون في هذه المعركة، بالرغم من قلة عددهم بالنسبة لعدوهم،
فاما استشهد أميرهم زيد بن حارثة تولى جعفر (كان صاحب النبي) فقطعت عناء،
وكان بها اللواء، فأخذته بشماله، فقطعت، فاحتضنه بمضديه حتى قُتل، وكان
فيه نحو خمسين جرحاً. فلما نُيَّ ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنا به الله
بحناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء» فأصبح يُعرف فيما بعد بـ «جعفر الطيار».
وبعد جعفر أخذ الراية عبد الله بن رواحة، فقاتل حتى قُتل، وتولى خالد
بن الوليد وانسحب الجيش إلى المدينة.

تلك رواية الكولنيل (ييك) عن كيفية وقوع الحرب بين النبي والروم.
وهي واضحة في أن الروم صلبوا (فروة) لما أبى أن يرتدى، وهي واضحة كذلك في
بيان الاضطهاد والتغيرة التي استولت على أفكارهم وأعمالهم. ولا مجال للشك في

أن الروم وأنصارهم من العرب لما أخذتهم العزة والخوف من الدعوة السالمية ،
لأدوا إلى العنف ، بل إلى القسوة والقدر ، ولم يكن بُدّ لصاحب الدعوة من
أن يدفع الشرّ عنها ، ويقاتل في سبيل حريتها .

وَمَا يَرْوِيهِ الْمُؤْرِخُ الْمَذْكُورُ أَيْضًا أَنَّ أَسْرَةً مُسِيْحِيَّةً تَدْعُى (الْعَزِيزَاتِ) دليل ذلك من أدلة التسامح الإسلامي كانت تعيشُ فِي مُؤْتَهُ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْجَيْشُ الْإِسْلَامِيُّ خَرَجَ أَخْوَانٌ مِّنْ هَذِهِ الأَسْرَةِ لِلقاءِ ، وَقَطَّعُوا بَابَ الْقَرْيَةِ ، وَقَدَّمُوا لَهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ ، ثُمَّ اعْتَقَ أَحَدُهُمُ الْإِسْلَامَ وَبِقِيَّ الْآخَرُ عَلَى نَصْرَانِيَّتِهِ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ أَلَا يُسْتَوْقَ مِنْهُمَا وَلَا مِنْ أَعْقَابِهِمَا جَزِيَّةً وَلَا خَرَاجًَ ، وَظَلَّ أَمْرُ النَّبِيِّ نَافِذًا مَدَّةَ أَلْفِ وَثَلَاثَةِ سَنَةٍ . وَقَدْ أَخْذَتِ الْحَكُومَةُ الْتُرْكِيَّةُ تَحْصِيلًا مِنْهُمْ الْأَمْوَالَ الْأَمْيَرِيَّةَ بِمَدْ سَنَةِ ١٩١١ فَقَطَّ ، لِمَا ثَارَ أَهْلُ الْكَرْكُوكِ . وَالْعَزِيزَاتِ يَقْطَنُونَ الْيَوْمَ (مَادِيَا) وَهُنَّ مِنْ أَقْوَى الْمُشَائِرِ .

وَمَغْزِيُّ هَذِهِ الْحَادِثَةِ وَاضْعُفُ : فَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ أَلَا تُؤْخَذْ جَزِيَّةً وَلَا خَرَاجًَ مِنْ بَعْضِ الْمُسِيْحِيِّينَ وَأَعْقَابِهِمْ ، لَأَنَّهُمْ أَحْسَنُوا الْقَاءَ جَنُودَهُ ، وَاحْتَرَمُوا الْمُسْلِمُونَ هَذِهِ الرَّغْبَةَ مِثَاثِ السَّنَنِ ، وَهِيَ فِي ذَاتِهَا دَلِيلٌ تَسَامِحٌ فَذِي يَسْتَحِيلُ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ السِّيفُ وَسِيَّلَةُ الدُّعَوَةِ وَهَادِيُّ الْإِعْانِ .

أَمَا كَاتَ مِنْ فَتْحِ مَكَةَ بِالْقُوَّةِ فَنَظَرَةُ عَاجِلَةٍ فِي تَطْوِيرِ الزَّاعِ بَيْنَ مُحَمَّدٍ فِي فَتحِ مَكَةَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَشِيرَتِهِ قَرِيشٍ ، كَافِيَّةٌ لِإِفْرَارِ الْحَقِّ فِي نَصَابِهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُفْرِّجٌ مِنْ تَحْكِيمِ السِّيفِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، حَتَّى لَوْمَ يَكُنْ مُحَمَّدُ رَسُولًا وَكَانَ رَجُلًا كَرِبًا عَنِّيْزًا أَخْرَجَ مِنْ وَطْنِهِ ، وَأَخْرَجَ مَعَهُ كُلَّهُ مِنْ قَالَ بِرَأِيهِ .

يَقُولُ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِ قَرِيشٍ « وَقَالُوا إِنَّنَا نَتَّبِعُ الْهُدَى مَعَكُمْ تُخَاطَفُنَّ » لَمْ يَكُنْ مُفْرِّجٌ مِنْ تَحْكِيمِ السِّيفِ فِي أَرْضِنَا » فَقَرِيشٌ الَّتِي أَقَامَتْ لِنَفْسِهَا سِيَادَةَ دِينِهَا عَلَى الْعَرَبِ بِسَدَانَةِ الْكَعْبَةِ فِيهَا

ورعاية الحجّ ، وحراسة أوتاد العرب وأهليتها ، والتي اتخذت هذا المقام وسيلة لنفوذ سياسيٍ واقتصاديٍ في كلِّ الجزيرة العربية ، والتي كانت تدركُ ضعفها ، وأنَّ هذه السيطرة التي لا تناسبُ مع عددها ومقرّها إنما ترتكزُ على النظام الجاهليِّ الذي يدعو محمد لتفويضه ، والذي عبرت هذه الآية أصدقَ تعبير عن إخلاص قريش له : فلو أنها تبعت هدى محمد لهانت وذلت كائنةً ، فريشُ هذه أني لها أنت تصرَّ على هذا الداء ودعوه ! لذلك حكمت من أول الأمر القوة .

ولما اقتلت خزاعةٌ وبكرٌ بعد صلح الحديبية لم تصرِّ قريش عن نصرة بكر ، ولم ترْعَ هذنه ولا احترمت ميشاقاً ، بل عادت إلى تحكيم السيف فقبلَ الرسولُ هذا التحدى ، وتركَ للسيف أنْ يحكمَ في زراع دام عشرين سنةً ، وقد حكمَ للمسلمين يوم الفتح . على أنَّ الرواية التاريخية تذكر أنَّ النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمرَ قواد جيشه بعدم القتال إلا أنْ يُقاتلوا . ومعاملته لقريش يوم الفتح دليل قاطع على أنَّ السيف لم يكن وسيلةً للدعوة .

فلم يكن الإكراه في الدين ، ولا قهرُ الناس على الإسلام هو سبب القتال في مكة التي حرمَ اللهُ القتال فيها ، والتي يقولُ الرسول إنما أیحت له ساعةً من نهارٍ هي بعدها حرامٌ ، وإنما كان الفرض أنْ يوضع حدًّا للاحتطاف والدين وأنْ يباح للناس حقُّ اختيار العقيدة من غير إكراه ولا قهر .

ولذلك لما سأله صفوانُ بن أمية الرسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يكون له الخيارُ في مغادرة مكة أو الإسلام لمدة شهرين بعد الفتح قال : « بل أنت فيه بال الخيار أربعة » ، وكان صفوانُ وأبوه أمية بن خلفٍ من أسماء المسلمين أشدُ إساءةً ، يعبدون ضعفاءهم ، ويستهزئون بنبيِّهم ، فكان أمية يسخر ويفتُّ العظام البالية في يده ويقول « يزعمُ محمد أنَّ هذه تحيا مرة أخرى ! » فنزلت الآية « وضرَّب لنا مثلاً ونَسِيَ خلقه . قالَ مَنْ يُخْنِيَ الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ! قَلْ يُحِبِّيهَا »

صورة من
السامِع الْهَمْدِي

الفرض من فحصها

الذى أنشأها أول مرّة ، وهو بكل خلق عالم » فع ذلك التاريخ السى الطويل
يطلب منه صفوان أن يترك له الخيار فى الدين فيسمع له بعد الفتح والغلبة
التامة ! فهل هذا شأن من يقيم دينه بالسيف ؟ كلا .

دليل على انتصار
النظام الجاهلي
لم يُقتل في موقعة مكة إلا بضعة عشر شخصاً، مع عظيم الجيوش المقاتلة ،
فقد كان جيش الإسلام وحده مقدراً بعشرة آلاف ، مما يدل على أن النظام
الجاهلي قد انهار أمام الدعوة الحمدية قبل يوم الفتح ، وأن عصابة قريش لم
 تستطع أن تستنهض للقتال جهورة الناس بعد أن نفذت العقبة الحمدية إلى
 صدورهم . وإلا كيف تستطيع تفسير استسلام مكة بهذه السهولة ولما تعلّم !؟
كتاب العنكبوت
رسالة العنكبوت
وآخر وقائهما ذلك النصر في (أحد) بعد (بدر) ، وكيف تفسر دخول الناس
في دين الله أزواجاً بين يوم وليلة ، وهم الذين كانوا يقولون « إن تتبع المهدى
معك تُخطَّفَ من أرضنا » ؟

الفتح السلى قبل
الفتح العربي
لا شك أن أيام المهدنة بعد الحديبية لم تُقضِ علينا ، وأن الدعوة وجدت
في ظلال السلم سبيلاً للنفوس التي تهياً لقبول الحق ، وأن زعماء قريش قد
أحسوا الأرض قد زُلزلت تحت أقدامهم ، وأن العامة مالت للحنينية السمحنة ،
وإلا ما الذي جعل أبي سفيان يُسلِّم ليلة الفتح ، ويتوسل بالعباس إلى ابن أخيه ،
لو كانت مكة لا تزال تؤمن بالنظام الجاهلي ؟ أليس أبو سفيان هو الذي حمل
دليل من إسلام
أبي سفيان زعيم
الشركين
راية الحرب جيلاً في وجه هذه الدعوة ؟ ثم أليست هوازن وتفيف حلفاؤه
لا يزالون في منتهيهم ، حتى لقد كادوا بعد الفتح يوم (حنين) أن يفعلوا بجيش
الإسلام الأفاعيل ويقتلوا الرسول ؟ فما بال أبي سفيان وغيره من الزعماء
لا ينحازون بأتباعهم إلى حلفائهم ويدعونا للقتال ، والعرب بطبيعتهم صلاب
الغود مزبور العداوة يُدعونها جيلاً بعد جيل ؟ السبب واضح : هو أن مكة
قد أسلمت وانقادت للدعوة قبل أن يدخل أرضها جيش خصومها من أهل
(يثرب) ومن حولها من الأعراب .

حتى فتح مكة الذي يظنه بعض الناس حادثا عسكرياً ترتب عليه إسلامها
قهرًا، لم يكن إلا وسيلة لكتف الأيدي الباطشة عن أهلها ليُعلنوا إيمانهم
ويدخلوا في الدعوة التي مالوا إليها سرًا أتواها أتواها.

ثم بعد فتح مكة نجح الوفود من أطراف هذه الأرض الواسعة المترامية
تتوالى على المدينة، من اليمن ونجران وكيندا والبحرين وشمال الجزيرة ومن
نجدي وتهامة، ومن كل ناحية، وتدخل فيها إيماناً واحتساباً.

فإذا كان قدر السيف ليُرد الناس عن دينهم، وبينه وبينهم مسيرة
الشهور، وهم في متنه بعدهم وعدتهم؟ إن الخدمة الوحيدة التي أداها السيف
لإسلام هو أنه منع الرسول في المدينة من أن يقع فريسة لخصومه من
العرب والميؤود والروم، فكان له بذلك من نشر دعوته وإصالها إلى
المقول والقلوب.

وإدراك الرسول قوة الدعوة في ظلال السلم، هو الذي دعاه كما قلنا
لامضاء صلح الحديبية، والسلمون بعد الرسول إنما أطاعوا الله ورسوله حيث
جعلوا للناس الخيار بين الإسلام والجزية، إذا لم يحكموا السيف في رقاب
السلمين ولم يحوّلوا بين الناس و اختيار المقيدة التي يلقون الله عليها.
ولو كان السيف وسيلة الدعوة ما كان للناس خيار، وما اشتري أى إنسان
في البلاد المفتوحة دينه بدينار أو بنصف دينار. والدين الذي لا يساوى عند
صاحب ديناراً فالإسلام أولى بصاحب منه.

كان الناس في البلاد المفتوحة يعصمون أنفسهم وأموالهم ودينيهم من قهر
السيف بجزية هي (ضريرية شخصية) يدفعها القادرون منهم لولاة المسلمين،
فيكفلون لهم مقابلها جميع حرياتهم المدنية والدينية.

فهل تتصورون أن قوماً يبكون دينهم وعُرْفَهم ووطنيتهم بنصف دينار

الوفود تتوالى من
المذيرة
باختيارها على
الرسول

الخدمة الوحيدة
التي أداها السيف
لإسلام

أبيات الدين بدرام
مددودات ١٩

يُدْفَعُهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ عَلَى النِّسَاءِ وَلَا عَلَى الْأَطْفَالِ وَلَا الْمُجَزَّةِ وَلَا الْهَبَانِ
وَلَا الْقَسْوَسِ؟ لَا شَكَ أَنَّ الَّذِينَ جَازُوا إِلَى الإِسْلَامِ بَعْدَ الْحِيَارِ يَدْنِهِ وَيَبْيَنُ
الْجَزِيرَةَ، وَجَدُوهُ أَحَبَّ إِلَى أَنْفُسِهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ.

بَلْ مِنْ الْفَرِيبِ أَنَّ الدِّينَارَ الَّذِي كَانَ يَعِصِّمُ كُلَّ عَزِيزٍ لِدِي الْأُمَّ
الْمُفْتُوحةِ مِنْ سِيفِ الإِسْلَامِ، وَالَّذِي كَانَ أَزَهَدَ شَيْءاً عِنْدَهَا، كَانَ أَعَزَّ عَلَى
بَعْضِ وَلَاهِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ إِسْلَامِ هَذِهِ الْأَقْوَامِ، فَكَانُوا يَكْرَهُونَ دُخُولَ النَّاسِ
فِي دِينِهِمْ وَتَقْصُّ جَزِيرَهُمْ! كَتَبَ وَالِي مَصْرَ إِلَى ذَلِكَ الْخَلِيفَةِ الْمُاهَدِّدِ
عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَخْبِرُهُ أَنَّ الْمُصْرِيِّينَ مُقْبِلُونَ عَلَى الإِسْلَامِ، وَأَنَّ إِمْرَادَاتِ
الْجَزِيرَةِ تَنَاقَصْتُ بِسَبِيلِ ذَلِكَ، وَيَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَأْذِنَ لَهُ فِي الْإِسْتِرَارِ عَلَى طَلْبِ
الْجَزِيرَةِ مِنْهُمْ . . .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْخَلِيفَةُ تَلْكَ الْمُبَارَةَ الْمَأْتُورَةَ «قَبْحُ اللَّهِ رَأَيْكَ! مَا بَعَثْتَ اللَّهَ
مُحَمَّداً جَائِيَا، وَلَكَنْهُ بَعَثَهُ هَادِيَا!»

تَلْكَ الْحَادِيَةُ تَقْرَبُ لَنَا تَصُورَ الْحَالَةِ الْذَّهَنِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ اظْهَوَ الدُّعُوَةَ
الْمُحْمَدِيَّةَ، فَلَا بَدَأَنَ قَدْرَ التَّسَامُحِ الْدِينِيِّ كَانَ عَلَى أَعْظَمِ جَانِبِهِ، وَأَنَّ حَرَبَةَ
الْعِقِيدَةِ كَانَتْ فِي أُوجِهِهَا، وَإِلَّا فَكَيْفَ تَسْتَطِعُ أَنْ تَتَصَوَّرَ وَالِيَا يَكْتُبُ
خَلِيفَةَ الْمُسْلِمِينَ هَذَا الْكِتَابَ إِذَا كَانَ فِي الْمُجِيْطِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ أَيُّ أُثْرٍ
لِلتَّعَصُّبِ أَوِ الرَّغْبَةِ فِي قَهْرِ النَّاسِ عَلَى الدُّخُولِ فِي الإِسْلَامِ؟ إِنَّ تَنَاؤلَ الْمَوْضُوعِ
بِهَذِهِ الصُّورَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَالِيَّ، الَّذِي يُحِسِّنُ طَبِيعَةَ الْبَيْتَةِ، كَانَ يَكْتُبُ
فِي شَيْءٍ لَا يَظْنَهُ عَيْنًا وَلَا يَرَاهُ مُشْكِرًا، وَإِلَّا كَانَ هَذَا الْوَالِيُّ عُرْضَةً لِفَتْكِ
الْجَاهِيرِ، بَلْ وَاتِّقَامُ الْخَلِيفَةِ إِرْضَاءً لِهَذِهِ الْجَاهِيرِ .

لَمْ يَعَاقِبْ الْخَلِيفَةَ وَالِيَّ بَعْزَلَهُ، بَلْ كُلَّ مَا كَانَ، أَنْ قَبَحَ رَأْيَهُ، وَهُوَ الَّذِي
يَخْوَلُ مِنَ النَّاسِ مِنَ الإِسْلَامِ احْتِفَالًا بِدِينَارِ الْجَزِيرَةِ . . . فَهَلْ تَتَصَوَّرُونَ أَنَّ
وَلَاهَ لَهُمْ هَذِهِ الْمُقْلِيَّةَ، وَأَنَّ خَلِيفَةً لَهُ هَذَا التَّسَامُحُ مَعَ مَا اشْتَهِرَ بِهِ بَيْنَ خَلْفَاهِ

عصر كامل من التقوى ، وأن أمة فاتحة مسيطرة تُخْيِر الناسَ بين البقاء على
أديانهم ونظامهم مقابل جزءٍ هي أقلُّ الفرائض بالنسبة لمصر كعصرنا
هذا أو المساواة بالفاتحين ، يختصرُ دعاتها وولاتها أنْ يتخذوا السيف
وسيلةً للإعانَة^{١٩}

كلا ، لم يكن السيف وسيلةً للدعوة الحميدة ، وإنما كان حاميها من
القهر والاضطهاد ، وكان شعارها «من يهدِ اللهُ فهو المهتدِ ومن يُضلِلْ فلن
يَمْهُدَ له ولِيَأْمُرْ شِدَّاً» .

انتشار الدّعوة في الأعمم المسجية

ما ذا بين الموجة العربية وموحات الهون والقندال والثار؟ — موجة تحمل رسالة المهدى والعدالة — موجة فذة في التاريخ — في ساحة المسجية — شهادة البرتوماس أرنولد — انتشار المسجية في ظلال الإسلام — تحاكَّ المسيحيين إلى عدالة المسلمين — فرض موضوع — الوزراء والولاء المسيحيون يشاربون مع إخوانهم المسلمين — بطولة مربى صرافي في واقعة البويب — لم يكن الهدف من أسباب دخول المسيحيين في الإسلام — وفانع انتطهاد هو الاستثناء الذي يثبت القاعدة — السياسة والجسد الاجتماعي لا الدين — برهان قاطع على ناصح المسلمين — بلاد الإسلام هي منطقة القاء، الودي الدائم يبيه، وبين المسجية — التصب الدين بضاعة فريدة.

يظنُ بعض من لا يعلم ، أنه لما جمع محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شتاتَ العرب ، وقهَرَ الوثنية في وسطِ الجزيرة العربية ، طفتَ بعده جماعات الرعاةِ من قُسَّاةِ البدو ، على الشمال والشَّرق للنهب والسلب والقضاء على حضارة الرومِ والفرسِ ، وعلى معتقدات هاتين الدولتين وقواها التي كانت تصنُّونُ المدينةَ القدِيمَةَ ضدَّ طغيانِ الجميعِ من الشمال والشَّرق والجنوب ، وأنَّ ظهورَ العربِ كظهورِ الهُونِ والقندالِ من الأقوامِ التي تدفقتَ من المشرقِ يسوقُها الجوعُ ، ويُغريها الطمعُ ، ويقويها الفخرُ بنسِها ، أو كغيرِهِم من موجاتِ المغولِ والترمِ التأخرينِ ، وسائلُهم العنفُ ، وغاياتُهم ما في أيدي الناسِ . ومثلُ هذا الظنُ بالعربِ الحاملينِ دعوةَ الإسلامِ بعيدٌ كلَّه عن الحقِ وعن ثابتِ التاريخِ . فعمَّ أنْ حملَه الدّعوةُ كانوا منْ غلبتَ عليهم البداوةُ ، ومعَ أنَّ أعرابَ الجزيرةِ كانوا منْ أرحبِ الأقوامِ في النهبِ وسفكِ الدماءِ ، إلا أنَّ الرسالةَ التي حلوا بها والشريعةَ التي دانوا بها كانت أمنلاً لنفسِهم مما تعودُوه منْ الطمعِ والفاخرِ ؛ لذلك اختلفَ آثارُهم عن آثارِ أشباهِهم منَ الأقوامِ التي استمرَّ هاديهَا في فتوحاتها النهبِ والفاخرِ .

فقد أقام العرب دولة امتدت من فرنسا إلى الهند والصين ، وعرّبوا الأقوام وأذْجَوْهَا فيهم ، وهدُونَهَا بهديهم ، فكان وفاؤهم للهُدِّي واحترامهم للشرع وتحقيقهم معنى العدل مضرِّبَ أمثال الأم ، وموضعَ عجب المؤرخين والمحققين . لذلك لم يُكُرِّه هؤلاء البدو أحداً على تغيير دينه ، ولم يعاملوا الناس فُرادي وجاءاتٍ إلا بقاونِ تواضعوا عليه مستمدًا من نصوص الشرعية التي حلوا رسالتها ، أو من روحها . وقد لقَنُوا ذلك من دخل في دينهم من الأقوام المتبدلة كالأنراك والبربر ، فصار هؤلاء كذلك مثلاً للخضوع للشرع وللوفاء بالمهود والتسامح ، بما لقَنُوا من الأدب الحمدى ، صادقين في احترام أوصى دينهم متسامحين مع أهل الأديان الأخرى . بل يمكن القول بحق : إنه فيما نعلم من تاريخ الأقوام والدعوات ، لا توجد دعوةٌ تحيط بها العدالة وسعةً الصدر والمفوِّض التسامحُ في عنفوانها وضيقها كالدعوة الحمدية ، سواءً أكان العرب أم التركُّم الحاملين إياها .

لقد غلت النفوس الجائحة ، وهذبت الأم القاسية ، وبقيت كلة الله هي العليا ، وأمرة المطاع ، وهو الذي يقول جملة الرسالة عرباً وعجماء « وقل للذين أتووا الكتاب والأميين أسلتم ؟ فإن أسلمو فقد اهتدوا وإن توَلُوا فإنما عليك البلاغ » .

كانت المسيحية هي الديانة الفالبة في دولة الروم من جبال طوروس إلى جبال الأطلس ، أي في الساحة التي تشمل اليوم سوريا ومصر وطرابلس الغرب وتونس ، وكانت هذه الأقطار من أول ماحرر العرب في الدفعة الأولى أيام خلفائهم الراشدين ، وأيام أن كان الحسن للدين الجديد في أوج حرارته .

وكان النصارى في الأقطار المفتوحة من مختلف الشعوب واللغات ، فنهم العرب ، ومنهم غيرُ العرب . فإذا كان حكم الفاتحين في الملاويين ؟ ذلك

ماندعاً الكلامَ فيه لالسير (توماس أرنولد) ذلك المؤرخُ والعالمُ الكبيرُ المختصُ
في هذا الموضوع .

يقولُ السير توماس في كتابه (انتشار الإسلام) : « حقاً إن الكنيسة
المسيحية قوية وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم ، فلم يحلُ الحكمُ
الإسلاميُّ بينها وبين الاتعاش والرق ، بل إن النساطرة لم تتفجر فيهم الحميةُ
والحسنةُ الدينيةُ إلا بعد أن دخلوا في حكم الإسلام بما لا عهد لهم به من قبل ،
فتشروا المسيحية تحت راية الإسلام ، وبلغوا بدعوتهم الصينَ والهنـد تحت
حياة الخلفاء . وإذا لم يكن لغير النساطرة من أهل النصرانية ما لهؤلاء من
النشاط والهمة في نشر دعوتهم الدينية ، فليس هذا ذنبَ المسلمين ، ولا
ذنبُ حُكـامـهم : فقد كانت جميعُ المذاهب المسيحية تتمتعُ بالرعاية والتسامح
من الحكمِ المسلمين على حد سواء . بل كان هؤلاء الحكمـم الذين يعنونـون
اضطهاد بعضَ المسيحيـين لبعضـ ، ويـكـفـلـونـ الحريةـ الدينـيةـ للجـمـيعـ » ، وقد
عدد السير توماس حوادثَ النكـابةـ بين المذاهب المسيحية ، وبيـنـ كيفـ كانـ
الحكـامـ المسلمين يتـدخـلونـ لـإـقـامـ العـدـلـ ، وإنـصـافـ المـظلـومـ منـ غيرـ تحـيزـ
وـعـنـتـهـ التـسـامـحـ ، مما لا عـلـلـ لـلـإـطـالـةـ فـيـ الآـنـ ، وـيـعـكـنـ الرـجـوعـ إـلـيـهـ فيـ
صحـيـفةـ ٦٠ـ وـغـيرـهـ مـنـ كـاتـبـهـ السـالـفـ الذـكـرـ .

كذلك بينـ أنـ ماـ يـعـرـفـهـ منـ التـسـامـحـ وـالـإـحـسانـ الذـىـ امـتـدـ ظـلـهـ عـلـىـ
الرعاياـ المسيـحـيـينـ فـيـ العـصـرـ الـأـوـلـ ، وـماـ سـاقـهـ مـنـ الـأـمـثلـةـ وـالـوـقـائـعـ ، لـاـ يـسـمحـ
عـاـ يـفـتـرـصـهـ كـثـيرـ مـنـ النـاسـ ظـنـاـ ، وـهـوـ أـلـمـ الـمـسـيـحـيـةـ دـخـلـتـ فـيـ الإـسـلـامـ
قـهـراـ أـوـ بـحـدـ السـيفـ ، فـذـلـكـ لـاـ شـكـ باـطـلـ وـلـاـ مـبـرـرـ لـهـ ، وـعـلـيـنـاـ أـنـ بـحـثـ عـنـ
أـسـابـ أـخـرىـ لـتـفـسـيرـ إـسـلـامـ الـمـسـيـحـيـينـ .

ويقولُ السير توماس « تحت نظامِ من الأمانِ يـكـفـلـ حرـيـةـ الـحـيـاةـ وـالـمـلـائـكـ
الـوـزـراءـ وـالـوـلاـةـ المـسـيـحـيـوـنـ ، وـعـلـيـ الأـخـصـ فـيـ الـمـدـنـ ، بـثـروـاتـ وـنجـاحـ
دـوـلـةـ الـإـسـلـامـ » .

كثيرٍ في عصور الإسلام الأولى، فكان منهم أربابُ النفوذ الواسع في قصورِ الخلفاء». وقد ساق على ذلك شواهدَ كثيرةً، من أطرافها أنَّ أخوين مسيحيين (سلماوه وإبراهيم) ولل الخليفة العباسي المعتصم مناصبَ الوزارة، ومنها يدتُّ مال المسلمين، ولما مرض إبراهيم عاده الخليفة في بيته، فلما مات حزن عليه حزناً شديداً، وأمر بجنته بخيّلها إلى القصر وجرت المراسمُ المسيحيَّة مرامي المسيحية
ففي قصر الخليفة
الإسلامية ١
والصلوات عليها في قصر الخليفة الذي شُيّعت منه الجنازة ١ وذكر السير توماس من بين من ذُكر من الوزراء المسيحيين، (نصر بن هارون) الذي تولى رئاسةَ الوزارة لعهد الدولة بن بويه، وبني عدداً كثيراً من الكنائس والمعابد.

وقد عدد كذلك أمثلةً للتسامح في الكنائس التي أمر ببنائها الخلفاء، وأنفقوا عليها في شمال الجزيرة والعراق والشام، ولا يزال بعضها قائماً إلى اليوم ككنيسة (أبو سرجة) في مصر العتيقة مما بني في العهد الأول الإسلامي بالفسطاط. وليس أدلَّ على سعةِ الصدر من أنَّ والي الأمويين في العراق وفارس (خالداً القسري) بني لأمه المسيحيَّة كنيسةً لتعبد فيها في العهد الأول للدعوة وأيام صولة الفتوحات والحروب بين المسلمين والروم المسيحيين. ويُعْكِنُ للذين يريدون تفصيلاً أوسعَ في هذا الشأن أنَّ يرجعوا إلى كتاب السير توماس وما يشيرُ إليه من المراجع الأجنبية والإسلامية.

لقد كان بين العرب المسلمين وأولادِ عمومتهم العرب المسيحيين من الإخاء والتسامح في عهدِ الفتوحات الأولى، ما جعل نصارى العرب يقاتلون في الصفوفِ الإسلامية اتصاراً لعروبتهم واستجابةً لعدالة أبناء عمومتهم. والتاريخُ الإسلاميُّ مستفيضٌ بحوادث الأفراد والجماعات المسيحيَّة في العراق والشام ومصر، التي احتفظت بذاتها وساهمت في بناء الإمبراطورية العربية بجهدها ودمها.

الكتاب نشر
في رعاية الإسلام

العرب المسيحيون
يعاربون مع
أخواتهم المسلمين

فِي وَاقْعَةِ الْجَسْرِ، لَمَّا زُلِّجَ حِيلَشُ (الْمُتَّقِيُّ) وَحُصِّرَ بَيْنَ الْفَرَاتِ وَالْجَيْشِ
 الفَارِسِيِّ، كَانَ نَصَارَى بْنِي طَلْيَ خَيْرَ أَعْوَانِ إِخْوَانِهِمُ الْعَرَبِ الْمُسْلِمِينَ، فَعَمِلَ
 زَعِيمُهُمْ حَمْلَةً صَادِقَةً وَهِيَ الْمَغْبَرُ لِلْمُسْلِمِينَ. وَلَمَّا عَادَ (الْمُتَّقِيُّ) وَاسْتَجَدَ النَّاسُ
 لِحَوْلِ عَارِ هَزِيَّةِ الْجَسْرِ كَانَ بْنُو الْمُتَّقِيِّ الْمُسِيَّحِيُّونَ مِنْ خَيْرِ مَنْ أَنْجَدَهُ. فِي وَاقْعَةِ
 الْبَوْبِ قَاتَلَ نَصَارَى الْعَرَبِ جَنْبًا لِجَنْبٍ مَعَ مُسْلِمِيِّ الْعَرَبِ، وَكَانَ خَيْرُ الْيَوْمِ
 لِنَصَارَى مِنْ بَنِي تَغلِبٍ لِحَقِّ الْمَلْكَةِ أَثْنَاهُ اشْتِدَادُهَا، وَقُطِّعَ رَأْسُ زَعِيمِ الْفُرْسِ
 وَسَلْبُهُ جَوَادُهُ وَفَازَ بِالْفَتْيَةِ وَرَكَضَ رَاجِعًا بَيْنَ صَفَوفِ الْمُسْلِمِينَ يَفْخُرُ بِنَسْبِهِ
 وَأَنَّهُ مِنْ نَصَارَى تَغلِبٍ، وَالْمُسْلِمُونَ يَهْتَفُونَ لَهُ وَيَحْبُّونَ بَخْدَتَهُ.

وَلَقَدْ بَقِيتِ (تَغلِبٌ) عَلَى نَصَارَى نَيْتَهَا، وَهِيَ الَّتِي أَبْتَ الْجَزِيرَةَ وَطَلَبَتِ
 أَنْ تُدْفَعَ الصَّدَقَةَ أَسْوَةَ الْمُسْلِمِينَ، فَأَمْرَأَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُنَّا بِذَلِكَ قَاتِلَ
 «لَا تُذَلِّوْا الْعَرَبَ». خَذُوا مِنْ بَنِي تَغلِبٍ الصَّدَقَةَ».

وَقَدْ بَيْنَ السِّيَرِ تُومَاسُ أَرْنُولْدُ فِي كَتَابِهِ سَالِفِ الذِّكْرِ جَلَّةً أَسْبَابِ لِتَرْكِ
 الْمُسِيَّحِيِّينَ دِيَنَهُمْ فِي الْمَصْوِرِ وَالْأُوْطَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَسَرَدَ الْحَوَادِثَ سَرْدًا عَلَيْهَا
 مَدْعَمًا بِالْحَجَّةِ الْقَاطِعَةِ. وَفِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ تَسْكُرُ مَفْخُرَةُ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي
 لَا يَدْانِيهِمْ فِيهَا أَحَدٌ؛ وَهِيَ التَّسَامُحُ وَسُعَةُ الْصَّدْرِ وَالْإِنْصَافُ الْمُخَالِفُونَ
 فِي الْعِقِيدَةِ.

وَسَوَاءُ أَكَانَ الْمُسِيَّحِيُّونَ الَّذِينَ تَرَكُوا دِيَنَهُمْ قَدْ فَعَلُوا ذَلِكَ إِعْجَابًا بِالْدِينِ
 الْجَدِيدِ وَبِأَصْحَابِهِ، أَمْ بِعْضًا مِنَ الْمَاهِفِيَّةِ، أَمْ بِأَسْأَمِ الْإِصْلَاحِ، أَمْ فِي رَأْيِ
 مَنْ أَذَى بِعِصْمِهِمْ بَعْضًا، أَمْ إِهْمَالًا مِنْ قَسَاوَتِهِمْ وَمُرْشَدِهِمْ، أَمْ طَمَعًا فِي دِنِّيَا،
 أَمْ هَذَى مِنَ اللَّهِ.. فَإِنَّ هَذِهِ الْأَسْبَابَ الْمُتَّوْعَةَ وَالَّتِي يَشِيرُ إِلَيْهَا الْمُؤْرِخُونَ
 مِنْ أَهْلِ الْمِلْلَ الْأُخْرَى فِي تَعْلِيلِ إِسْلَامِ الْمُسِيَّحِيِّينَ، أَدَلَّةً عَلَى بُعدِ السِّيفِ عَنِ
 مِيدَانِ الْعِقِيدَةِ الْمُهْمَدِيَّةِ.

نعم لقد وقعت في التاريخ الإسلامي بعض حوادث لا يخلو من اضطهاد
ال المسيحيين ، وأكثر ما يشار إليه من هذه الحوادث في أيام المتوكل العباسى
والحاكم بأمر الله الفاطمى ، وبعض المايلك . والأول كان شديدا على المسلمين
أنفسهم ، فاسيا على المتشيعة والمعزلة من الفرق الإسلامية ، والثانى كان
بالعكس فالمجتمع قاسيا على المسلمين من غير الشيعة . فإذا أصابوا الصيق صدرهم
النصارى ، فلهؤلاء فيما أصابوا المسلمين أسوة . ومع ذلك فنفس هذا الاضطهاد
هو الاستثناء الذى يثبت القاعدة . ووقوع حوادث منعزلة قليلة في تاريخ
أكثر من ألف سنة ، هو الدليل القاطع على تسامح منقطع النظير وتاريخ
ناصح مشرف في سجل الأقوام والأديان .

وأكثر حوادث الأذى التي أصابت بعض المسيحيين في أزمنة متباude،
أثارتها نازعة حسد لما كان يتمتع به النصارى من رداء كبير وغود قبل إخوانهم
أساءوا به ، أو نازعة خوف ؛ فقد كان النصارى في بعض المهد ضالعين مع إخوانهم
في الدين وراء الحدود الإسلامية ومتجرسين متربصين ، فأصابتهم بعض الأمراض ،
أو سلط عليهم العامة تخلصا من أذاهم . وفي تاريخ مصر والشام والدولة العثمانية
والأندلس حوادث متفرقة يمكن تتبعها وردها إلى السياسة لا إلى العاطفة
الدينية ، أو رغبة المسلمين في إكراه غيرهم على الدخول في دينهم . ومن
مفاجير المسلمين المتفق عليها أن تاريخهم خلُو من القوانين الباطشة الجائرة التي
حرمت المقيدة الإسلامية في إسبانيا أيام فرديناند وإيزابيلا ، وحرمت
البروتستانية في فرنسا على عهد لويس الرابع عشر ، وحرمت دخول اليهود
في إنجلترا أربعة قرون .

ويقول السير توماس « إن بقاء الكنائس والمذاهب المسيحية معزولة
في الشرق الإسلامي تلك القرون الطويلة ، هو البرهان القاطع على تسامح
الدول الإسلامية تسامحا عاما ». برهان قاطع على
تسامح المسلمين

وقائع اضطهاد
هي استثناء يثبت
القاعدة

البasaة والخد
الاجتماعي
لا الدين

برهان قاطع على
تسامح المسلمين

لم يكن السيفُ إذاً وسيلةً للإسلام إلى القلوب المغلقة كما كان السيف
لقاءً ودى دائم في
بلاد الإسلام بينه وبين المسيحية
والاضطهادُ وسيلةً لإنقاذ أرواح المسلمين والمسيحيين حتى الخالفين في المذهب
المسيحيّ . . . وكيف يكون ذلك في قومٍ عاهم نبيهم القبائلَ المسيحية ووفي
هذا كفلَ حرية ملوكها وعقيدها وأمن رهيبانها وقاومتها؟ ! وقد قال
القرآن الكريم فيهم «ولتجدُنَّ أقربَهم موَدَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى
ذلك بأنَّ منهم قسيسين ورهبانا وأنَّهم لا يستكِرُون» .

على هذا الأساس الصالح ترك الناس لفجائعهم ولهدایة الله ، فنشأت
العصبة الدينية
بصاعة غربية
 واستمرت علاقة أهل الشرق بعضهم بعض ، وستنمو على هذه القواعد ،
وتبقى مثلًا للذين أسموا إلى الإسلام والمسيحية من متغيبة الغرب لضيق
صدورهم وعدم إنصافهم . ويتحقق لنا نحن الشرقيين مسلمين ومسيحيين أن نتعزز
ونفخر بهذه السيرة الحمدية وأن نطالب الأقوام المتاخرة أن تهتدى بهذين
ونستنير برشدنا .

إِسْلَامُ الصَّلَبَيْتِينَ

دور من الصراع بين المسلمين والمسيحيين — ناج العرب والترك من بعدم إسلام طوائف من الصليبيين — في الحرب الصليبية الأولى — في الحرب الثانية — رواية راهب صليبي عن إسلام ثلاثة آلاف — القسوة الفادحة بالإخاء — الرحمة المفقرة للأعداء — رحمة أشد قسوة من الحياة ! — احتكاك أفاد الصليبيين — تبادل الأسوأ الحسنة — تأثير الإيمان بصلاح الدين — أمراء كثيرون يسلون — صليبيون يقاتلون في صفوف المسلمين — فرح نصارى الشرق بزوال حكم الصليبيين — شوامد أخرى من الشرق البعيد في المهد الأموي — سلاوك كريم في كل مكان وزمان — أساس قرآن لم يختلف باختلاف العصور — هل من هبة العرش والطربة يقوم بها المسلمين والمسيحيون في الشرق ؟

دور من الصراع
بين المسلمين
والمسيحيين

تفسبت دعوة التوحيد على كل ما عداها ، ودارت ، بهذا البحر الأبيض المتوسط حتى عبرت جبال البرانس إلى فرنسا ، فمررت شبه الجزيرة الإيبيرية ، ثم هزمت بيزنطة ، ولقت بالجناح الشرقي حتى وصلت إلى شواطئ الأدرية اليونانية ، فغلبت لغة الآتراك وأدبهم في جنوب أوروبا الشرق ، كما غلبت من قبل لغة العرب وغرفتهم في جنوبها الغربي ، وحظى من حمل لواء هذه الدعوة من القبائل العربية والتركية ومن أخلصوا لها ، بجزء من الله منقطع النظير ابسطة الملك ودوامه ، وإقبال الدنيا حتى اندمج في هيئتهم ولغتهم وعنصرهم من الأمم من أهل أعرق منهم في العمران والملك . وقد سبق للمربي وسبق للترك أن فتحوا ممالك ، وأقاموا دولًا قبل أن يعرفوا محمدًا ويهدوا بهديه ، فما عظم لهم شأن ولا يرق لهم ذكر محمود ، ولكن هاتين الأمتين المعروفتين بالقدرة على الفز والقهـر والوصوفـتين بالتوحـش في التـاريخ الـقديـم ، هذـبـهما الرـسالـة الـحمدـية فـتـشـوا إـلـى الـأـقـوـامـ الـمـتـحـضـرـةـ وـالـبـادـيـةـ ، يـهـدـيـمـ شـرـعـ وـاضـحـ فـكـابـ كـرـيمـ ، وـأـدـبـ عـالـيـ قـوـامـهـ الـفـضـيلـةـ ، وـنـظـامـ أـسـاسـهـ الـعـدـلـ ، وـدـعـامـتـهـ خـشـيـةـ اللهـ فـعـبـادـهـ ، فـسـحـرـوـاـ الـمـتـقـدـمـيـنـ وـالـمـتـأـخـرـيـنـ ، وـمـازـالـ النـاسـ مـنـ الـأـقـوـامـ الـمـتـنـصـرـةـ

ناج العرب
والترك من بعدم

الأوروبية والأسيوية والإفريقية يمثلون بثليهما، حتى دخلوا أفواجا في دعوتهما
من غير قهر ولا أذى.

إسلام طوائف من الصليبيين
دخلت الأمم المسيحية مستحبةً لدعوى العرب والترك طوعاً واحتياطاً
للجانب الأعز بالحق والمثل الأعلى في الأدب والفضيلة، ولعل من أظهر الأدلة
على ذلك وأعجبها، إسلام طوائف من الصليبيين الذين حشدوا من كل جنس
وجيل، وجاءوا المشرق تغلى صدورُهم بالبغضاء، وتفطر من أيديهم الدماء،
حتى ذبحوا نفس النصارى في طريقهم من لم ينقطع لدعوتهما، أو من خالفهم
رأيَهم، أو كان على غير مذهبهم في المسيحية. هؤلاء العناة القساة ما بثوا أن
اقتبسوا أدب أعدائهم، فاتسعت صدورُهم وتهذب تعصيمهم، وتعلموا من
يغضونَهم التسامح، فصار القادرُ عليهم مددًا من الغرب يُذكرُ ما يجدهم فيه
من أدب سخالي البغضاء والخذل.

في الحرب الصليبية الأولى
بل إن كثيراً من زعماء الصليبيين وكثيراً من عامتهم الذين قطعوا الأرض
لقطع رقاب المسلمين، ارتموا في أحضان الدعوة التي غاصروا كل مغامراتهم
للقضاء عليها منذ أول تعارف؛ ذلك هو أعجب آثار التسامح!

في الحرب الثانية
فقد أسلم في الحرب الصليبية الأولى من أسلم (رينود) أمير طوائف
الجرمان والمبardiين، وأسلم معه خلق كثير منهم، وأسلم في الحرب الصليبية
الثانية، كما يروى السير توماس عن راهب من رهبان سنت دنيس كان قيسراً
في المعبد المخصوص للملك لويس السابع، ورافقه في هذه الغزوة طائفة
كبيرة. وإليكم ما يقوله الراهب في عبارة شافية:

رواية راهب عن إسلام ثلاثة آلاف سامي
«في طريق الصليبيين إلى المقدس، عبر جبال الأنضول، التقوّا يحيش
المسلمين، فهزّم الصليبيون شر هزيمة، وكان ذلك في المرّ الجليل «فرنجيا»
وذلك سنة ١١٤٨، ولم يصلوا إلى مرسى «أضاليا» إلا بشق الأنفس ومنها
استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهاة أن يرْجِلُوا إلى

أُنطاكية بحراً، وقد دفعوا مبالغ طائلةً، وتركوا خلفهم الجرحى والمرضى والحجاج، فدفع كذلك لويس ^{الخمسين} مارك لليونانيين على أن يُمنوا بهؤلاء الضعفاء حتى يُشفوا، وعلى أن يرافقهم حرس اليونانيين حتى يلتحقوا بهم سباقهم؛ فما كان من اليونان الفادرين إلا أن تربصوا حتى تباعد جيش الصليبيين، واتصلوا بالمسلمين الآثراث وأخبروهم بما عليه الحجاج والجرحى، ومن تحالفوا من الوهن والعجز، ثم قعدوا ينتظرون إلى إخوانهم في الدين ينال منهم المؤس ^{القوسية العادرة} والمرض وسمام المسلمين. ولما صاف الصليبيون المتخلفون ذرعاً ^{الإثناء} بما أصابهم، خرج ثلاثة آلاف أو أربعة من قلعتهم محاولين النجاة بأنفسهم، خضرهم المسلمون وشدوا عليهم، ثم حلوا على المعسكرات الصليبية، وكان حال من خرج ومن بقي في المعسكر ليس فيه أقل رجاء، ولم ينقذوا إلا بما تزل في ^{الرحة للنفدة} قلوب المسلمين من الرحمة، حين أطلقوا على ما فيه عدوهم من ^{اللامعاء} بأساء، وما أصابهم من ضراء. رقت قلوبهم وذابت نفوسهم رحة لأعدائهم الصليبيين المساكين، فواسوا المريض وأحسنوا للفقير، وأطعموا المسكين بسخاء وكرم. وبلغ من إحسانهم أن بعضهم استرد بالشراء أو الحيلة أو القهر النقود الفرنساوية التي أخذها اليونان من الحجاج، وردها عليهم، ووزعها على المحتاجين من الصليبيين. وقد كان الفرق واضحًا بين معاملة إخوان الذين سخروا إخوانهم ^{يقصد المسلمين} - للحجاج المسيحيين، ومعاملة اليونان الذين سخروا إخوانهم في الدين، ونهبوا أموالهم وضربوهم. كان الفرق عظيمًا لدرجة حلت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء المنقذين، ومن غير أن يُذكر هوا أو يُقهروا. لقد فرُوا من إخوانهم في الدين أساموا إليهم، فلتحق ثلاثة آلاف بالجيش الإسلامي بعد أن رجم عنهم ودخلوا في دينه. لقد كانت الرحة أشد قسوة من الخيانة! لقد أعطاهم المسلمون الخبز وسلبوهم الإعانة. واحسرناه! لقد ارتدوا عن المسيحية من غير أن يُخبروا واحد منهم على ترك دينه.

القوسية العادرة
الإثناء

اللامعاء

رحة أشد قسوة
من الخيانة

ذلك ما ي قوله الراهب . ويقولُ السير توماس « لقد كان اختلاطُ النصارى
 الصليبيين بالمسلمين ينموا على مدار الأيام ، وينمو معه الاحترامُ والتقديرُ عزياً
 عدوهم وفضائله ، وتزايدَ تقليدُ الفرنجية النازلتين في فلسطينَ لل المسلمين تزايداً
 كان له أثرٌ واضحٌ على أفكارِهم الدينية . وأظهرَ هذه الآثار ذلك التسامحُ
 الدينيُّ الذي أخذَ يتصرفُ به كثيرٌ من فرسان الصليبيين وأمرائهم ، وذلك
 القدرُ الرحبُ الذي أخذوا يتلقون به التعاليمَ المحمدية ، حتى إنَّ الأميرَ السوريَّ
 (ابنَ مُنْقَذٍ) لما زارَ يدتَّ المقدسَ أثناءَ بعضِ المهدناتَ كانَ أميرَ الصليبيين على
 المسجدِ الأقصى يأخذُ له بإقامةِ صلاته في المعبَدِ ، فعجبَ الصليبيونَ الجددُ بهذه
 الحالةِ العقلية ، واحتتجُوا عليها ، ولكنَّ الصليبيينَ الذينَ أثروا فيهم جوارُ الشرقِ
 كرهُوا أنْ يتدخلَ أحدٌ في حريةِ ضيقِهم الدينية ، ولم يردهم عن هذا التسامحِ
 الذي تعلموه في الشرقِ خرجَ السكينةُ وغضباً في الغربِ ». ثمَّ قالَ : « لقد
 اجتذبت الدعوةُ المحمدية إلى أحضانها من الصليبيينَ عدداً مذكورةً ،
 حتى في العهدِ الأول ، أيِّ القرنِ الثاني عشر ، مما يلفتُ نظرَ من يطلعُ على
 سجلاتِ الصليبيينِ .

ولقد بلغَ تأثيرُ الإعجابِ بشجاعةِ صلاح الدينِ وفضائله في الصليبيينِ ،
 أنَّ كثيراً من أمرائهم وعامتهم المعجبين به ذهبُ بهم هذا الإعجابُ إلى تركِ
 دينهم وأهلهم والدخول في الإسلامِ .

مثلُ ذلك ما فعلَ الزعيمُ الإنجليزيُّ (روبرت سنت أوليان) وكان ذلك قبلَ
 انتصارِ صلاح الدين في معركةِ حطين الفاصلة التي وقع فيها ملكُ القدسِ
 (جاي) أسيراً . ويقولُ بعضُ مؤرخي النصارى : إنَّ ستةَ من أمراءِ هذا الملكِ
 استولى عليهم الشيطانُ ليلةَ المعركة فأسلموا وانضمُوا إلى صفوفِ الأعداءِ دونِ
 أنْ يُقهروا ومن أحدي على ذلك . وقد وصلَ الأمرُ (ريعون الثالث) أمير طرابلسِ
 الشامَ أنْ اتفقَ مع صلاح الدين على أنْ يدعو قومه إلى الإسلامِ .

وحتى بعد صلاح الدين ، لما قام الصليبيون بحرفهم الثالثة اتقاءً للسقوط
في القدس ، وحاصروا عكا ، وأصابتهم البأس ، وعفّهم الجوع ، فـ «كثير
إلى صفوف المسلمين» ؛ فنهم من آمن ، ومنهم من رجع إلى قومه ، ومنهم
من استمر على نصرانيته ، واختار البقاء وأن يقاتل في صفوف المسلمين .

صليبيون يقاتلون
في صفوف
المسلمين

وفي هذا المعنى يقول السير (جون ماندفيل) أحد المعاصرين للصلبيين «كان
بعض المسيحيين يرتدون عن دينهم ويصيرون عربا ، لفقرهم أو غيابهم
أو شقاوتهم» . ولا يُنتظر بالطبع من صليبي كالسير جون أن يفسّر ما يسميه
المسلمون بالهداية إلا بالغباوة والشقاوة . والذى يعنينا من الأمر أن الفقراء
والأحياء والضالّين الذين ذكرهم السير ماندفيل ، دخلوا في الإسلام الذي جاءوا
لحوه ، مختارين ، واجتذبوا إليه بالدعوة والإرشاد ، لا القهر والاضطهاد .

بل إن بعض المؤرخين المسيحيين المعاصرين لفتح الإسلامي واسترداد بيت
القدس ، وبعد ذلك بكثير بعد انهيار دول الفرنجية في الشام كلها ، يُشيرون

فرح نصارى
الشرق بزوال
حكم الصليبيين

إلى فرج النصارى بالتحرر من حكم الصليبيين . ويقول السير توماس في هذا
المعنى «لقد سكنوا إلى الحكم الإسلامي وادعى مستبشرين ، كما استمر
الحكام المسلمون على عادتهم القديمة من التسامح وسعة الصدر لأهل
الملل الأخرى» .

وإذا كان ما ذكرنا هو بعض الشواهد على انتشار الدعوة الحمدية بالحجّة
بين أشد خصومها الحاربين ، وفي أحلال أيام الدولة الإسلامية ، أيام فارات
الصلبيين والتتر ، فإن لنا شاهدآ آخر من بطريق خراسان في آخر أيام الدولة
الأموية العريقة ، مختتم به هذا الفصل . يقول البطريق (بوساب الثالث)
اليعقوبي في خطاب طويل بعث به لخبير زميل «أين أبناؤك أينما الأب أين
هذا الشعب العظيم شعبٌ مرنٌ ! لم تصبهم جائحة ولا سقطوا للسيف ،
ولا عذبوا بنار ، وإنما أصحابهم متاع الدنيا ، فارتدوا عن دينهم ، وقدفوا

شواهد أخرى
من الشرق البعيد
في العهد الأموي

بأنفسهم كا يُقذفُ المجانين في مهاوى ال�لاك والكفر ، فلم ينج من هذا
السعير إلا قيسان اثنان فرًا بنيتهم من جحيم الكفر - أى الإسلام -
واحسرتاه على الآلاف المؤلفة الذين حملوا اسم المسيحية وصفتها ، ولم يقع منهم
شهيد واحد ولا ضحي واحد منهم لدينه !!

أين كذلك يَسْعُ كِرْمانٍ وَكَنَائِسُ فَارِسِ ! لم يكن قدومُ شيطانٍ ولا ملَكٍ
ولا أميرٍ ، ولا أمرٌ خليفة أو سلطان هو الذي قضى علينا . لم يكن ساحراً
موهوبًا أو في المنطقَ وسلطة الشيطان على النفوس ، ولكنه ساحرٌ هز رأسه
فقط نفرت كنائسُ فارسَ كلها على الأرض !

أما العربُ الذين آتاهم اللهُ ملَكَ الدُّنْيَا كَا تعلمُ - فإنهم عندَكَ كذلك - سلوكِ كرمِكِ
فلم يطعنوا في ديننا ولا اعتدوا على يَعْنَا ، بل بالعكس صالحوا مع ديننا وفضلوا
على غيره ، وأكرموا رهباننا وقاوستنا ، واحترموا أولياءنا ، وأحسنوا
المهبات إلى معابدنا . فلماذا إذا هجر أهْلُ مَرْءَوْ نصراوينَ زُلْقَنَ لهؤلاء
العرب ، وهم يعلمون ويقولون إن العرب ما طلبوا منهم تغييرَ دينهم ، بل
أقرُّونَ علىَهِ كاملاً ، ولم يسألُوه إِلَّا ضرورةً بسيطةً يُؤْدِنُهَا عن أنفسهم ،
ولكنهم اشتروا خلودَ أرواحهم في دين المسيح بثباتٍ قليلٍ !!

هل هناك بيانٌ أوضحٌ من هذا البيان عن نفاذ الدعوة الحمدية باللحقة
إلى قلوبَ المسيحيين ؟ لقد سقنا لك الشواهدَ من المشرق والمغرب في
القرن الأول ، وفي القرن السابع ، في المحاربينَ والمهادينَ . لقد اختلف
كلُّ شيءٍ ، اختلفت الأُمُّ والقرونُ والظروفُ ، ولم يختلف الحقُّ الذي سار
هذه الدعوةَ منذ ظهورِها ، والذى وضع أصلَه القرآنُ في قوله تعالى :
« لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قد تبيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ النَّقْصِ » .

وَحْقٌ لَنَا نَحْنُ سَلَالَةُ الْأَقْوَامِ الْمَعْدُلَةُ الْمَنْصُفَةُ الْحَلِيمَةُ الرَّحِيمَةُ فِي الْمَشْرِقِ ،
مُسْلِمِينَ وَمُسِيحِيِّينَ ، أَنْ نَطْمَعَ فِي نَهْضَةٍ جَدِيدَةٍ نَكُونُ فِيهَا مُثْلًا وَدَعَاءً
لِحُرْيَةِ الْعِقِيدَةِ وَحُرْيَةِ الرَّأْيِ فِي عَالَمٍ ضَاقَ صَدْرُهُ بِالْمُخَالَفِينَ فِي الرَّأْيِ . لَقَدْ كَانَ
آبَاؤُنَا حَاجَةً هَذِهِ الْحُرْيَةِ وَمُثْلَهَا الْعُلْيَا ، فَلَنْكُنْ نَحْنُ وَرَثَةً هَذَا الصَّبَرِ عَلَيْهَا ،
وَحَلَّهُ رَأْيَهَا فِي أُمَّةٍ نَاشِئَةٍ وَدُولَةٍ جَدِيدَةٍ .

هُلْ مِنْ نَهْضَةٍ
لِلْعِنْ وَالْحُرْيَةِ
يَوْمَ بَاهِلِ السَّفَوْنِ
وَالْمُبْجِيُونَ فِي
الْمَشْرِقِ ١٩

إسلام الأوروبيين

نارئغ معرف لنا ونارئغ غير مشرف لغيرنا - مزاج قاس وصدر ضيق -
مفارقات بين المسلمين والحضور المسيحيين - المسيح البري، من روح
التعصب الغربي - التزعزعات البذرية بين إطلاق المسيحية وقيود الإسلام -
أثر تركيز الدين في النظام السكھنوي - الطرسية في فهم القرآن لدى جميع
المسلمين - والنبوذ في فهم الانجيل لدى المسيحيين - الملائكة والحرام كلاما
بين في الإسلام لدى الخاصة والم العامة - أدب القرآن مع المخالفين - بساطة
الدخول في الإسلام تعميم الدماء والأموال - من نارئغ تعصب المسيحيين في
إسبانيا - انتقامهاد اليهود والعبيد في إسبانيا - فرار المشهددين إلى
الإسلام برغبة - أثر تسامح المخالفين وعدم ترافقهم عن الطرالة - استمرار
وامدماج - نصارى يبلون القرآن - دخول في الإسلام حتى في وقت سقوط
دولته - هزيمة العرب في فرنسا سبب تأخير وصول المغاربة إلى أوروبا
عانياً فرون - بين وطأة المسيحيين في الغرب ورحة المسلمين في الشرق -
سلطات وامتيازات لبعارةة المسيحيين في دولة الأتراك - المعنى عن الأسوة
الحسنة ! - هو المزاج الغربي الدموي دائمًا - أهل في رحمة الله

يصحّب نشر الدعوة الحمدية في أوربا الشرقيّة وأوربا الغربية تاريخيًّا جديًّا
بالذكّر الحسن ، وحقيقةً بغير المسلمين ، كما يصحّبُه ، مع الأسف من الناحية
الأخرى ، حوادث لا حصر لها من أمثلة السوء الذّاللة على صنيق صدورِ كثير
من الأوروبيين ، وعلى التجاهُم في سبيل تأييد آرائهم الدينية إلى أرداً الوسائل
وأنكر الأفعال

ومع أنَّ الذين رفعوا راية الإسلام في الغرب من ناحية إسبانيا وفرنسا
وإيطاليا ، كانوا من العرب والبربر ، والذين رفعوها في شرق أوربا كانوا غالباً
من الترك والتتر ، وهم أقوام اشتهرت كلها بالباس والشدة ، فإنَّ تاريخهم
من ناحية نشرهم الدعوة الحمدية ، وتسامحهم الديني ، هو أظهر ما في صفحات
مجدهم وأحقّها بالفخار . وذلك على عكس الأقوام الأوروبيَّة ؛ فقد كان ينظم
برؤسها وفاجرها في سلسلة الفظائع الدمويَّة التي اقترنَت بقاومة الدعوة الحمدية
والقضاء عليها في أوربا الغربية والشرقية في مدى مئات السنين .

وما يصعب أن نجد له تفسيراً أن القسوة التي كانت وسيلةَ الأوروبيين
في القضاء على حضارة المسلمين ودينهم في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا أو في شرق
أوروبا ، لم تختلف عن الظهور بأشنع مظاهرها حتى ضدَّ النصارى أقسامهم
كلاً وقع زراعٌ حادٌ على رأيِّ الدين ، أو دعوة من الدعوات المسيحية ،
أو ضدَّ اليهود .

وليس الأقوام الآوروبية كلُّها جنساً واحداً ، ولا من يثنة واحدة ،
ولا طبيعة واحدة ؛ فيدينا من الخلاف في الجنس واللغة والطبائع ما بينَ أمِّ
الشرق ؛ فإذا وحدَ إذاً وسائلها ، وجعل الفتنة والغيبة والغدر والظلم من أظهر
هذه الوسائل لإعلاءِ دينٍ على دين ؟

وماذا جعل أقواماً بادِيةً كالعرب ، وأقواماً صناعتها القتالُ كالترك والتتر
والبربر ، تختارُ لنشر دينها الحجةَ والقدوةَ ؛ فلا نجدُ في تاريخ طويلٍ شملَ
المشرق والمغربَ كثراً من ألف سنة حوادثَ دمويةَ تشبهُ عن قربٍ أو بعد ،
تلك الفظائع الساحقة التي تكررَ على ممرِّ الزمن ، على أيدي الأوروبيين في
أنفسِهم ، أو مع أهل الملل الأخرى ؟

لأنَّ نجدةً لذلك تفسيراً نجزمُ به ؛ فالسيد المسيح ، عليه الصلاة والسلام ،
هو خصيصةُ العنف ، ومن خير من دعا إلى المعروف والسلام ، ودعوه تحترمُ
الحرب والقتل تحرِّعاً قاطعاً ؛ فليس دينُ المسيح هو الذي بثَّ روحَ التعصيبِ
المقوت ، ولا هو الذي حولَ مزاجَ الغربيين إلى مزاجِ سفاحٍ .

أما الدينُ الإسلاميُّ قد أباح القتال ، وظهرت دعوته في العالم مصحوبةً
بتلك الفتوحات التي لم تقفْ في وجهها شاهقاتُ الهملايا ، ولا شاهقاتُ الأطلسيِّ
والبرانس والبلقان ، فلماذا كان أصحابهُ كثراً الذين تسماهم مع رعاياهم من أهلِ
الأديان ، وأوسعهم صدراً للغيل والتحلُّ ؟

مقارنات بين
البدو المسلمين
والحضر
المسيحيين

المسيح البريِّ ،
من روح
التعصب الغربيِّ

النزاعات البشرية
القاسية بين
إطلاق المسيحية
وتقييد الإسلام

لعل السبب ينتمي ناشئاً من اختلاف النظم الدينية؛ فإن للمسيحيين اثر تركيز الدين
نظاماً اكثيراً، أو بعبارة أخرى كثنو تأثيراً جعل عليهم قواماً من طوائف
الكهنوتي في النظام الدين

رجال الدين.

وكذلك لم تكن المسيحية واضحةً في شئون الدين ، فتسقطت التزعة
البشرية . أما الإسلام فحرم هذه القوامة ، ولم يسمح بصلة بين العبد وربه
غير صلة الضمير ، وكانت أوامر ونواهيه في شئون الدنيا جلية . فلعل سيطرة
العنصر البشري على العقيدة هي التي أخرجت هذا الفرق المائل في مزاج
الأقوام الدينية التي شهدت ظاهره طول الدهر وفي كل مكان .

وأيضاً كان وضوح الأوامر الدينية عند المسلمين ، مما جعل كلاً من
الحلال والحرام يتناء في كتاب مبين . فالخاصة وال العامة يعلمون أن الله قد حرم
عليهم إلا كراهة في الدين ، ويعلمون أنه يقول لنبيه «أفانت تكره الناس
حتى يكونوا مؤمنين !» بل إن الدين الذي حرم على أهله سبب الأديان
الآخرى لا يدع سبيلاً للاضطهاد والظلم . يقول تعالى «ولا تسبوا الذين
يدعون من دون الله فليسوا الله عدواً بغير علم كذلك زينا لكل أمة
عملهم ثم إلى ربهم صر جمعهم فينبئهم بما كانوا يعملون» .

لعل كذلك من أسباب تكون هذا المزاج المتسامح بساحة العقيدة
الحمدية ، فإنها تقوم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله ، وأن هاتين
الكلمتين تغصن الدماء والأموال . فلما درج الناس على هذه البساطة وتركوا
ما وراء ذلك حساب الله ، تعودوا التسامح وسعة الصدر ، بعضهم مع بعض ،
ومع من خالفهم من أهل الملل الأخرى .

قد تكون هذه الأسباب ، وقد يكون غيرها علة الخلاف الجوهري
بين مزاج المسلمين ومزاج الآوريين الدين . وليس هذا مقام سرد تاريخ
طويل لبيان ما نشير إليه من خلاف ، فهو حين على من أراد أن يتبين

الحق، ولكن قد يحسن سوق بعض الشواهد:

لما دخل العرب إلى إسبانيا كان مجتمع طليطلة السادس قد قرر أن يقسم الملك عند توقيع سلطتهم أن لا يطيقوا في ملكهم من لا يتمذهب بذهب الكاثوليك، وأن ينفذوا القانون بكل شدة على من يخالف. وكان من ضمن هذه القوانين السجن المؤبد مع مصادرة الملك لكل من يفكر في مناقشة أوامر الكنيسة، وتعاليم الكثلكة. ويقول (بودسين) «كان الإمبراطور كايلوس السيطرة التامة على شئون الدولة؛ ففضلاً على ما للأساقفة من رأى نافذ في جميع مجالس الحكم؛ قد كان لهم حق التصديق على انتخاب الملك وحق خلمه إذا خالف ما يرسمون من قوانين». ولقد أخذ الإمبراطور من سلطاته سبيلاً لاضطهاد اليهود الذين كانوا عنصراً مهمّاً في إسبانيا» ويقول (هلفرینغ) «إن أوامر وحشية صدرت لتعييد من يأتى الارتداد عن دينه من اليهود، فلما وصل العرب تلقاهم اليهود بالترحيب الذي يستحقه المتقدون، وكذلك فرح العبيد المتنصرةون لقدوم العرب فرحاً شديداً، فأخذ المضطهدون يدخلون في دين العرب أفواجاً، بل أخذ النساء وال العامة يقبلون على الدعوة الجديدة الحرّة». ويقول السير توماس أرنولد. «لقد أصبحت الطوائف الكثيرة التي اعتنقت الدين الإسلامي مختارة، من أشد أنصاره تحمساً وأظهرها زهداً؛ فكانوا يمثلون الطهر والتشفّف، حتى صار الفرق بينها وبين الأرستقراطية العريمة التي مالت للترف وأضها».

ولم يسمع في أيام الفتح العربي بأية محاولة من الفاشين للإكراه في الدين، أو الاضطهاد والظلم لتبسيير المقيدة. ولعل السبب الأول في امتلاكهـم السريع لهذا الجزء من غرب أوروبا هو سعة الصدر والتسامح الذي كان يديـنـهمـ. كما أن تسامحـ الحكامـ بما أباحـواـ من الحرية الدينية للمسيحيـينـ واختلاـطـهـمـ بهـمـ وـتزـواـجـهـمـ مـعـهـمـ، أدىـ إلىـ تـعرـيبـ وـاسـعـ لـالـعـناـصـرـ المـسيـحـيـةـ،

من تاريخ تعصب
المسيحيـينـ في
إسبانيا

اضطهاد اليهود
في إسبانيا

فرار المسلمين
ملـ الإـسـلامـ
برغـبةـ

سامـعـ التـائـيعـ
وـعـدـمـ تـرـفـهـمـ
عـنـ الـخـالـطـةـ

فَانْخَذَ كَثِيرُونَ مِنَ النَّصَارَى أَسْمَاءَ عَرِيبَةَ، وَتَخْتَبُوا كَجِيرَانِهِ الْمُسَمِّينَ.

وَتَسْمِيَةُ الْمُسِيَّحِيِّينَ الَّذِينَ فِي حُكْمِ الْعَرَبِ بِكَلْمَةِ (Mzarabe) أَيْ مُسْتَعْرِبٍ ،
تَشِيرُ إِلَى الْأَبْجَاهِ الَّذِي أَبْجَهَتْ إِلَيْهِ جَمِيعُهُمْ . وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ إِعْجَابِ النَّصَارَى
الْمُسْتَعْرِبِينَ بِلِغَةِ الْقُرْآنِ أَنَّ صَارُوا يَتَلَوُنَهُ وَيُمْجِيِّبُونَ بِهِ ، بَلْ لَقَدْ بَلَغَ أُثْرُ هَذِهِ
الدُّعْوَةِ إِلَى رُؤْسَاءِ الْكَنِيْسَةِ نَفْسَهُمْ ، فَتَلَقَّحَتْ أَفْكَارُهُمْ فِي إِسْبَانِيَا وَخَارِجَهَا
بِالنَّظَرِيَّاتِ الإِسْلَامِيَّةِ . كُلُّ ذَلِكَ يَفْسُرُ لِنَا مَا كَانَ لِلْمُتَّلِّ وَالْمُقْدُوْنَ مِنْ نِشَاطٍ
الدُّعْوَةِ مِنَ الْأُثْرِ فِي خَرْوَجِ الْمُسِيَّحِيِّينَ عَنِ دِيْنِهِمْ ، حَتَّى صَارَتِ الْأَكْثَرِيَّةُ
الْكَبِيرَةُ لِلْإِسْلَامِ فِي زَمْنٍ قَصِيرٍ .

وَقَدْ بَلَغَ مِنْ أُثْرِ الْمُقْدُوْنَ الْحَسَنَةِ وَالدُّعْوَةِ بِالْحَكْمَةِ أَنَّ الْمُسِيَّحِيِّينَ لَمْ يَنْقُطُمُوا
عَنِ الدُّخُولِ فِي إِسْلَامِ ، حَتَّى وَأَهْلُهُ يَرْسُفُونَ فِي الْمَظَالِمِ الْوَحْشِيَّةِ ، فَيُشَرِّدُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَيَهْجَرُونَ مِنْ أُوْطَانِهِمْ . وَمِنْ أَغْرِبِ مَا رُوِيَ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ
(سُرْلِنْجُ مَا كُسوِيل) عَنْ حَوَادِثِ ١٤٩٩، أَيْ بَعْدَ سُقُوطِ غَرْنَاتَةِ بِسِعْ سِنِّينِ؛
فَقَدْ أَشَارَ إِلَى مُسَمِّينَ جُدُّدِ دُخُولِهِمْ فِي إِسْلَامِ وَهَاجَرُوا فِي جَمْعِ الْفَارِينَ
مِنِ السَّيْفِ وَالنَّارِ» .

وَلِيَسْ الْمَقَامُ مَقَامًا تَفْصِيلٍ ، وَإِنَّا أَرْدَنَا إِلَى اسْتِهْمَادِ لَسِيرَةِ كُرِيْبةِ مُعْتَرِفٍ
بِهَا مِنْ جَمِيعِ الْمُسِيَّحِيِّينَ عَنِ حُكْمِ الْعَرَبِ فِي غَرْبِ أُورُوباِ ، وَمَا تَقْتَعُ النَّاسُ بِهِ
مِنْ حُرْيَةِ الْمَقِيْدَةِ ، وَمَا كَسَبُوا مِنْ عِلْمٍ وَعِرْفٍ وَحِضَارَةٍ فِي ظَلِ الْآدَابِ
وَالْأَوْاْمِرِ وَالنَّوَاهِيِّ إِلَيْهِمْ . وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ اعْتِرَافِ الْمُنْصَفِينَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ
أَنَّ أَحَدَ الْمُؤْرِخِينَ قَالَ عِنْ ذَكْرِ وَاقْعَةِ (بُوَايَهِ) الَّتِي قُتِلَ فِيهَا (عَبْدُ الرَّحْمَنُ
الْغَافِقِيُّ) وَفَازَتْ جِيُوشُ (كَارْلُ مَارْتِل) عَلَى الْعَرَبِ فِي غَرْبِ فَرْنَسَا: «لَقَدْ
كَانَتْ هَزِيْةُ الْعَرَبِ سَبِيلًا فِي تَأْخِيرِ وَصُولِ الْحِضَارَةِ لِأُورُوباِ ثَانِيَةً قَرْوَنَ!» .

فَازَتْ جِيُوشُ الْهُمْجِ منَ الْأُورَيَّيْنِ عَلَى الْعَرَبِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِيَّ فَأَخْرَجَتْ
الْحِضَارَةَ ، وَفَازَ الْفَلَلَةُ الْمُتَعَصِّبُونَ مِنَ الْفَرْنِجِ مَرَّةً أُخْرَى فَوْزاً سَاحِقًا فِي الْقَرْنِ
الْسَّادِسِيِّ الْمُدْرِنِ فِي الْعَرْقِ

الخامس عشر ، فقضوا على العِرقان والحضارة . وفي الوقت الذي كانت حاكمة التفتیش وسيوف الدولة تسوق إلى المذبح أو إلى البحر رسول الحضارة في الغرب ، وتخلّي أوطاناً بأكملها من أهلها ، وفي الوقت الذي تسقط فيه غرناطة ويتحى أمرٌ مائة ألف مسلم بها ، وجلهم من أهل إسبانيا قيسماً ومن عنصراها الأصلية ذبحاً وطراً وتشريداً ، كانت جيوش الإسلام الظافرة تحت راية أخرى تفتح الممالك الأوروبية الشرقية ، فيستظلّ المسيحيون بظل العدالة الجديدة ، ويُنعم الناس بحرية الضمير وحرية الأديان .

سقطت بزنطة مركز العداوة للمسلمين ، وبمعنٰى العاصف على الأوطان الإسلامية مدة ثمان قرون ، فاستبيحت الحرمات الدينية ، ولا سلطان الفاحش على القائد والأديان ، ولا طرد الناس من أوطانهم ومحسوبياً على نياتهم وضمائرهم .

ولندع الكلام المؤرخين المسيحيين : فرنز ، وفنلي ، وبزيوس ، ودهسون ، كالمؤرخ أرنولد : « كانت أولى الخطوات التي اتخذتها (محمد الثاني) بعد الاستيلاء على القسطنطينية أن طنانَ المسيحيين بالعهد بحماية الكنيسة الأرثوذكسيَّة ، ومنع منها انتهاكاً اصطدامَ النصارى ، وصدرت الإرادةُ السنية بأن يكون للبطريق والأساقفة في النظام الجديد جميع الحقوق والامتيازات التي كانت لهم في النظام السابق للفتح ، واستلم البطريق (جناديوس) من يد السلطان الأداة التي كانت شارة ولادته ، ومعها ألف قطعة من الذهب وحصان مطعم بعُدة فاخرة ليركبها في موكيه في المدينة . ولم يهاب السلطان رأس الكنيسة المسيحية الامتيازات التي كانت له في عهد الأباطور المسيحي خشب ، بل مكنته من سلطة مدنية واسعة على رعايا المسيحيين ؛ فكان مجلس قضاء البطريركية هو الذي يفصل في منازعات المسيحيين ويقفى بالغرامة والحبس والقتل ،

سلطان
وامتيازات
للسياسيين في
دولة الأتراك

وكان حكومة السلطان تنفذ ما يقضى به مجلسُ البطريرقية . فكان للبطريرق الساطة المطلقة في الشؤون الروحية ، ولم تتدخلُ فقط في هذه الشؤون السلطاتُ المدنية الإسلامية ، كما كانت تفعل المسيحية ، قبلَ الفتح . ولما كان البطريرق معتبراً من كبار رجال الدولة في نظر السلطان ، ومعترفاً به ، فقد كان له أن يتدخلَ لرفعِ الظلمِ الذي يقعُ من بعض الولاة على النصارى باتصاله مباشرةً بالسلطان ، وكان للأساقفةِ في الولاياتِ من الحرمةِ والسلطةِ مثلُ ما للبطريرق في العاصمةِ ، حتى اتّهى الأمرُ إلى أن صاروا في مناطقِ سلطانهم الديني كأنّهم مأمورو الدولةِ ولاتها ، خلوا محلَّ الأرستقراطية البيزنطية التي انقرضت بسقوطِ دولتها» .

ذلك ما فعلَ المسلمون في المشرق ، وقد سقطت غرناطة للإسبان بعدَ سقوطِ القسطنطينية للترك بأربعين سنةً ؛ فهل كان للفرجنة فيما فعلَ المسلمون أسوةً ؟ وإذا لم يكن لهم في الماضي الطويل من التسامح المتقطع النظير ، ما يوجهُهم وجهةُ الإنفاق والرحمة ، فلمَ لمَ تكون لهم عزةٌ فيما بينَ أيديهم من مثلٍ عاليٍ ؟ كان ذلك كما قلنا سابقاً ، لأسبابٍ عدةٍ أشرنا إلى بعضها ، وقد يستطيعُ غيرُنا أن يبينَ أسباباً أخرى . وهي في نظري ليست في طبيعة الدين المسيحيٍ ؛ فإنَّ سيدَنا عيسى ما جاء إلا رحمةً للعالمين .

• وإذا كانت كلُّ حوادث التاريخ تُشيرُ إلى أنَّ المزاجَ الفرنسيَّ يخُذُ داعماً هو المزاجُ الفرنسيُّ الممدوح داعماً إلى القهر والتدخل في شؤون الغير الروحية والمعنوية تدخلاً ينبعُ بالظلم والإسراف في سفك الدماء ، فليس من الغريب أن نرى في الحرب الأخيرة والتي قبلها من مظاهر هذا المزاج صوراً من الماضي ، وقد حلَّ النزاعُ الأيديولوجي (الفكري) في هذا القرن محلَّ النزاع الديني في القرون الوسطى .

أمثل فرحة إلهه !
« وبعد » فهل يكتب لسكان الشرق من المسلمين والمسيحيين الذين
تعلق نفوسهم دائماً برجمة الله وترقب هداه إذا اشتدت الظروف
والظلمات ، أن ينهضوا مرة أخرى غيراً لهم السامي الذي يُبْعَثِرُ من عوج
النزع الفكري والاقتصادي والعنصري ، ويُلطف من حدة المزاج الغربي ،
حتى يؤمن بالأخوة الإنسانية ويعمل لخدمة السلام العام بإخلاص نية وحسن
وجه ، بما مكّن الله له في الأرض ؟
ذلك ما نسأل الله رب العالمين أن يعجل بهيئة أسبابه . « إن الله بالناس
لـ« وفـ رحيم » .



297
A991rA
1946
c.1